محمد إبراهيم مبروك

لماذا نقول لا للنموذج التركي و التونسي

البحث عن الخيار الأصلح للثورات العربية





"إن الصفقة التي تطبخ الآن تسعي إلي جعل الإسلام التركي مفرغا من ثوابت الدين" هذا ما قالته مجلة الشاهد البريطانية تعليقاً علي اللقاءات الحميمة بين بوش الابن وأردوغان عام ٢٠٠٤ .

أما ما أقوله أنا فهو إن الخطة التي تطبخ الآن هي أن يكون النموذج التركي هو النموذج الرائد لكل ثورات الربيع العربي وأن أردوغان عندما طاف بهذه البلادبعد ثوراتها مروجاً لهذا النموذج التركي الخالي من ثوابت الدين كان يقوم بدور المقاول من الباطن الذي يحصد ثمار تلك الثورات لصالح الذئب الأمريكي



٣٠ جنيه

لماذا نقول لا للنموذج التركى والتونسي

الطبعة الأولي

رقم الايداع	١١١٤٤ / ٢٠١٢ م

لماذا نقول لا للنموذج التركى والتونسي

محمد إبراهيم مبروك

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ وأنزلنا إليك الكتب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتـــاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهــواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجــاً ولـــو شاء الله لجعلكم أمة وحدة ولكن ليبلــوكم فـــي مـــا ءاتـــاكم فاستبقوا الخيرات إلي الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بمـــا كنـــتم فيه تختلفون ۝

وأن احكم بينهم بمـــا أنـــزل الله ولا تتبـــع أهـــواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولـــوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ۝

أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقـــوم يوقنون ﴾ "المائدة" ٤٨ – ٥٠

المقـــدمة

((إن الصفقة التي تطبخ الآن تسعي إلي جعل الإسلام التركي مفرغاً من ثوابت الدين))

هذا ما قالته مجلة الشاهد البريطانية تعليقاً علي اللقاءات الحميمـــة بـــين بـــوش الابـــن وأردوغان عام ٢٠٠٤ أما ما أقوله أنا فهو :

إن الخطة التي تطبخ الآن هي أن يكون النموذج التركي هو النموذج الرائد لكل ثورات الربيع العربي وأن أردوغان عندما طاف بهذه البلاد بعد ثوراتها مروجـــاً لهـــذا النموذج التركي الخالي من ثوابت الدين كان يقوم بدور المقاول من الباطن الذي يحصد ثمار تلك الثروات لصالح الذئب الأمريكي .

أي إسلام هذا في ذلك النموذج التركي ؟؟؟ !!!.

وأي مغفل هذا الذي لا يري الخيوط الأمريكية تمسك به من كل أطرافه ؟؟؟ !!!

أكتب صفحات هذا الكتاب وأنا أشاهد أمامي علي الشاشات الفـــضائية الأشـــلاء الممزقة لجثث السوريين الذين يحتشدون في المظاهرات في مواجهة طلقات الرصـــاص والمدافع وهم يرفعون الآيات القرآنية المبشرة بالنصر ويصيحون من عمق قلـــوبهم الله أكبر . بينما يقف محمد أركون وممثلو النموذج التركي علي الأبواب ينتظرون اســـتلام سلطة البلاد .

فأتساءل في مرارة :

أكل هذه الأشلاء والدماء تهدر لكي يدفع الأمريكيون في النهاية الأفـــاقين مـــن العلمانيين وأبواق الإسلام الليبرالي لقيادة البلاد بدلاً من الطاغية القائم ؟؟؟ ...

والمشكلة أن الأمريكيين لا يفعلون ذلك في الظلام وإنما في وضح النهار وعلي مرآي ومسمع من الجميع .. أفتكون التضحية بالنفوس والدماء أهون علينا من إعمال العقول ؟؟؟.

أنني أبذل جهوداً مريعة لكي أثبت ما هو بغير حاجة إلي إثبات وما ذلك لشئ إلا لأن قومي ينامون في غفلة عمقيه ولأن الأمة التي كانت أول كلمة تأتي في كتابها المقدس هي (اقرأ) لم تعد الآن تقدر قيمة القراءة .

ولأن المصريين لهم إبداعهم الخاص من منظورهم الخاص أيضا في كل شيء فقد أبدع بعضهم شيئاً جديداً في موضوع الإسلام الليبرالي في الأيام الأخيرة فبدلاً من إدعاء المزج بين الإسلام والعلمانية الأمر الذي يعني انتقاص كل منهما أو ادعاء تطبيق المبادئ العامة للإسلام كمرحلة أولي يتلوها تطبيق الإسلام نفسه في المالانهاية أدعوا العمل علي تطبيق الإسلام كاملاً وعلي تطبيق العلمانية كاملة أيضاً كيف هذا ؟.

لا يهم ولكن المهم هو أن يدفعهم للأمام من يصدقون ذلك وبوجه خاص من لا يفهمونه منهم .

وفي نفس الاتجاه يطفو علي السطح أناس آخرون يزعمون أنهم كانوا قادة لحركات إسلامية خطيرة ليحنوا أعناقهم خانعين لامرأة مشبوهة نكيد للإسلام وأهله في كل كلمة تفوه بها وتحيط نفسها بزمرة من العلمانيين الأفاقين الذين لا يستحون من الكذب والتلفيق علي الإسلام وأهله ودعاته آلاف المرات . فكيف يجيز هؤلاء لأنفسهم أن يجعلوا علمانية هؤلاء الأفاقين هي المرجعية الصحيحة لإدراك معني الأعتدال الإسلامي في كل ما يدور في الساحة الفكرية والسياسية ويفعلون كل ذلك لا لشئ إلا للظهور في تلك القنوات المشبوهة وقبض بضع مئات من الجنيهات أو الدولارات .

إن الدور الذي يقوم به هؤلاء الذين يروجون لذلك النموذج التركي أو يدافعون عنه هو بمثابة صمام الأمان لمنع التصادم بين الشعوب التي تمثل الإسلام والقوى الغربية أو عملائها في الداخل التي تمثل العلمانية بادعاء تطبيق هذا النموذج من الإسلام

الليبرالي كحل وسط بين الإسلام والعلمانية وعلى الرغم من كون هذا الزعم زعماً مستحيلاً للتناقض التام بينهما وعدم قابلية الإسلام للتجزئة فإن الذي يطبق في الواقع هو العلمانية الكاملة ولا يطبق من الإسلام شيئاً سوي بعض الرتوش المدعاة حتى لو مضت هذه النماذج تقود البلاد علي هذه الوتيرة لعشرات السنين .

ومن هذا الدور أيضاً إفقاد مشروعية التيارات الإسلامية الحقيقية أو التشكيك فيها علي أساس أنه مع تمثل النموذج التركي أو التونسي فإن النموذج الإسلامي يكون ها هو قائم بالفعل فمن ثم الإيقاع بهذه التيارات في فخ الاتهام بالتطرف .

وإذا كنا ندين مثل هذه النماذج في بلادها علي أنها نماذج زائفة للإسلام تعطل مسيرة العمل الإسلامي الحقيقي علي الرغم من الظروف القاسية التي تتعرض لها فإن رفضها في بلادنا وبلاد الربيع العربي الأخرى يكون أكبر من ذلك كثيراً لعدم تعرض هذه البلاد لمثل هذه الظروف .

لقد قال السيناتور ماكين المرشح السابق للرئاسة الإمريكية أن لحظة الثورات العربية هذه هي أهم لحظة في التاريخ منذ سقوط الخلافة العثمانية أي أنها أهم من الحرب العالمية الأولى والثانية ، هكذا ينظرون للعالم علي أن الصراع الحقيقي فيه هو بين الإسلام والغرب ولكن العلمانيين عندنا يعمون عيوننا عن هذه الحقيقة .

ولذلك كان اهتمامنا الأساسي في هذا الكتاب هو علي هاتين اللحظتين : سقوط الخلافة الإسلامية وثورات الربيع العربي .

محمد إبراهيم مبروك

الجيزة – الأحد ٢٠١٢/٥/٢٧

ت : ٠١٠٠١٤٩٠٤٩٩

البحث عن الخيار الإصلاح للثورات العربية (١)

الحديث عن الثورة المصرية وهي في حالة صيرورة حديث صعب جداً خصوصاً لو كان المتحدث عنصراً فاعلاً فيها أو علي أن يجعل التعرض لأي جزء منها متداخلاً مع التعرض لكل جزء فيها .

وأود أن أسجل أولاً أن الشواهد التي أذكرها في معرض حديثي عن تطورات الصراعات الفكرية والسياسية للثورة شواهد قائمة علي شهادتي الخاصة ... يقبلها من يتقبلها. وينكرها من ينكرها، فلن أهتم كثيراً بالاستدلال عليها بشهادات أخري لا مجال للاستفاضة فيها في هذا السياق .

وما أذهب إليه هو أن الثورة كانت مفاجئة للجميع وهو الأمر الذي اعترفت به الطليعة الأساسية من شبابها وإن كان قد أنكره البعض بعد ذلك . ففي أحد البرامج التي بثها التلفزيون المصري بعد الثورة مباشرة وجمعت بعدد من هؤلاء الشباب الذين كان بينهم أسماء محفوظ ومصطفي النجار وشادي الغزالي تحدث هؤلاء عن أسباب اندلاع الثورة وتطورات أحداثها فقالوا : " أي حد يتكلم عن الثورة يقول أول حاجة بسم الله الرحمن الرحيم ..تونس .. ولما اتفقنا أن إحنا نتقابل في المكان المحدد كان أكثر حاجة نتصورها حضور ستمية أو ألف واحد أما الناس دي كلها فمكناش نتوقع حضورها "
والشاهد في الموضوع أن الكثير من الشباب الإسلامي قد شارك في التحضير للثورة – وأن لم يكونوا يعتقدون كونها ستكون ثورة – مثلهم في ذلك مثل الشباب الآخرين.

وشارك شباب الأخوان في اندلاعها منذ اليوم الأول دون اعتبار لبيان قادتها بعدم المشاركة مدركين أنه لا يعدو أن يكون عملاً تكتيكياً، وسريعاً ما انضم إليهم هؤلاء القادة الذين تم اعتقالهم قبل الثورة إثر خروجهم من المعتقل بعدها بأيام قليلة وكان للإخوان الباع الأول في الانتصار في معركة الجمل .

وشارك فيها أيضا منذ اليوم الأول شباب السلفية الحركية كأفراد وانضمت إليهم مجموعاتهم وتنظيماتهم في الأيام التالية أما السلفيون التقليديون فقد تخلفوا بالفعل عن الثورة في أسبوعها الأول بل وحاربها بعضهم ولكنهم انضموا إليها في منتصف أسبوعها الثاني .

وكان يسترعي انتباه الطائف الحاذق في الميدان في ليالي الثورة انتماء الغالبية الساحقة من التجمعات الموجودة إلي الإسلاميين خصوصاً من الإخوان وقد جاءوا من القرى والنجوع من المحافظات المختلفة وتحلقوا أمام خيامهم المنتشرة في الميدان والتي كتب عليها أسم قرية أو مدينة أو محافظة كل مجموعة منهم بينما تجمع العلمانيون بتياراتهم المختلفة في مجموعات محدودة تتراوح بين العشرة والعشرين شخصاً يتحلق حولها المئات من أبناء المحافظات- ذوي الفطرة المتدينة والخبرات السياسية المحدودة - مستنكرين ما يوجهه هؤلاء العلمانيون من غمز ولمز للإسلاميين بل وللإسلام أيضا حتى كادوا يفتكون بهم.

وكذلك قد استرعى انتباه الشباب بوجه عام الحضور الخاص لشيخ أسمه حازم صلاح أبو إسماعيل .

ما أريد الإشارة إليه هنا هو التأكيد علي أن الثورة كانت مفاجئة للجميع وأن عصر مبارك بطاحونة براجماتيته المدمرة واستبداده الطاغي العنيف لم يكن من الممكن أن يؤدي إلي التنظير والتخطيط والعمل علي قيام ثورة وإنما الأمر لا يعدو في بدايته أن يكون انتفاضة في سلسلة متتابعة من الانتفاضات التي تنظمها مجموعات سياسية لا يعرف عنها الانتماء لتنظيم إسلامي محدد ومن ثم لا يأبه بها كثيراً وقد ساعدتها الظروف الخارجية علي أن تستجيب لها شريحة أفقية من شرائح المجتمع المصري تجاوبت معها علي التوالي بعض الشرائح الأخرى بعد ذلك.

ولأن هذه المجموعات الشبابية لم تكن تنتمي إلي اتجاه محدد فقد كان من بينها الكثيرون من الشباب بلا أي اتجاه وقد كان من بينها أيضا شباب من جميع الاتجاهات

ومن يتابع حوارات الفيس بوك بين هؤلاء الشباب السابقة للثورة والمحضرة لها سيلاحظ الصبغة الدينية الغالبة علي هذه الأحاديث وإن لم تكن تعبر عن انتماء تنظيمي ملحوظ .

ما الذي أريد أن أقوله هنا ؟

الذي أريد أن أقوله هو أن الثورة المصرية كان العامل الأساسي في تفجيرها هو عامل خارجي ومن ثم فقد كانت مفاجئة لجميع التيارات السياسية والتي لم تكن مهيأة للتعامل مع هذه الثورة بما في ذلك الإسلاميين الذين مثلت الثورة هدية من الله لهم لم يعمل قادتهم علي استغلالها بأقل حد مناسب لا فكراً ولا سياسة ولا سلوكاً وما أقوم به من نقد لهم هنا – علي الرغم مما به من تحفظ – لم أسمح لنفسي به إلا لإدراكي خصوصية المتعاملين مع كتبي هذه.

فأبجديات السياسة كانت تحتم علي قادة العمل الإسلامي لاستثمار هذه الغالبية الحاشدة المؤيد لهم والحفاظ علي حالة الفورة الثورية لدي الشعب المصري وهي أمر يكاد يعدو حدوثه مع الواقع الذي صنعه مبارك– والذي سنظل نعاني أثاره لعقود طويلة– ضرباً من المستحيل وذلك بعيدا عن أي رصد تاريخي لإمكانية قيام الثورات لدى المصريين.

أقول أن أبجديات السياسة كانت تحتم علي هؤلاء القادة قبل أي شيء العمل علي السيطرة الثورية الدائمة علي الميادين والإصرار علي المشاركة في إدارة المرحلة الانتقالية ومحاصرة وتحجيم أجهزة الإعلام العلمانية وقيادة العقول المفكرة لكل ذلك.

كان يجب أن يكون العمل الأول هو الاستمرار في الضغط الفعال من خلال الشغل الدائم للميادين والشوارع وتثويرها لأنه من غير المعقول أن أكون في حالة ثورة وأترك الميادين وهي سلاحي الوحيد في مواجهة بقايا النظام ولأن هذا لم يحدث فقد تركت أركانه وقواعده ومخالبه القوية فيما يسمي الدولة العميقة تعيث في الأرض فساداً وتملي علي الآخرين شروط وقواعد المرحلة .

ومن غير المعقول أن يعطيني الله كل هذه الجماهير الغفيرة تأتمر بأمري وأترك الساحات شاغرة ليشغلها شذاذ الأرض من العلمانيين أياماً وليال وشهوراً وهم يعبثـون بعقول الناس ويملئونها بالشكوك والتمرد ضد الإسلام والإسلاميين مجندين منهم أتباعـاً وكوادر جديدة متذرعين في ذلك بانفرادهم بالتواجد الدائم بالميدان وأنهم بذلك أصـحاب الثورة وليتم الترويج لهذه القسمة المزعومـة إعلاميـاً (إسـلاميون وثـوار) وكـأن الإسلاميين الذين حملوا الثورة فوق أعناقهم وقادوا الجماهير في مواجهة القوى الأمنيـة يوم الثامن والعشرين وقدموا القدر الأكبر من الضحايا والدماء غير ثوريين .

أقول هذا مع عدم إنكاري للدور الايجابي الذي قامت به بعد القـوى العلمانيـة والقوى الجماهيرية غير المؤدلجة والذي أثمر نتائج هامة كثيراً ما استفادت بها القـوى الإسلامية ذاتها.

أقول لقد تم ترك الميادين ولم تتم المبادرة بالعمل علي القضاء علي بقايا النظام والمطالبة بالمشاركة في صنع المرحلة الانتقالية وحين سقط مبارك كان الوقـت وقـت شتاء فعاد الإسلاميون إلي أماكنهم ينتظرون جدول الأعمال الذي يملي عليهم [١] . فجاء قانون تكوين الأحزاب الذي اشترط عدم قيامها علي أساس ديني الأمر الذي لو تم تفعيله تفعيلاً جدياً (وهو الآن رهن المحكمة الدستورية) لتم الإطاحة بالإسلاميين كاملاً. وأقل حد أدني للموضوع هو تقليص المحتوي الإسلامي لهذه الأحزاب وتجفيـف نـشاطاتها السياسية من هذا المحتوي إلي أقصي حد . وبدلا من أن يرفض القادة الإسلاميون هـذا القانون مستندين علي تفويض الثورة لكل الرؤى المسبقة ، وافتقاد الشرعية لقانون يقوم علي نفس الأسس العلمانية للنظام السابق . وكأن العلمانية هي الأسـاس الأيـديولوجي للدولة المصرية الذي لا يتغير !!!! .

---

(١) ومن المنظور الثوري يمكن القول أنهم ناموا في الأسرة وشدوا الأغطية فـوقهم ولـم ينزعوهـا إلا في ٧/٢٨ اعتراضاً علي وثيقة السلمي .

من الذي قال ذلك ؟

النظام السابق ...

وثلة من العلمانيين الأقحاح الذين ترتبط مصالحهم بذلك .

وغفلة الإسلاميين .

أقول بدلاً من رفض هذا القانون ومواجهته كان الالتفاف لنيل المنح من قبل إصدار القانون وبعد إصداره متجاهلين أن من يملك أن يعطي المنح قادر علي سلبها .

وتُركتا وزارتي الثقافة والإعلام يدمران المحتوي الإيماني الإسلامي الأيديولوجي لجسد الثورة بالتأكيد علي استمرار سيطرة نفس الرؤى والأسس للعلمانية للنظام القديم .

وتغافل الإسلاميون عن ذلك أو تجاهلوه أو هونوا من نتائجه مع أن الإعلام هو أخطر سلاح في الكون بعد أسلحة الدمار الشامل .

بل أنه في الحروب السياسية يكون هو ذاته سلاح الدمار الشامل لقد تعلمنا منذ ما كتبه هربرت شيلر في الستينات والسبعينيات ثم نعوم تشومسكي في التسعينات وما بعدها وأخيرا أرثر أسابرجر في الوقت المعاصر إن من يتحكم في الإعلام لا يتحكم فيما يأكله الناس أو يلبسونه فقط وإنما يتحكم في أختياراتهم السياسية والقيمية والعقدية أيضاً .

وقبل ذلك تعلمنا من ميشيل فوكو أن القوة إذا امتلكت الإعلام تتحول هي ذاتها إلي قوة تصنع الواقع .

وقبل كل ذلك يعلمنا القرآن الكريم ذاته الأهمية القصوى للإعلام برده علي ادعاءات المخالفين وتفنيده لأكاذيبهم وادعاءاتهم وبشاراته للمؤمنين التي تبث الرعب في قلوب الكافرين وأعداء الإسلام .

وعلي الرغم مما سبق فقد تم الاستخفاف والتهوين من التأثير الخارق للأعلام والحديث عن أنه لا يؤثر في أكثر من ١٠ إلي ١٥ في المائة من أصوات الناخبين . فتحولت أجهزة الإعلام الرسمية وغير الرسمية إلي أبواق جهنمية فاجرة في مهاجمة الإسلاميين بل ومهاجمة الإسلام نفسه من طرف الكثير منها دون أي وازع أو رادع أو التزام بأدنى حدود المنطق ذاته أو خوف من الافتضاح المخزي أمام عيون وأذان العالم المتحضر الذي يراقب عن كثب تفاصيل الأحداث الجارية في مصر بعد الثورة وذلك كداعرة علي يقين كامل أن أملها الوحيد في البقاء علي قيد الحياة هو ممارسة الدعارة أمام عيون وأذان العالم أجمع .

وهكذا تتردد الأكاذيب والشناعات ليل نهار ألاف المرات علي عشرات القنوات ومهما تم تقديم كل الإثباتات التي في الكون علي كذب ما يقال فإنه يظل ترديدها مستمراً لآلاف المرات أيضا علي التوالي بغير انقطاع إلي درجة التي صار الجلوس معها أمام شاشة التليفزيون لمتابعة هذه الأكاذيب لمدة ساعة أو أقل من ذلك هو نوع من التحدي لا تستطيعه العقول المستقيمة بوجه خاص .

ولأنه ليس من المناسب هنا الاسترسال في هذا الموضوع ولكني سأضرب لذلك مثلاً واحداً . هو ما أدعته احدي الجرائد الكبرى أن أحد أعضاء مجلس الشعب من الإسلاميين قد تقدم بمشروع يسمح بمضاجعة الزوجة لمدة ستة أشهر بعد موتها فيما سمي بـ (مضاجعة الوداع) وعندما تناقلته الصحف العالمية بما فيه من تشويه للإسلام نفسه أعادت الجريدة الكبيرة نشر الخبر نقلاً عن هذه الجرائد العالمية الأمر الذي استنكرته الجرائد الأمريكية ذاتها بعد اكتشاف الحقيقة وقالت أن هذه الجريدة ابتدعت أمراً لم تتجرأ أسوء الجرائد الصفراء علي صناعته وهو إعادة نقل الأكذوبة عن الجرائد العالمية التي تناقلتها عنها وتعجبت كيف بلغت الجرأة علي تشويه الإسلام إلي هذه الدرجة في دولة مثل مصر .

وإن كان هذا الذي يحدث من الإعلام عجيباً أشد العجب فإن الأعجب منه تعامل الكثيرين من الإسلاميين مع هذا الإعلام، فقد بدا الضعف الشديد في القدرة علي المناظرة والحوار من جانب أغلب الكوادر السياسية التي تم تقديمها لهذه الأجهزة الإعلامية بدلاً من الكوادر الفكرية ، ومن جهة أخرى تم النزول علي القواعد المشروطة المجحفة لإدارة هذه الحوارات مثل إقامة الحوار بين أحد الإسلاميين في مقابل ثلاثة من القوى العلمانية – ينضم إليهم المذيع كطرف رابع طبعاً – ولا يتم إعطائه الفرصة للرد علي أي شئ ، في الوقت الذي لا يكون هو نفسه مؤهلاً فكرياً عادة للدخول وفي مثل هذه الحوارات من الأصل وفضلاً عن التخاذل الذي يبديه بعضهم في الدفع عن ثوابت الإسلام فبدلاً من قيامه بدحض الهجومَ عليها يقوم بالدفاع عن نفسه هو بتقديم البراهين بأنه هو و التيار الذي ينتمي إليه لا يلتزمان بهذه الثوابت... هذا ناهيك عن الخساسة والضعة التي يبادر بها بعض الذين انتسبوا لصفة الإسلامية في الماضي وصاروا يتاجرون بها في الحاضر وهم يتهافتون علي الاشتراك في هذه الحوارات المؤسفة والتي يتملقون فيها هؤلاء العلمانيين بالتنازل عن كل الثوابت الإسلامية التي يبتغون التخلص منها ، أو بتأويلها بالطريقة التي تتوافق مع توجهاتهم .

أقول ذلك دون أن أنكر أن هناك بعض الإسلاميين قد أدوا أداءً إعلامياً رائعاً وملتزماً برغم كل الظروف المجحفة التي واجهوها في تلك اللقاءات .

والحصيلة الأخيرة من كل ذلك فضلاً عن تشويه الإسلام وتفريغه من ثوابته هي فك الارتباط لدي الجماهير بين المرجعية الإسلامية والتيارات الإسلامية السياسية وهذا أقصي ما يطمح إليه العلمانيون لإزالة الحدود الفارقة بين الإسلام والعلمانية ووضع صورة ضبابية عن العلاقة بينهما تنفيْ الطعن الموجة لهم بالتناقض مع الإسلام لدي الجماهير ووضع معايير جديدة لاختيار قادة البلاد والكوادر التابعة لهم تقوم علي حسن الإدارة والقدرة علي تحقيق المصالح المادية وبذلك يتم تقويض المشروع الإسلامي كاملاً ويصبح غير ذا موضوع ويفقد الإسلاميون قدراً كبيراً من عوامل النجاح في أي

انتخابات قادمة والمدهش أيضا أن هذه النتيجة ربما أرادها بعض الإسلاميين متعمداً حتى لا تتم مسائلته علي أساس المرجعية الإسلامية عند تخاذله عن إقامة المشروع الإسلامي.

وافتقدت أغلب وسائل الإعلام التي أنشأها الإسلاميون سواء في شكل جرائد أو قنوات تليفزيونية القدرات المادية اللازمة وجاءت جميعها ضعيفة التأثير من الناحية الفنية والإبداعية ولا يرجع هذا الضعف لضعف القدرات المادية أو القدرات الفنية والإبداعية للعاملين فيها علي وجه الخصوص وإنما يرجع ذلك إلي افتقاد هذه الوسائل إلي القاعدة الفكرية المتطورة والتراكمات المعرفية الكبيرة التي يجب أن تستند عليها ففي ظل الصراعات السياسية والإيديولوجية لا يمثل الإعلام ذو القدرة الكبيرة علي التأثير إلا إفراز نهائي لأساس فكري ورؤية سياسية عميقة والاستثناء الوحيد الذي استطاع صنع ذلك إلي حد كبير هو البرامج المتعاقبة للداعية خالد عبد الله علي الرغم من حديثه في أكثر من مناسبة عما يعانيه من مرارة حائرة بسبب الكثير من الأخطاء التي وقع فيها القادة السياسيون للحركة وأصابت الإسلاميين في كل مكان بالارتباك والحيرة .

فتراجع القيادة الفكرية يظل الخلل الأساسي في كل قرارات ومواقف الحركة الإسلامية ونتاجاتها الإعلامية والإبداعية وهو تراجع قديم يعود إلي حوالي ثلث قرن مضي (من السبعينات) علي وجه التحديد وما كانت قيادة الحركة بتياراتها المختلفة علي- عكس ما يتصور الغالب الأعم من أبنائها الآن- تعود فيما قبل ذلك للمحنكين السياسيين أو الحركيين أو العلماء التقليديون إنما كان ينبغي أن تكون هذه القيادة بأيدي المفكرين المتعمقين في الأساس الذين يجمعون بين علوم الدنيا والدين ويمتلكون القدرات العقلية العميقة علي الربط بين القواعد الإسلامية الأصيلة ومتغيرات الواقع الراهن . فالمفكر لا يعني صاحب الفكر المطلق المتحرر من كل قيد والذي يحكمه الهوى والمصالح الشخصية كما ظن ذلك أحد العلماء التقليديين الكبار وأفتي فتوى مؤسفة بالبطلان الشرعي لما يسمي المفكر الإسلامي (وربما يكون قد اعتمد في ذلك علي مدارسته لكتابات بعض الصحفيين المتمرسين المنتحلين لهذه الصفة) وإنما المفكر هو

اسم فاعل من لفظ فكر أي أنه عبد مستجيب لأوامر الله في الكثير من آياته لعباده بالتفكر والتدبر والتفقه مثل قول تعالي:

"وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون" (١٧٦ الأعراف)
وقوله :" لو أنزلنا هذا القرآن علي جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون" (٢١ – الحشر) .

وهو يختص بهذه الصفة عن باقي عباد الله الذين استجابوا لهذه الأوامر لأن هذه الاستجابة تمثل عنصراً في حياة هؤلاء العباد لكنها تمثل الشغل الشاغل لحياة هذا العبد الذي يتصف بذلك فهو يستند في تفكيره إلى الأصول منطلقا إلي آفاق الله الواسعة في الكون والتاريخ والحضارات وإلي الغوص في الفلسفات والأفكار والمعارف والنظريات وأسرار السلوك البشري . وامتلاك القدرة بذلك وبما وهبه الله من قدرات عقلية متفوقة علي الربط بين حقائق الشرع ومتغيرات الواقع.

ووجود المفكر الإسلامي ليس بدعاً يريد به البعض إخلاء المقام للعالم الحافظ أو الفقيه التقليدي وإنما هي صفة تميز بها فريق من العلماء والأئمة المجتهدين في الأمور الشرعية والعقلية معاً عن فريق آخر من العلماء والأئمة التقليديين الذي تميزوا في جانب العلوم الشرعية فقط . ومن أمثال هذا الفريق الأول الذي نتحدث عنه أبن حزم وابن الجوزي والعز بن عبد السلام وابن تيمية وأبن القيم وبن خلدون .

وستجد أن هؤلاء الأئمة وإن لم يشتهر عنهم لفظ المفكر فقد اشتهرت عنهم نفس الصفة بألفاظ أخري مثل الحكيم أو عالم الدنيا والدين أو الفيلسوف المجتهد . وبنفس هذا التكوين العقلي (وإن لم يبلغ مبلغ الأقدمين في الغالب) قاد الحركة الإسلامية الحديثة عدد من هؤلاء المفكرين كرشيد رضا والثعالبي وسعيد الدين النورسي والمودودي وحسن البنا ومحب الدين الخطيب والبشير الأبراهيمي وعبد الحميد بن باديس ومالك بن نبي وسيد قطب وأبو حسن الندوي .

ويبدو أن موت هؤلاء الأئمة والمفكرين كان إيذاناً لعصر الجديد تتخلي فيه الحركة الإسلامية عن كل الجهود العقلية الجبارة لهؤلاء الأئمة العظام في القديم والحديث. لتتحدث عن الاكتفاء بالنص في مواجهة متغيرات العصر وهذا ما لم يقله أحد من الأئمة المجتهدين علي امتداد تاريخ الإسلام والذين تحدثوا عن فقه الواقع كجانب مقابل لفقه النصوص في أصول الاجتهاد أو التخلي عن كل ما سبق وتسليم زمام الأمور للقائد السياسي أو الحركي .

وبذلك كان نتاج الحركة الإسلامية في الثلث قرن الأخير هو:

تقديم التقليد على الفكر .

أو تقديم السياسة على الفكر .

أو تقديم الحركة على الفكر .

كنت أحدث أحد العلماء الشهيرين عن أهمية تدريس الفلسفة الغربية والعلوم الإنسانية المعاصرة للمتخصصين في العلوم الإسلامية ليس لنقد المذاهب الإلحادية القائمة علي تلك الفلسفات أو إيجاد البديل الإسلامي المقابل لتلك العلوم الإنسانية الغربية وإنما لأن تلك الفلسفات والعلوم التي شكلت عقول القيادات الغربية التي استطاعت السيطرة علي العالم الإسلامي وتشكيل واقعه المعاصر الفكري والسياسي والاقتصادي والإعلامي وإنه لا يمكن التعامل مع هذا الواقع بالرؤى والاجتهادات الإسلامية المختلفة إلا بامتلاك القدرة علي تفكيك هذا الواقع باستيعاب الفلسفات والعلوم التي قام عليها وتفكيكها والتعامل مع مفرداتها .

فنظر لي الرجل بقدر من دهشة وقال : (صحيح لديك حق من المهم دراسة هذه الفلسفات والعلوم لنقدها .... !!!)

والنتيجة هي حالة الارتباك التي واجهت الحركة الإسلامية قبل وأثناء وبعد الثورات العربية .

فالقدرات الفكرية في شكلها الواضح والملح جداً كانت تتطلب علي الدوام في المناظرات والحوارات القائمة علي الدوام في شاشات التلفزيون وفي الميادين والشوارع وكل ركن صغير أو كبير في هذه البلاد بين الإسلاميين والعلمانيين والمغترين بأفكارهم دون علم وروية قبل وأثناء وبعد الثورة ولكنها متطلبة بشكلها الأوسع والأعمق في تحديد أولويات الصراع وأطرافه وأعماقه والثقل النسبي لقواه المختلفة والموقف الشرعي المناسب للتعامل معه وما هو الثابت والمتغير في هذا الموقف الشرعي وما هو يمكن تقديمه وما هو يمكن تأخيره وما هو يمكن التنازل عنه وما هو لا يمكن التنازل عنه في أي مرحلة من المراحل وما هي التصورات الإسلامية البديلة لتشكيل هذا الواقع وما هو من الممكن أن يكون فورياً أو تدريجياً وما هو مزيف وادعائي في كل ذلك وما هو حقيقي فيه .

وأعجب العجب ذلك الذي جاء علي لسان بعض قادة هذه الثورة وهو ...أن الحكمة تقتضي العمل بسياسة المراحل والعمل دون حرقها بتقديم التالي منها عما يسبقها من عمل ....

لأن هذا الكلام لا يستقيم إلا في حالة من الاستاتيكية الراسخة الممتدة في الظروف المحيطة بالصراع بل وفي فعاليات الصراع نفسه .

وهذا الأمر يتطلب في ذاته وعياً سياسياً عميقاً بما يمكن أن تؤدي إليه متغيرات الواقع من مراحل متعاقبة وما هي المعالم الفكرية والسياسية لكل مرحلة وما هو الجانب الشرعي المتعلق بالتعامل معها مع الحفاظ علي القواعد والأصول .

هنا يمكن تصور بناء منهج لمراحل التغيير يتناسب مع العوامل المختلفة والثبات النسبي للقوى الممثلة لمتغيرات الواقع القائم.

أما في ظل واقع متغير – خصوصاً إذا كان واقعاً ثورياً – فإن الحديث عن سياسة المراحل هذا يكاد يكون ضربا من العبث لأنه في الحالة الثورية فإن الذي يصنع النتائج المرجوة هو القوى الفاعلة علي الأرض والقوى الواعية بأفكار وأهداف وإمكانات وفعاليات كل القوى المناوئة لها في الداخل والخارج ومبادرة كل هؤلاء بالفاعليات الراسخة علي الأرض والمنتصرة لإرادة الجماهير التي استطاعت التفاعل معها، وكذلك المتغيرات الفكرية والسياسية والاجتماعية المتعلقة بكل هذا والتي تكون في حالة فوران غير منضبط المعالم .

وهنا لا يمثل الوعي الثوري الوعي برصد المراحل وتتبعها فكل هذا يغدو مخلفات مرضية لعصور قديمة وإنما الوعي بصناعة الأحداث والقفز بها أيضاً وأحياناً والتراجع عنها في حالة نشيطة وناضجة من المد والجذر حتى الاستقرار بها في النهاية في أفضل نقطة ممكنة .

فإذا كانت متطلبات الحالة الاستاتيكية المشار إليها مفقودة إلا في القلة القليلة من قادة الحركة الإسلامية الموجودين الآن فما بالك بمتطلبات الحالة الديناميكية الثورية التي تمر – أو مرت – بها البلاد .

لكنك تفيق من وقع الأحداث المتلاحقة للثورة علي صوت قائد أو آخر من الإسلاميين يقول لك : " ليس من المناسب تقديم هذه الخطوة الآن ... لا نريد حرق المراحل " .

ويكون هذا الذي ليس مناسباً المقصود به ... ليس مناسباً أن يكون تالياً لما هو قديم قبل الثورة وربما مازال قائماً بعدها وكأن هؤلاء القوم لم يعوا بعد أن ثورة قامت ورئيس ولى. وهذا كلام ينطبق علي الكثيرين وليس علي الذين يتحدثون عن حرق المراحل فقط .

فارق كبير أن تعمل في حدود ما هو متاح لك وتتحدث عن الواقع والممكن والمقبول.

وأن تملك الطموح والخيال والوعي المحلق والإرادة والقدرة الإبداعية علي تغيير الواقع نفسه واستغلال الفرصة المتاحة تلك بل والاعتراك مع الواقع ذاته لصناعة تلك الفرصة.

فارق كبير أن ترضى بما يتركه لك الآخرون وتتحرك في الحيز الذي يريدونه لك وتتحدث عن الضغوط التي تواجهك في صناعة التغيير(وكأنه من الممكن أن يكون هناك تغيير بلا ضغوط !!!) وأن تسخر أنت من تلك الضغوط ولا تترك الفرصة لممارستها عليك وتكون قادراً علي تقديم التضحيات الرادعة لمن وراءها بل والتقدم بإيجابية وتخطيط وإبداع لممارسة ضغوطك أنت ووضع الآخرين في الحيز الذي تريد أن يكونوا فيه.

فارق كبير أن تكون لك الأغلبية الكاسحة والفرصة الذهبية المتاحة وطموحات أمة تنتظرك ولكن ما تعودت عليه من خنوع وكيد مراوغ يعميك عن متطلبات الانتصار ويذهلك عن الفاصل الحاد بين ماض طاغ وواقع مبشر .

فارق كبير أن تكون أنت أهاباً للحدث مقدراً لما حبتك به ظروف الداخل والخارج من فرصة مواتية مستثمرا لكل القوى والإمكانات ، مبادراً مقداماً ، محاصراً للآخرين ومحدداً لهم أجندة عملهم وبين أن تكون هادئا خانعا منتظرا ما يحدده لك الآخرون فيما يمكن أن تفعله.

والخلاصة فارق كبير أن تقود ثورة وأنت تملك الإخلاص والرسوخ الفكري والقدرة علي الإبداع والإقدام والتضحية وأن تقودها وأنت لا تملك شيئاً من هذا وإنما غاية ما تعتمدُ عليه هو الكيد والحيلة والمناورة .

ولا أعرف أي قوم في التاريخ يسمون الغفلة والبلاهة حيلة ودهاء غيرنا.

ففي الانتخابات الرئاسية السابقة ينحاز مسيحيو مصر إلي المرشح المضاد للإسلاميين للمرة الثالثة علي التوالي في الانتخابات التي أجريت بعد الثورة وهذا حق

لهم لا مراء فيه ولكن أمازال ذلك غير كاف لإيقاف مسلسل الخنوع والتملق وإهدار ماء الوجه في سبيل كسب رضاء هؤلاء القوم عن الإسلاميين "لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد"

وفي نفس ليلة إعلان نتائج هذه الانتخابات وانحسار الإعادة بين الدكتور محمد مرسي والفريق أحمد شفيق أسفر الكثيرون عن وجوههم الحقيقية الحاقدة علي ..... وأهله وكل ما يمت له بصلة وأن لديهم الاستعداد لوضع أيديهم في أيد الشيطان ذاته في مواجهة الإسلاميين ووقف العلمانيون يبررون ذلك متحدثين بنفس اللغة الكاذبة المفضوحة عن الخلاف مع الدولة الدينية وأنهم لابد أن يستعيضوا الآن عن ثنائية الخلاف بين الثورة والثورة المضادة بالخلاف بين الدولة المدنية والدولة الدينية ومن ثم لا يكون غريباً انحيازهم إلي الثورة المضادة دفاعاً عن الدولة العلمانية التي يسمونها المدنية في مواجهة الدولة الإسلامية التي يسمونها نفاقاً بالدولة الدينية .

فإلي متى أنت ستظل أيها الإخواني تعمل علي استرضاء هؤلاء العلمانيين مقدماً لهم التنازلات تلو التنازلات في مقابل المزيد من الاستقواء والاستعلاء بالنسبة لهم حتى طالبوك أخيرا بإعلان التنازل عن الشريعة والتخلي عن آخر أرديتك مع أن رضاءك بالمبادئ العامة للشريعة وليس بأحكامها هو تنازل فعلي عنها ولكنهم يريدون بذلك القضاء حتى على مجرد وجود أي نية لتطبيق هذه الأحكام في المستقبل وهو الأمر الذي يعني انهيار الجماعة والتخلي عن مصداقيتها للأبد

" لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد " .

هل كل ما ترجونه بذلك هو كسر شوكتهم ضدكم ؟! .

إنكم في الحقيقة تقوون هذه الشوكة ولا تكسرونها. وهل ادخر هؤلاء أو توانوا في تقديم أي قدر من الجهد في تشويهكم علي كل الأجهزة الإعلامية .

فما هذه الحيلة والدهاء فيما تفعلونه ؟

والنتيجة من كل ما سبق أنه قد تم دفع البلاد إلي الخيار بين تنويعات مختلفة بدرجات متفاوتة من نموذج الإسلام الليبرالي الاردوغاني الأمريكي وهو الخطر الذي يلزمنا البحث في جذوره العميقة المتمثلة في تطورت الصراع الفكري والحضاري بين الإسلام والغرب منذ التراجع الحضاري للدولة العثمانية وحتى الآن والتي أدت إلي هذا النتاج الفكري الزائف والعمل علي استجلاء حقيقته وأهدافه وذلك في رحلة طويلة وشاقة لا يدخر القارئ المتعمق جهداً في خوض غمارها لما تستحقه من اهتمام ليكون لقاؤنا بعدها في الجزء الثاني من البحث عن الخيار الأصلح للثورات العربية .

النموذج التركي

تمهيد

لفهم حدوث الصراعات الفكرية والسياسية في فترة تراجع الدولة العثمانية فلابد من معرفة الضغوط المؤثرة عليها والتي أهمها الهزائم التى تعرضت لها هذه الدولة في هذه المرحلة حتى سقوط الخلافة ولأنه ليس من شأن الكتاب الدخول في تفاصيل ذلك فلقد قدمنا لهذا الموضوع بهذين الجدولين الذي يذكر الأول فيه تاريخ سلاطين الدولة العثمانية والثاني تاريخ الهزائم التي تعرضت لها في فترة تراجعها .

تاريخ السلاطين العثمانين

١	أرطغرل غازي بن كندر ألب	١٢٨١ - ١٢٨١
٢	عثمان غازي	١٢٨١ - ١٣٢٤
٣	أرخان غازي	١٣٢٤ - ١٣٦٢
٤	مراد الأول	١٣٦٢ - ١٣٨٩
٥	يلدرم بايزيد	١٣٨٩ - ١٤٠٢
٦	سليمان الأول	١٤٠٢ - ١٤١٠
٧	محمد جلبي	١٤١٠ - ١٤١٣
٨	موسي خان جلبي	١٤١٣ - ١٤٢١
٩	مراد غازي الثاني	١٤٢١ - ١٤٤٤ - ١٤٤٥ - ١٤٤٦ - ١٤٥١
١٠	محمد الثاني (الفاتح)	١٤٤٤ + ١٤٤٥ + ١٤٤٦ + ١٤٥١ - ١٤٨١
١١	بايزيد الثاني	١٤٨١ - ١٥١٢
١٢	يا سليم	١٥١٢ - ١٥٢٠
١٣	سليمان الثاني (القانوني)	١٥٢٠ - ١٥٦٦
١٤	سليم الثاني	١٥٦٦ - ١٥٧٤
١٥	مراد الثالث	١٥٧٤ - ١٥٩٥

١٦	محمد الثالث	١٥٩٥ - ١٦٠٣
١٧	أحمد الأول	١٦٠٣ - ١٦١٧
١٨	مصطفى الأول	١٦١٧ = ١٦١٨ + ١٦٢٢ - ١٦٢٣
١٩	عثمان الثاني	١٦١٨ - ١٦٢٢
٢٠	مراد الرابع	١٦٢٣ - ١٦٤٠
٢١	إبراهيم	١٦٤٠ - ١٦٤٨
٢٢	محمد الرابع	١٦٤٨ - ١٦٨٧
٢٣	سليمان الثالث	١٦٨٧ - ١٦٨١
٢٤	أحمد الثاني	١٦٩١ - ١٦٩٥
٢٥	مصطفى الثاني	١٦٩٥ - ١٧٠٣
٢٦	أحمد الثالث	١٧٠٣ - ١٧٣٠
٢٧	محمد الأول	١٧٣٠ - ١٧٥٤
٢٨	عثمان الثالث	١٧٥٤ - ١٧٥٧
٢٩	مصطفى الثالث	١٧٥٧ - ١٧٧٤
٣٠	عبد الحميد الأول	١٧٧٤ - ١٧٨٩
٣١	سليم الثالث	١٧٨٩ - ١٨٠٨
٣٢	مصطفى الرابع	١٨٠٧ -١٨٠٨
٣٣	محمود الثاني	١٨٠١ - ١٨٣٩
٣٤	عبد المجيد الأول	١٨٣٩ - ١٨٦١
٣٥	عبد العزيز خان	١٨٦١ - ١٨٧٦
٣٦	مراد الخامس	١٨٧٦
٣٧	عبد الحميد الثاني	١٨٧٦ - ١٩٠٩
٣٨	محمد الخامس (رشاد)	١٩٠٩ - ١٩١٨
٣٩	محمد السادس (وحيد الدين)	١٩١٨ - ١٩٢٢
٤٠	عبد المجيد الثاني	١٩٢٢ - ١٩٢٤

هزائم الدولة العثمانية

١	الهزيمة من الروس	١٩٧٤
٢	الهزيمة من الروس والنمساويين	١٧٨٩
٣	الهزيمة من الروس	١٧٩١
٤	الهزيمة من الفرنسيين	١٧٩٨
٥	الهزيمة من محمد علي	ثلاثينات القرن التاسع عشر
٦	الهزيمة من فرنسا	١٨٣٠
٧	الهزيمة من فرنسا	١٨٧٠
٨	الهزيمة من الروس	١٨٧٨
٩	الهزيمة من فرنسا	١٨٨١
١٠	الهزيمة من الإنجليز	١٨٨٢

الدولة وتعرض الأراضي التركية نفسها للاحتلال في الحرب العالمية الأولي ١٩١٤ – ١٩١٩ .

الصراع الفكري والسياسي داخل الدولة العثمانية

أول المفكرين الذين يقابلوننا في محاولة إصلاح الدولة العثمانية هو قوجي بك أو قوجا مصطفي من أهل مقدونيا أو ألبانيا ، جاء إلي استانبول ونشأ في السراي السلطانية وأصبح بالتالي عضوا في إدارة السلطان وكان بحكم عمله قريباً من الأحداث التي عرفتها استانبول حيث عاصر خمسة سلاطين تعاقبوا بسبب صراع السلاطين مع أغوات الانكشارية وشيوخ الإسلام وكان أهم هذه الأحداث هو صراع السلطان الفتي عثمان الثاني مع الانكشاريين والذي انتهي بمقتله عام ١٦٢٣ وقد أعد قوجي بك رسالته الإصلاحية " قوانين نامة " المراد الرابع حيث أرجع فيها أسباب انحطاط الدولة العثمانية إلي إهمال السلاطين وتراجع العلم وساد الحاشية وبذخ الوزراء والقادة وبيع المناصب وفساد الانكشارية [١] .

أما حاجي خليفة فقد كتب رسالة مماثلة رفعها إلي السلطان محمد الرابع تحت عنوان " دستور العمل لإصلاح الخلل " . وقد ركز فيها علي أسباب فراغ الخزينة التي شبه وجودها في الدولة بالمعدة في جسم الإنسان وأرجع ذلك إلي أمرين أساسيين "خراب الزراعة الذي تسببت فيه الضرائب الباهظة التي وضعها الضباط من أنفسهم وبذخ الإنفاق العسكري ورأي حاجي خليفة أربع حلول لإصلاح الوضع " إما عن طريق صاحب السيف أو أعيان الدولة أو كبار الضباط أو وكلاء الدولة ، ولكن يستبعد الإمكانيات الثلاث الأخيرة وينتظر الإصلاح من صاحب السيف وتكون أولي مهام هذا الرجل .

علاج العجز في الخزينة ، تخفيض حجم الجيش المتضخم ، الحد من المبالغة في الإسراف ومعالجة فقر المزارعين " [٢].

---

(١) راجع خالد زيادة ، المسلمون والحداثة الأوربية : ص ٣٨ – ٤٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥ .

ثم تأتي محاولة حسين هزار في (١٦٠١ – ١٦٩٧) في كتابه " تلخيص البيان في قوانين آل عثمان " فيؤكد علي نفس المسائل السابق ولكن بطريقة أشد قسوة في نقده للمسئولين عن التدهور كما أنه " يضع اعتباراً كبيراً للمسئولية الروحية المنوطــه بشيخ الإسلام والعلماء لما توره من رفاه للدولة والرعية "(١).

أما بدايات الفكر الغربي في الجهود الإصلاحية العثمانيــة فإنهـا تظهـر مـع الدبلوماسي والمترجم إبراهيم متفرقة في كتابه " أصول الحكم في نظام الأمم " الــصادر عام ١٧٣١م فإن كان متفرقة يتابع في كتابه توجهات المفكرين السابقين إلا أن الهاجس العسكري الذي يسيطر علي كتابه ويكون موضوعاً وحيداً لمحاولته حيث يحز في نفسه كثيراً تفوق الشعوب الغربية علي العثمانيين عسكرياً حيث يذهب إلي أنه " للوصول إلي حل لهذا الموضوع الصعب ينبغي معاينة طريقة الحرب الجديد بدقة والمعتمدة من جانب الأعداء ودراسته بتعمق، يظهر للجميع أصل الخطأ ومصدر عدم الاكتمال في قواعــده العسكرية .... فمن الضروري معرفة وتطوير المبادئ والقواعد لمبتكرة منذ وقت قصير والمستخدمة في جيوش الملوك والأمم المسيحية والمتطورة تدريجياً بالعنايــة وتــدريب رجال الحكمة ، والتي جهزت مؤخراً بمكتشفات جديدة ، مختلفة تمامــاً عــن القديمــة ومجهزة بالآت وأسلحة جديدة مما يجعل القواعد والجهود القديمة عديمة الجدوى " (٢).

ويتحدث متفرقة بالتفصيل في الجزء الأكبر من كتابه عن أشكال تنظيم الجيوش المسيحية في المعارك وأنواع الأسلحة المستخدمة والتحصينات المعتمدة، ولمن الأولوية في إعطاء الأوامر .... إلخ ، حتى يصل في نهاية الكتاب إلي إعطاء المثال بالروسيا ، التي انتصرت قبل سنوات علي العثمانيين في معركة حاسمة . ونلاحــظ أنــه يتحــدث بموضوعيه عن تجربة " الموسكوف " أو الروس ، يقول : " من المفيد أن نلاحظ بــأن الموسكوف لم يكونوا إلا شعباً بائساً من قبل ... وليس لهم الشجاعة ليحاربوا أي جيش

---

(١) المرجع السابق : ص ٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٧٠ .

.... اختاروا الانسحاب إلي بقعة بعيدة في زاوية الأرض في مناخ جليدي ... وكانوا في هذه الحالة حين قام بينهم فجأة قيصر موهوب وعازف بأمور الحكم والدول الأخرى ، فبحث عن شكل نظامهم العسكري ومبادئ حكوماتهم وإدارة الشئون المدنية والسياسية ... وبعد أن أصلح قواه البرية التي نظمها علي طريقة الدول الأوروبية ، لاحظ أن بحر قزوين لم يسيطر عليه أحد فخطط للسيطرة عليه فبني في موانئ هذا البحر السفن والبواخر، واحتج بأن يقصد التجارة مع بلاد فارس ، واستدعي مهندسين من جنسيات مختلفة فوضعوا له الخرائط الدقيقة للبلاد المحيطة ليستخدمها دليلاً في حروبه في فارس وداغستان والأقاليم المجاورة" (١) .

والطريف في كلام متفرقة أنه فطن منذ حوالي ثلاث قرون إلي ما يختلط علي الكثير من المسلمين حتى الآن وهو أن الأوروبيين ليسوا سوي علمانيين وليسوا مسحيين متبعين لما توجههم إليه ديانتهم حيث يقول : " أن الشعوب المسيحية ليس لها في أيامنا الحاضرة قوانين مقدسة بإدارة أعمال الحكومة ، أي ليس هناك قانون من جانب الله يتعلقون به دينياً ، أو في شئون التشريع أو ي القرارات الشائكة لإدارة الدولة، إنهم يتعلقون فقط بقوانين وتشريعات بشرية ناتجة عن نور العقل وحدة " (٢).

والجدير بالذكر أن الأمر نفسه قد انتبه إليه الشيخ الشرقاوي والشيخ الجبرتي إبان الغز الفرنسي لمصر أواخر القرن الثامن عشر (٣) .

وفي عهد السلطان سليم الثالث تم إدخال إصلاحات عديدة وتركز النظام الجديد علي إجراء إصلاحات في الميدان العسكري ، فشكلت قوات نظامية ، خارج إطار فرق الانكشارية ، مكونة من ١٢٠٠ جندي . وبنيت ثكنات جديدة للقوات الجديدة خصوصاً في خارج استانبول حيث نهضت المدينة بمدارسها ومساجدها وحماماتها ، وكان السلطان

---

(١) المرجع السابق : ص ٧١

(٢) المرجع السابق : ص ٧١

(٣) راجع تاريخ الجبرتي : المجلد الرابع .

يريد بذلك أن يبعد قواته عن ضغط الانكشارية . كما أجريت بموجب النظام الجديد العديد من الإصلاحات الأخرى التي تناولت النظام التمويني في الجيش وإعادة تنظيم فرقة المدفعية وتعزيز التحصينات والدفاعات عند مداخل البوسفور وعلي مشارف العاصمة . .

وقد أهتم السلطان بإنشاء المدارس والمعاهد التعليمية ، فأعاد تنظيم مدرسة الهندسة تحت إدارة فرنسية وإنكليزية . ومدة الدراسة فيها أربع سنوات ، تدرس خلالها المواد العلمية كالحساب والهندسة والجغرافيا والجبر وحساب المثلثات ، كما كانت تدرس فيها مواد التاريخ واللغات. وكانت الفرنسية تدرس في السنتين الأولي والثانية بالإضافة إلي اللغة العربية .

يُضاف إلي ذلك أن السلطان قد أعتمد أسلوباً جديداً في تعامله مع دول أوروبا ، ولأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية إعتمدت السفارات الدائمة في العواصم الأوروبية . وكانت "حكومة الإدارة " في باريس قد طالبت بسفارة عثمانية دائمة في باريس مقابل السفارة الفرنسية في استانبول ، ضمن مبدأ المعاملة بالمثل ، إلا أن سفارات سليم الثالث الدائمة لم توجه إلي باريس فقط ، بل أصبح للدولة العثمانية سفراء في لندن وبطرسبورغ وبرلين وفيينا بالإضافة إلي باريس . وقد قربت هذه السفارات بين الدولة العثمانية ودول أوروبا ونقلت رياح التبدل إلي الداخل العثماني ومثلت نوافذ انفتاح كانت تتسع مع مرور الزمن .

وقد شكلت مشاريع سليم الثالث الإصلاحية بداية أولي من نوعها في التاريخ العثماني، فلأول مرة يتم تنفيذ برنامج إصلاحي شامل يستهدف المؤسسات العسكرية والمالية والإدارية والتعليمية ، هذا البرنامج الذي كان يعتمد بشكل حاسم علي المثال الأوروبي في التحديث . وقد جاءت هذه الإصلاحات علي شكل انقلاب في دولة يعود تاريخها إلي العصر الوسيط . وقد وصف أحد الضباط الفرنسيين ما كان يجري في استانبول إبان عهد سليم الثالث فجاء وصفه معبراً عن ذلك الانقلاب الذي وضع الدولة

العثمانية علي اتصال مع العصر الحديث: " في بداية القرن التاسع عشر أعد السلطان سليم مشروعاً لإلغاء الانكشارية ، وتدمير مطامح العلماء والإطاحة بسلطة المفتي الذي كانت سلطته تصل إلي مشاطرة العاهل سلطته التشريعية .... وكان السلطان يريد تجديد أمته بمشاركتها في اكتشافات الأوروبيين في ميادين الفنون والعلوم، وتقدمهم في الزراعة والتجارة والحضارة " [١] .

ولقد ساهم الفرنسيون مساهمة فعالة وأساسية في إنجاح مشاريع الإصلاح ، فكانوا يعانون في التدريس والتدريب وتسيير المؤسسات العسكرية من خلال ضابطهم وتقنييهم وخبرائهم يُشاركهم في ذلك عدد ضئيل من أوروبيين آخرين من إيطاليين ونمساويين.

ويمكن أن نضيف أيضاً بأن الفرنسيين المقيمين في استانبول قد أسهموا بدورهم في نشر الأفكار الفرنسية من خلال تشكيلهم للنوادي والجمعيات التي أنشئوها داخل استانبول نفسها ، وأهم هذه الجمعيات كانت الجمعية التي أسسها دي كورش عام ١٧٩٣ باسم " الجمعية الجمهورية لأصدقاء الحرية والمساواة " ثم الجمعية التي أسسها في نفس السنة باسم " الجمعية الشعبية الجمهورية " .

وعدا عن الكتب والجرائد التي كانت تروجها السفارة الفرنسية وعدا عن نشاطات الفرنسيين في استانبول ، فقد اعتمدت الإدارة الفرنسية شكلاً آخر من الدعاية لأفكارها وسياستها .

وتوجهت الدعاية بشكل خاص إلي رعايا الدولة العثمانية المسيحيين في اليونان وأوروبا الشرقية عموماً ، الذين كانوا أكثر تقبلاً للأفكار الجديدة إلي درجة أثارت مخاوف وغضب بعض رجال الإدارة العثمانية . وقد طالب خالد أفندي السفير في باريس بوضع حد للدعاية الفرنسية في الجزر الشرقية واليونان.

---

(١) نقلاً عن المرجع السابق : ص ٨٨ .

والواقع لقد كان لفرنسا أصدقاء في استانبول . فقد ترك الانفتاح علـــي أوروبـــا وفرنسا آثاراً واضحة علي جيل عثماني . وقد تكونت فئة مـــن الـــضباط والإداريـــين والشباب المطلعين علي الأفكار والشعارات الفرنسية ، هؤلاء الشباب كانوا ينظرون إلي الفرنسيين بصفتهم الموجهين لما هو أفضل ، فما لوا إلي الغـــرب وجـــاهروا الرجعيـــة بالعداء . كانت هذه الفئة الجديدة مليئة بحماس ساذج للغرب إذ أدركوا أن الغرب يملـــك أكثر من الرياضيات والهندسة [١] .

---

(١) راجع خالد زيادة ، مرجع سابق : ص ٨٩ – ٩٨ .

إصلاحات السلطان سليم

ولقد نتج عن إدخال السلطان سليم النظام الحديث في الجيش أن قام المفتي مع لفيف من العلماء وبعض رجال الدولة يعارضونه وقالوا أن النظام الجديد بدعة مخالفة للشرع . وأوحوا إلي الجنود أنهم سيلبسون الملابس الإفرنجية والتزيي بزي النصارى مع ما في ذلك من مخالفة للقرآن الشريف والشرع المنيف . وفي ٢٧ أيار ١٨٠٧م ثار الجنود برئاسة رجل منهم أسمه " قباقجي أوغلي " فجاءوا بقدور الانكشارية فصفوها في احد الميادين علامة علي العصيان ، وقرأت عليهم أسماء الساسة الذين يؤيدون النظام الجديد فذهبوا إليهم في بيوتهم فقتلوهم وجاءوا برؤوسهم إلي الميدان حيث وضعوها أمام القدور . ثم أصدر المفتي فتوى شرعية مفادها أن كل سلطان يدخل نظم الإفرنج وعاداتهم ويجبر الرعية علي إتباعها لا يكون صالحاً للملك . وبذا عزل السلطان سليم ونصب مكانه السلطان مصطفي الرابع .

ولم تمض علي نجاح حركة "قباقجي أوغلي "سوي سنة واحدة تقريباً حتى أخذ الخلاف يدب بين رجالها ، وانتهز الفرصة مصطفي باشا البيرقدار . وكان من دعاة التجديد ، فزحفت بقواته نحو اسطنبول واستطاع أن يعزل السلطان مصطفي الرابع وينصب مكانه السلطان محمود الثاني الذي لم يكن يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره.

لقد وجه المؤرخون النقد إلي مصطفي رشيد باشا باعتباره رائداً للتنظيمات ، في حين أن مصطفي رشيد باشا لم يكن إلا صنيعة السلطان محمود الثاني وتابعه الخاص لذي سار علي نهج سيده وأتم ما بداه .

ومن الواضح أن الذي بدأ حركة الإصلاح ذات المنط الأوروبي الغربي بشكل قطعي هو السلطان محمود الثاني وليس رشيد باشا وذلك بعد الواقعة الخيرية ، وأساساً فإنه لم يكن ليجرؤ أي بادشاه أن يقوم بإلغاء الجيش وتأسيس جيش جديد بدلاً منه ، ولا أن يقوم بسحب العسكريين من الإدارة المدنية وتسليمها للمدنيين ، ولا أن يلغي لبس القلنسوة واستبدال الطربوش بها ... ولا القيام بإصلاحات كثيرة مشابهة . وساعده علي

ذلك إشراف الدولة العثمانية علي شفا الهاوية ، حيث لم يكن في مقدور أي من بني عثمان أن يحقق مثل هذه إصلاحات ، علي الرغم من الاعتقاد الخاطئ بأن إرادة العثمانيين هي من إرادة الله .

ويقتضي الأمر من الباحث في الحركة الإصلاحية وضرورتها في الدولة العثمانية أن يمعن النظر إلي مرحلتين .

"المرحلة الأولي : وتشمل الإصلاح الذاتي الداخلي للدول ، والمرحلة الثانية : وتشمل النمط الجذري للحركة الإصلاحية التي استلهمت فلسفة الإصلاح من النمط الأوروبي الغربي والتي بدأت مع النظام الجديد عام ١٧٩٣م .

وخلال المرحلة الأولي لم تتوسع الدولة العثمانية في الاقتباس من النمط الأوروبي الغربي حيث لم يكن قد ثبت لدي قادة الدولة التفوق الأوروبي علي آسيا بشكل يدفعهم إلي التوسع في الاقتباس منه ، وكانوا يعتبرون الدولة العثمانية دولة عظمي بالدرجة الأولي ، علي الأقل خلال الفترة من ١٦٨٣ حتى ١٧٧٠م .

وخلال هذه المرحلة حاول كثير من قادة حركة الإصلاح في الدولة العثمانية القيام بالإصلاحات من منطلق ذاتي دون الاقتباس من الغرب ، ومن هؤلاء القادة : شيخ الإسلام وخواجة سعد الدين أفندي ، خواجة سلطاني عمر أفندي ، والسلطان عثمان الثاني ، كوجي بك – كاتب جلبي ، ومراد الرابع ، وكوبرولو محمد باشا .

ثم تلا هؤلاء القادة فريق من مؤسسي المنشآت الجديدة ، حاولوا الاقتباس من النمط الأوروبي ولكن بدرجة قليلة حفاظاً علي الدولة من الأضرار التي يمكن أن تحدث من جراء التوسع في الاقتباس من النمط الأوروبي ، وأيضاً لاتقاء شر الانكشارية الذين لا يرحبون بالاقتباس من النمط الأوروبي ، ومن هؤلاء القادة الجدد : إبراهيم باشا ، ومحمود الأول ، ومصطفي الثالث ، وعبد الحميد الأول [1] ، والإصلاح الجذري الذي

---

(١) راجع يلماز أوزتونا . تاريخ الدولة العثمانية : مج ٢ ٢٨ – ٢٩

تبناه النظام الجديد لم يقم به سليم الثالث كما كان مفهوماً ، وإنما الذي قام به هو خليل حميد باشا الذي قام بمحاولة انقلاب في السلطنة عام ١٧٨٥م بغرض تسليم زمام الأمور لسليم الثالث ، ولكن محاولة الانقلاب هذه كانت قد انكشفت ، الأمر الذي أدي به إلي الإعدام ، فذهبت أفكاره معه ولم يتمكن من تحقيق إصلاحاته الجوهرية .

خلف سليم الثالث في رئاسة الدولة محمود الثاني الذي لم يتمكن من البدء بإصلاحات الجوهرية إلا في عام ١٨٢٦م ، حيث كان الراديكاليون يحافظون علي أفكارهم بعناية ، وكانوا يتحفظون جداً في إبداء أفكارهم الجديدة ، ليتمكنوا من إنقاذ رؤوسهم من سطوة المحافظين والرجعيين الذين كانوا يشكلون الطبقة الحاكمة . ولا شك أن من أهم الإنجازات التي حققها محمود الثاني تتمثل في قضائه علي قوات الانكشارية عام ١٨٢٦[1].

ولكن أخطر ما يذكر عن هذا السلطان هو ما يذكره خالد زيادة أنه أصدر ما يشبه إعلاناً لحقوق الإنسان حين ساوي بين جميع مواطنيه من جميع الأديان بدون تمييز " إن نوايانا أن يكون المسلمون مسلمين في مساجدهم فقط . ومن وجهه النظر نفسها يكون المسيحيون مسيحيين في كنائسهم فقط ، أريد الاحترام خارج هذه الأماكن لكل المعتقدات ويحظي الجميع بنفس الحقوق السياسية [2] .

انتقلت زعامة الراديكاليين ، بعد إعدام راتب أفندي ، إلي دبلوماسي آخر هو رئيس الكتاب محمود رائف أفندي الذي استشهد في عصيان قباقجي في ١٨٠٧/٥/٢٥م، وقد قام محمود رائف أفندي في لندن لمدة ثلاث سنوات تعلم خلالها انجليزية والفرنسية بشكل جيد ، وقد خلفه في الزعامة محمد سعيد غالب أفندي الذي صار فيما بعد صدر أعظم غالب باشا (استانبول ١٧٦٣ -١٨٩٢) ، وكان كل من محمود رائف أفندي

---

(١) خالد زيادة – المسلمون والحداثة الأوروبية ص ١٧٣

(٢) المرجع السابق : ص ١٧٢ – ١٧٣

ومحمد سعيد غالب أفندي صنيعة للأخر. هذا وقد قام غالب باشا بنقل أفكاره الإصلاحية إلي وزير الداخلية : وزير سعيد برتو باشا (١٧٨٦ - ١٨٣٦) الذي فقد رأسه في سبيل هذه الحركة فيما بعد

ظهر في نهاية هذه التغييرات الزعيم الأكبر مصطفي رشيد باشا الـذي تعهـده بالرعاية والجهود المكلفة رائد البيروقراطية الراديكالية برتو باشا، وايضاً بفضل جهـود رئيس الدولة الراديكالي محمود الثاني (١٨٠٠ -١٨٥٨) .

ثم خلفه الصدر الأعظم محمد غالي باشا ، (١٨١٥ -١٨٧١) الذي تتلمذ علي يد رشيد باشا وكذلك تأثر بالرائد الثاني للحركة التجديدية والتنظيمـات الـصدر الأعظـم دكتور محمود فؤاد باشا، وجميعهم من تلاميذ رشيد باشا .

وكان غالي باشا من خريجي غرفة الترجمة ، بينما كان فؤاد باشا من المدرسة الطبية ، وكلاهما عمل بالسلك الدبلوماسي مثل رشيد باشا . وقد توفي فؤاد باشـا قبـل غالي باشا وبموتهما تحطمت فكرة التجديد والتنظيمات والانقلابات الفكرية ، وانقـسمت الحركة إلي قسمين :

(أ) مؤيد التنظيمات المحافظين : الذي استهدفوا استمرار مدرسة الباشاوات رشيد - غالي - فؤاد .

(ب) الانقلابيين : الذين كانوا يهدفون إلي قلب نظام الحكم وإحداث تغييـر جـذري، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق هدفهم إلا في عام ١٩٠٨م .

وقد تزعم الفريق الأول السلطان عبد العزيز ، ثم جاء بعده السلطان عبد الحميد الثاني ، كلاهما أبدي فكرة إدارة البيروقراطيين ذوي المناصـب العاليـة فـي الدولـة لبيروقراطية التنظيمات .

وقد وقف الأنقلابيون ضد هذه الفكرة حتى عندما كان عالي باشا علي قيد الحياة واستمروا في معارضتهم للسلطان عزيز والسلطان حيد .

وتزعم الفريق الثاني ضياء بك (وزير عبد الحميد ضياء الدين باشا) ومعاونه نامق كمال بك اللذان أسسا حزبياً أو تياراً فكرياً غير رسمي باسم : العثمانيون الجدد [1].

تلك هي الخطوط الرئيسية الأكثر وضوحاً في حركة التجديد في الدولة العثمانية ذكرناها بإيجاز لتوضيح أن التنظيمات الإصلاحية لم تظهر فجأة ، وإنما مرت بمراحل معددة .

٣ - إعلان التنظيمات يذكر المؤرخ التركي يلماز أوزتونا الأحداث التي جرت بشأن التنظيمات كالتالي :(١٨٣٩/١١/٢)

رشيد باشا الذي يعتبر تلميذاً للسلطان محمود ، كان وزيراً للخارجيـــة ، وعنـــد وفاة السلطان محمود كان رشيد باشا في لندن ، فعاد مسرعاً وأبلغ السلطان مجيد الشاب طلبات أبيه ، حاول الصدر الأعظم خسروا باشا إقناع البادشاه الشاب بإعدام مـــصطفي رشيد باشا (عمره آنذاك ٤٠ عاماً) ولكن البادشاه كان حكيماً فـــأعلن موافقتـــه علـــي إعلان تنظيمات رشد باشا .

تلا رشيد باشا – مجازفاً بحياته – أمام كل رجال الدولة والـــشعب والأجانـــب فرمان البادشاه الذي هو بمثابة الدستور (١٩٣٩/١١/٢) الذي يوضح الحقوق الرئيسية.

تمثل موافقة السلطان مجيد علي إعلان التنظيمات تنازلاً عن الكثير من الحقوق المتوارثة منذ عور طويلة لأجداده مؤسسي الدولة ، وقد كان ذلك بلا شك حرصاً مـــن السلطان مجيد علي مصالح الدولة واستمرار بقائها .

تمت تلاوة فرمان التنظيمات في كلخانة في سراي طوب قابو ، ولذلك فإنه يطلق عليه أسم (كلخانة خط همايوني) ، ويطلق عليـــه الأوروبيـــون (خـــط شـــريف) ، وبالاعلان عن الدستور أصبحت إصلاحات السلطان محمود قانونية وموثقة .

---

(١) راجع يلماز أوزتونا . مرجع سابق : ص ٣٠ – ٣٢ .

يوضح الدستور أن الشعب هو أساس وجود الدولة ، وأن الدولة إنما تقوم من أجل الشعب ، وأن مؤسسات الدولة قد تسرب إليها الفساد منذ ١٥٠ عاماً ، وأنه قد حدث إخلال بحقوق الشعب في الفترات الأخيرة ، ولذلك فقد فقد الشعب رفاهيته كما فقدت البلاد أعمارها ، وأنه علي الدولة أن تؤمن الحقوق الأساسية للشعب ، وبناء علي ذلك ينص الدستور علي أنه لا يجوز بعد الآن :

- إصدار حكم بالإعدام ولا بالسجن ولا بالنفي علي أي مواطن ، ما لم تقره المحكمة في جلسة مفتوحة ، ولا يمكن مصادرة أموال ونقود شخص أو مؤسسة لصالح الخزانة العامة علي أساس أنها أموال دولة مسروقة ، ما لم تقر ذلك المحكمة .
- لا يمكن طلب ضرائب أو رسوم ، أو أي خدمات زائدة من الشعب عدا الضرائب التي تقرها القوانين المرعية .
- لا يجوز لأي مواطن خلافاً للقانون أو إبقاؤه في العسكرية مدة أطول من المدة المنصوص عليها في القوانين المرعية .
- لا يجوز لأي موظف أن يتعدي حدود صلاحياته الممنوحة له قانوناً ، فإن كان عسكرياً يشتغل بالأمور العسكرية ، وإن كان من العلماء يشتغل بالأمور الدينية والواجبات الأخرى المحددة .
- يجوز لكل مواطن الاشتغال بالتجارة والزراعة والصناعة بحرية تامة في إطار القوانين .
- لا يجوز إصدار أحكام إعدام أو سجن أو نفي أو مصادرة بإرادة الوزير والبادشاه ، واستناداً لأسباب سياسية مبهمة كما كان في السابق .
- لا يكون للبادشاه بالذات حق سجن ، أو نفي أي شخص .
- يقسم البادشاه علي رعاية أحكام الدستور .

- تطبق التعديلات فوراً بإنشاء المؤسسات اللازمة لها في كل الآليات .
- ينفذ هذه الإجراءات الصدر الأعظم الذي يعينه البادشاه .
- ينبغي أن يكون الصدر الأعظم مدنياً ، فإن كان عسكرياً ، فيتحتم أن تكون لـه مكانة متميزة بين الوزراء الآخرين . (كان ذلك هو الواقع المطبق وإن لم يذكر في الفرمان ، ويعني هذا أن تترك إدارة الدولة بصورة رسمية للطبقة العليا من البيروقراطيين) .
- يقوم البادشاه بواجبات السلطنة ولا يحكم .
- يصدق البادشاه علي قرارات الحكومة وعرائض الصدارة بصورة تلقائية ، ما لم يكن هناك سبب مجبر لردها . (يوضح هذا أن صلاحيات البادشاه قد قلصت بما فيه الكفاية بالنسبة لصلاحيات القيصر مثلاً) .
- وافق البادشاه علي ذلك بمحض إرادته وحريته دون أي ضغط من الشعب أو الجيش كما حدث في معظم الدول الأوروبية [١] .

(١) المرجع السابق : ٣٢ – ٣٤ .

محاولة إدخال الأحكام الدستورية الغربية

كانت هذه التنظيمات تتضمن أفكاراً أوروبيه مع محاولة مراعاة الإسلام. فكانت هذه أول محاولة لإدخال الأحكام الدستورية الغربية في نظام الدولة . إلا أن هذه الوثيقة ظلت حبراً علي ورق ولم تطبق ، ولكن الدول الغربية ولاسيما إنكلترا في سنة ١٨٥٥ أصرت علي الدولة العثمانية أن تقوم بإصلاحات دستورية ، فأصدر السلطان تحت ضغط هذه الدول منشور إصلاح في غرة شباط . وقد عرف باسم (خط همايون) وقد أكد السلطان في هذا المنشور الحقوق التي منحها رعايا الدولة في الخط الشريف المعروف بـ (كلخانة) .

وفصلت للنصارى حقوق معينة ، منها أن المسائل المدنية قد عهد في إدارتها إلي مجلس مختلط من المدنيين والأكليركيين ينتخبه الشعب بنفسه ، ومنها عدم إكراه المسلم الذي يعتنق النصرانية علي الرجوع إلي الإسلام ، بل يباح له ترك الإسلام واعتناق الدين النصراني . ومنها أن الخدمة العسكرية فرضت علي النصارى كما هي مفروضة علي المسلمين ، وكانت من قبل خاصة بالمسلمين من حيث الخدمة الإجبارية، ومنها أنه سمح للأجانب بامتلاك الأراضي في الدولة العثمانية .

وقد رأي المسلمون في هذا الدستور مخالفة للشرع، ولم يثق النصارى بأنه سينفذ ولكن الدول الأوروبية كانت تلاحقه بحجة الإصلاح ، غير أن الخلفاء والدولة دولة إسلامية لم يكن في وسعهم القيام بتنفيذ هذه الأحكام الدستورية ، إلي أن لمع في الدولة اسم مدحت باشا وكان متشبعاً بالأفكار الغربية ، وعاشقاً للحضارة الغربية ، فصمم علي أن يوجد للبلاد دستوراً وفق الأفكار الغربية ، ليرضي الدول الغربية ، ولتسير الدولة في مصف الدول الغربية [١].

---

(١) راجع عبد القديم زلوم . كيف هدمت الخلافة .

محاولة مدحت باشا وضع دستور
للدولة من النظم الغربية

وكان مدحت باشا حينئذ وزيراً للعدل في وزارة محمد رشدي باشا ، أيام الخليفة عبد العزيز ، فقام بمحاولة لإقناع عبد العزيز في وضع دستور للدولة من النظم الديمقراطية الغربية ، كتب له كتاباً يطلب فيه إصلاح الوضع في الدولة بوضع دستور لها .

وقبل أن يقدم له الكتاب عرضه علي الوزارة فاتفقت عليه ، واتفقوا علي أن يرفعه الرئيس إلي السلطان عبد العزيز ، فقابله وأعطاه الكتاب ، فغضب عبد العزيز غضباً شديداً من هذا الكتاب وأصدر أمره في الحال بعزل مدحت باشا من الوزارة وإبعاده بتعيينه والياً لسلانيك . ولكن لم يلبث فيها طويلاً ورجع إلي استانبول ، واتفق مع حسين عوني باشا سر عسكر الدولة علي خلع عبد العزيز ثم اتصلا بناظر البحرية، وبشيخ الإسلام ، واتفقا معهما علي خلع السلطان ، وتواعدوا علي يوم معين . وكان ذلك في الأشهر الأولي من سنة ١٨٧٦م ، وقبل اليوم المعين بعث مدحت باشا مذكرة مغلقة إلي الدول الأوروبية باستثناء روسيا أعلن فيها أن خلع السلطان بات أمراً يحتمه الشرع الإسلامي الذي يقضي بأن يكون رئيس الدولة مالكاً لكامل قواه العقلية .

وفي مساء ٣٠ آيار (مايو) سنة ١٨٧٦م أتي الأسطول الفرنسي أمام سراي ضولمه بغجة ، واجتمعت العساكر ، فأحاطت بالقصر ، ودخل علي السلطان من أبلغه خبر العزل ، وتلوا عليه فتوى بخلعة صادرة عن شيخ الإسلام ، وأنزلوه من السراي . وفي تلك الليلة نفسها رفع مراد الخامس إلي العرش .

وهكذا أطاح مدحت باشا بالخليفة بالاتفاق مع الدول الأوروبية لاسيما إنجلترا وألمانيا وفرنسا ماعدا روسيا ، لأنه عرض أن يضع دستوراً للدولة الإسلامية من النظم الديمقراطية الغربية[١] .

(١) راجع دكتور علي الوردي لمحات اجتماعية من تاريخ العراق : ص ٨٣ – ٨٧ .

ولقد كان السلطان عبد العزيز فقد كان واضحاً للناس منذ البداية فلم يكن راضياً عن وزارة رشدي باشا التي كان فيها مدحت باشا التي كان فيها مدحت باشا وزير دولة وإنها إنما جاءت رغم أنفه ، وصارت الإشاعات تدور في اسطنبول عن احتمال خلع السلطان قريباً ، واستشعر السلطان بالخطز وعزم علي تهريب ثروته وجواهره إلي روسيا .

والواقع أن مدحت باشا وأعوانه كانوا يعملون في الخفاء لخلع السلطان وقد اتصل مدحت باشا بالسفير البريطاني يطلب منه إيواؤه مع أعوانه في بريطانيا فيما لو قدر لحركته الفشل ، واستجاب السفير له وأصدر مره إلي السفن البريطانية الراسية قريباً بان تتوجه نحو اسطنبول استعداداً للأمر . وقد انتقد بعض المؤرخين هذا العمل من مدحت باشا واعتبروه نوعاً من الخيانة الوطنية حيث قالوا : أن مدحت باشا كان عليه أن يفكر بالنتائج الوخيمة التي قد يتمخض عنها دخول الأسطول البريطاني في ذلك الظرف العصيب وما الفرق إذن بينه وبين محمود نديم باشا الذي كان مدحت باشا نفسه يتهمه بالتقرب من روسيا والسير في ركاب سياستها !؟؟ .

يذهب بعض المؤرخين إلي القول بأن خلع السلطان عبد العزيز لم يكن في الواقع من جراء تبذيره أو استهتاره بأموال الدول بل كان من جراء انحرافه عن بريطانيا وفرنسا واتجاهه نحو روسيا كما اتهمه مدحت باشا وزمرته ومن هؤلاء لمؤرخين محمد فريد بك صاحب كتاب (تاريخ الدولة العلية العثمانية) .

مفكرو القرن التاسع عشر غير الأتراك

عند تتبعنا لتطور الصراعات الفكرية داخل الدولة العثمانية فأننا يجب إلا نقف في رصد هذه التطورات عند حدود الدولة التركية للخليفة العثماني وإنما يجب تجاوز ذلك إلي محاولة رصد أهم هذه التطورات في الدول الأخرى التابعة للدولة العثمانية الكبرى .

وسنحاول لضيق المجال هنا رصد أهم تلك التطورات بالحديث بإيجاز شديد عن أفكار كل من الطهطاوي وخير الدين التونسي والأفغاني ومحمد عبده .

ولابد أن نشير هنا أولاً إلي أننا نرصد رجال الفكر الذين اتصلوا بالحضارة الغربية وعانوا الصراع الفكري بين الإسلام والعلمانية دون تجاهل للأثر الفكري الكبير للهامات الكبرى من أئمة الفكر الإسلامي المحافظين مثل الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

وقبل أن أبدأ الحديث عن المفكرين الذين ذكرتهم أود أن أشير هنا إلي رفضي للمنهج الذي اعتاده الغالب الأعم من الكتاب في تناولهم لهؤلاء المفكرين من الاعتماد علي أراء وكتابات الكتاب السابقين لهم فتغدو المسألة إيراد ما تم إيراده وإعادة ما أعتيد إعادته من نفس الآراء والمفاهيم المحددة عن أفكار هؤلاء المفكرين دون بحث أو تمحيص على الرغم مما يمثلونه من حالات فكرية معقدة .

وأسجل بداية أنني سأتحدث عن هؤلاء المفكرين اعتماداً علي قراءتي لأغلب الأعمال الكاملة لهؤلاء بما في ذلك الأعمال الكاملة للأفغاني (المجلدات التسعة للسفير الإيراني خسرو شاهي وليس مجلد الدكتور محمد عمارة) والاستثناء الوحيد من ذلك هو خير الدين التونسي.

وكنت قد بدأت في كتابة كتاب عن هذه النخبة من مفكري القرن التاسع عشر منذ عدة سنوات ولكن لم تسمح الظروف باكتماله .

وبناء على ما سبق فإن ما أذهب إليه هو أن رفاعة الطهطاوي واجه صدمة حضارية عنيفة عند ذهابه إلي فرنسا فحدث داخله الصدام بين حضارتين : الحضارة الإسلامية وهي في دور انحطاطها وسيادة الجهل والظلم والاستبداد فيها والحضارة الغربية وهي في زهوة تطورها وتقدمها واستنارتها فبهر بالثانية في الوقت الذي كان يفقد فيه علاقته بالأولي ولم يمتلك الطهطاوي الإمكانات الفكرية العميقة التي تمكنه من القدرة علي استخلاص إيجابيات الحضارة الجديدة التي تساعد علي تطور حضارته الإسلامية الأصيلة أو حتى علي التوفيق بينهما فعاش حالة من الانفصام الفكري الذي تجده معه يكتب كتابه عن سيرة خير الأنام صلي الله عليه وسلم كفقيه محافظ ويكتب كتابه (تخليص الأبريز في تلخيص باريز) كداعية للتفرنج ولا تجد لأي من الكتابين تأثيراً علي الأخر مع الأخذ في الاعتبار أن الكتاب الأول كان تالياً للكتاب الثاني.

ومن أهم المسائل التي نقلها الطهطاوي إلينا مبهوتاً بالحضارة الغربية دون تحليل عميق أو تفسير جيد لما يتوافق أو يختلف منها مع قواعد الإسلام وثوابته قضية الوطنية والقوانين الوضعية وواقع المرأة في الغرب . فانعكاسا لتأثره بمفهوم الوطنية الغربي يشيد بتقدم مصر وغناها وامتيازها في المعارف علي عهد الفراعنة وما تدل عليه أثارهم ومخلفاتهم وقوانينهم من الثروة والقوة واتساع العمران والتمسك بالفضائل الخلقية ، لكن لا يقف عند هذه الحدود ولكن رغبه منه في التماهي مع روح الوطنية الغربية يستنتج مما سبق هذا الاستنتاج غير الضروري ، حيث يقول في كتابه المرشد الأمين : " فمنه يعلم أنه كان بمصر إن ذاك أحكام عادلة وقوانين مرتبة وحدود مشروعه خالية من الأغراض والنفسانيات وهي نتيجة التمدن العام " .

ويبدو هنا أن الطهطاوي يتجاهل أو يتناسى أو لا يدري علي الأقل أن الكثير من الأمم بالغت في التقدم والعمران والقوة ليس استجابة لعدل حكامهم وسمو قوانينهم ولكن استجابة لمطامع هؤلاء الحكام أو خضوعاً لاستبدادهم وظلم قوانينهم.

وتأسيساً علي ما سبق يمضي الطهطاوي إلي ما هو أخطر وهو إبدال الرابطة الدينية بالرابطة الوطنية أو ما يسمي بمفهوم المواطنة الغربـي وسـماه الطهطـاوي (المنـافع العمومية) التي تقوم علي الحرية والإخاء والمساواة بين أبناء الوطن الواحد ولذلك فهـو يذهب إلي أن " أعظم وسائل تقدم الوطن في المنافع العمومية رخصة المعاملة مع أهـالي الممالك الأجنبية واعتبارهم في الوطن كالأهلية" .

والأخطر مما سبق – وإن كان لا ينفصل عنه – تمهيده لقبول القـوانين الوضـعية الغربية وذلك بمشابهته بينها وبين الأحكام الشرعية حيث يذهب في نفس الكتاب إلي أنـه " من زاول علم أصول الفقه وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد ، جـزم بـأن جميع الاستنباطات العقلية ، التي وصلت عقول أهالي باقي الأمم المتمدنة إليها وجعلوهـا أساساً لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم قل أن تخرج عن تلك الأصول التي بنيـت عليهـا مدار المعاملات ، فيما يسمي عندنا بعلم أصول الفقه يشبه ما يـسمي عنـدهم بـالحقوق الطبيعية أو القواميس الفطرية وهي عبارة عن قواعد عقلية تحسيناً وتقبيحاً يؤسسون عليها أحكام المدنية وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية . وما يتمسك به أهل الإسلام من محبه الدين والتولع بحمايته مما يفضلون به عن سائر الأمم في القوة والمتعة يسمونه محبة الوطن" .

أما شأن المرأة فإن أفكار الطهطاوي قد تمثل مدخلاً أكثر خطورة في تلك المنظومة الأخلاقية الاجتماعية أكثر من قاسم آمين ذاته في كتابه (تحرير المرأة) فقـد نفـى أن يكون الاختلاط والتبرج داعياً إلي الفساد أو دليلاً علي التساهل في العرض حيث يقـول في تخليص الإبريز:"ولا يظن بهم أنهم لعدم غيرتهم علي نسائهم لا عرض لهم في ذلـك لأنهم وإن فقدوا الغيرة لكنهم إذا علموا عليهن شيئاً كانوا شر الناس عليهم وعلـى مـن خانهم في نسائهم . غاية الأمر أنهم يخطئون في تسليم القيادة للنساء وإن كان المحصنات لا تخشى عليهن شئ" . واستنتاجه الأول كاذب تماماً فهو يعارض ما قرأناه عن المجتمع الفرنسي في تلك الفترة وما يقاربها في كتب التاريخ مثل قصة الحضارة لول ديورانت أو كتب الأدب لمثل فيكتور هوجو وديكنز ولامارتين وأما قوله والمحصنات لا يخسي عليهن

شئ فهو تكذيب لعموم نصوص الدين في الخشية من الفتنة والأخطر من ذلك قوله عن مراقصة الرجال في نفس الكتاب : "إنه نط مخصوص لا يشتم منه رائحة العهر أبدا . وكل إنسان يعزم أمرآة يرقص معها فإذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا وسواء كان يعرفها أو لا ".

أما خير الدين التونسي فلم يقع في يدي كتابه الوحيد " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك والقليل الذي أورده الدكتور محمد محمد حسين في كتابه " حصوننا مهددة من الداخل" ينبئنا – وإن يكن غير كاف للاعتماد عليه – بامتلاك الرجل لرؤية عميقة إلي حد كبيره فهو لا يدعو إلي تفهم المشروع الغربي بسبب انبهاره به ولكن بضرورة تفهم الواقع السياسي الذي تمر به الأمة الذي يقتضي ضرورة دراسة المشروع الغربي لمشاركته الكبرى في صنع هذا الواقع ثم علي الأمة أن تستخلص من أصولها الشرعية ما يقتضيه مواجهة تفاصيل هذا الواقع والكيفية التي دعا إليها لحدوث ذلك هي الجمع بين الفقيه والسياسي لإدراك حقيقة هذه الأحكام .

يقول خير الدين في مقدمة كتابه المشار إليه : " إنه تدبر أحوال الأمم وأسباب تقدمها وتأخرها فانتهي إلي أن رسم طريق الإصلاح والرقي بالمسلمين لا يتأتي إلا بالنظر في أحوال الأمم الأخرى وما جري عليها من أسباب التقدم" والعجيب في الأمر أنه يتحدث عن مفهوم العولمة دون أن يذكر المصطلح و يذكر أحد أهم الأسباب المؤدية إليه التي يذكرونها الآن حيث يتكلم عن "وحدة العالم بسبب تقدم المواصلات ، مما يجعل حاجة بعضهم إلي بعض مؤكدة " . ثم يتحدث عن منهجه فيقول : " إن الشريعة الإسلامية كافلة بمصالح الدارين ، ضرورة أن التنظيم الدنيوي أساس متين لاستقامة نظام الدين ... وأن علماء المسلمين مكلفون بمراعاة أحوال الوقت في تنزيل الأحكام " ثم يقول: " والغرض

---

(١) وصف العمق هذا يتفق إلي حد كبير مع وصف الدكتور محمد محمد حسين له ، وهذا أمر ينفرد به التونسي لديه بالنسبة لهذه النخبة من مفكري القرن التاسع عشر حيث يقول عنه: يمتاز خير الدين

التونسي بأنه أعمق غوراً في فهم الحضارة الغربية . فهو يدعو إلي الاقتباس منها عن فقـه وبـصيرة تختلف عن السذاجة التي تبدو في كتابة الطهطاوي " خصومتنا مهدده من الداخل" : ص ٣٥ .

من ذكر الوسائل التي أوصلت الممالك الأوربية إلي ما هي عليه من المنعـة والـسلطة الدنيوية أن نتخير منها ما يكون بحالنا لائقاً ولنصوص شريعتنا مساعداً وموافقـاً ومـا عسي أن نسترجع به ما أخذ من أيدينا ونخرج باستعماله من ورطات التفريط الموجودة فينا "وهو يدعو إلي " تعاون علماء الشريعة مع رجال السياسة علي مقتـضي الأحـوال الشرعية صعب لا يتسرب لأكثر الناس وترك الولاة والحكام يتصرفون بغير قيـد مـن نصوص صريحة واضحة يفتح باب الجور، ولا ينبغي لعلمـاء الشريعة أن يمتنعوا

عن المعاونة في ذلك فالعالم إن كان يعمل علي تمحل النصوص وركوب الضعيف منها لإرضاء أهواء الملوك ، فالأمر – عند خير الدين – علي خلاف ذلك ولأن التعاون بين علماء الشريعة ورجال السياسة يعود إلي أن دور رجال الـسياسة يـدركون المـصالح ومناشئ الضرر ، والعلماء يطبقون العمل بمقتضاها علي أصول الـشريعة وأنـت إذا أحطت خبراً بما قررناه علمت أن مخالطة العلماء لرجال السياسة بقصد التعاضد علـي المقصد المذكور ، من أهم الواجبات شرعاً لعموم المـصلحة وشـدة مدخليـة الخلطـة المذكورة في إطلاع العلماء علي الحوادث التي تتوقف إدارة الـشريعة علـي معرفتهـا ومعلوم أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وبيان ذلك أن إدارة أحكام الشريعة كما تتوقف علي العلم بالنصوص تتوقف علي معرفة الأحوال التي تعتبر فـي تنزيـل تلـك النصوص ، فالعالم إذا اختار العزلة والبعد عن أرباب السياسة فقد سد عن نفسه أبـواب معرفة الأحوال المشار إليها هذا الذي يفتح باب الجور للولاة " .

ورغم ذهابي إلي أن ما كتبه خير الدين في ذلك الوقت " كانت الطبعة الأولـي منه عام ١٨٧٢ " ما هو شئ رائع إلا أن العجب أن علماء المسلمين لم يعملوا به علـي الرغم من مرور قرن ونصف علي كتابته وها هو واقع الحركة الإسلامية بعـد الثـورة

المصرية الأخيرة لمثل صارخ علي عدم استجابة العلماء لهذا الذي دعا إليه خير الدين التونسي مع أنه أصل من الأصول التي دعا إليها كل العلماء النابهين بطرق مختلفة.

ولا يسعنا المجال أن نمضي كثيراً مع خير الدين التونسي في أفكاره العميقة ولكننا نأسى لأن هذا العقل الكبير لم يُنصّب الصدر الأعظم في الخلافة العثمانية إلا لوقت قليل ونشير أخيراً أن عمق التونسي هذا لا يمنع من وقوعه في خطأ الترحيب ببعض المفاهيم الغربية العامة دون تمحيص كبير ربما لم تهيأ له الظروف القيام به مثل مشابهته الديمقراطية بالشورى علي تفصيل طويل لا مجال للتعرض له هنا .

وها هو يأتي الدور بنا للتعرض لمشكلة المشاكل المفكر الرهيب جمال الدين الأفغاني وما أنا بالذي يلقي الكلمات جزافاً وإنما أقول ذلك وأنا أعي جيداً القيمة الفكرية الضخمة لهذا الرجل والغموض شديد الغرابة الذي أحاط به في نفس الوقت .

وأول ما يحضرني في هذا السياق كتاب الأستاذ علي أدهم (جمال الدين الأفغاني عند ناقديه) الذي قرأته منذ زمن طويل لأننا إذا وضعنا في الاعتبار القدرات المتميزة للأستاذ علي أدهم كمحقق لراعنا مدي الشكوك والالتباسات والوقائع الغامضة التي أحاطت بالرجل وعلاقاته ومواقفه والتي لم يستطع الأستاذ علي أدهم أن يصل فيها إلي أي يقين أو احتمال راجح وهو الأمر الذي يجعل من الارتياب الكبير للدكتور محمد محمد حسين في الرجل ليس بالأمر المستغرب حتى ولو كان الدكتور حسين نفسه يتهم بالمبالغة في اتهام الآخرين .

فالرجل عاش محارباً شرساً للإنكليز بوجه خاص في نفس الوقت الذي التجأ إليهم فيه ليخلصوه من تضييق الباب العالي عليه وكانت له صلة حميمة للغاية بالمستر بلنت رجل مخابراتهم الخاص . والرجل قضي حياته في الدعوة إلي الجامعة الإسلامية في نفس الوقت الذي كان يحيطه تلاميذه من اليهود والنصارى في كل مكان والرجل ينشر العلم بين الناس ويلقي الدروس ويكتب الكتب والمقالات وهو في نفس الوقت يقيم

الجماعات السرية ويتآمر لقتل خديوي مصر وشاه إيران ويكون من بين تلاميذ الرجل عرابي والخديوي توفيق معاً وقد وقع بينهما ما وقع من حروب في الثورة العرابية :

أما مشكلة انتماؤه للجمعيات الماسونية فيمكن تبريرها بمحاولته للسيطرة عليها وتوجيهها لأغراضه ثم تأتي مشكلته الكبرى ... هل هو حقاً أفغاني سني ؟ أم إيراني شيعي ؟ ، وقد وقع في يدي كتاب ميرزا لطف الله خان (جمال الدين الأسد بادي) الذي يزعم فيه أنه ابن أخته وأنه شيعي من أصل إيراني وهو الكتاب الذي يعول عليه الكثيرون في تحديد أصل جمال الدين ومذهبه ، لكن الكتاب لم يتم التحقق العلمي فيما جاء فيه ومن ثم فإنه لا يعطي اليقين لأحد فيما يقول دون أن لا يمنع ذلك أن يكون بالفعل شيعياً وإيراني الأصل. بل ويمكن تفسير الكتاب علي أنه محاولة شيعية لضم هذه القيمة الفكرية الكبيرة لإيران والشيعة .

أما إذا اعتمدنا علي ما كتبه جمال الدين الأفغاني نفسه في أعماله الكاملة فسنجد أن الرجل كما قال عنه رشيد رضا حلولي يؤمن بوحدة الوجود وهو ما بدا واضحاً في رسالته (الواردات) .

أما بخلاف ذلك فالرجل يبدو كطفرة شديدة الغرابة في تطور الفكر الشرقي بوجه عام فهو يقفز قفزة واحدة من استيعاب الفكر الإسلامي والفلسفي القديم إلى استيعاب الفكر الغربي بأبعاده المختلفة منذ تطوره في عصر النهضة حتى الواقع المعاصر له جامعاً بين الفكريين معاً فيكتب بعمق شديد في الفلسفة والسياسة والدين والاجتماع والتاريخ وعلم النفس وله فيه رسالة شديدة الغرابة والعمق .

أما رسالته (الرد علي الدهرين) فأغرب ما فيها قدرته الفائقة على شرح موضوع كهذا تناول فيه العديد من المذاهب المادية لأحد ملوك الشرق الذين مازالوا يقبعون في ظل ثقافة سابقة عن ذلك العصر بأكثر من خمسة قرون .

وفي كتابه عن تاريخ الأفغان يشرح أحداثاً وتفاصيلاً يصعب معها أن يكون غير أفغانياً ويعرف كل هذه التفاصيل الدقيقة لهذه الأمة المنغلقة .

أما مسألة شيعيته فقد واصلتُ القراءة في كل تلك المجلدات وفي خاطري هـدف البحث عن حقيقة ذلك فلم أجد عبارة واحدة تؤكد هذا ولو وجدها غيـري لتمسك بهـا ورفعها عالياً وحسم الأمر في صيحة واحدة .

أما أهم الأفكار التي يتناولها الأفغاني في كتاباته فتدور حول الوحدة الإسـلامية ومواجهة الاستعمار وهو يضع الاستعمار الانجليزي أمامه هدفاً دائماً يحرض المسلمين علي محاربته ويكتب عن الجانب الليبرالي في الإسلام ويكتـب أيـضاً عـن الجانـب الاشتراكي وعن رؤى الإسلام السياسية والاقتصادية والحوار بين الأديان في الإسـلام وعن قدرة الإسلام علي استيعاب كل الثقافات والحضارات والعصور. ومازال الكثيرون ينقلون أفكاره في كل هذه المجالات . ولا يعني ما أقوله هنا أني أتفق معـه فـي هـذه الأفكار وإنما أعبر عن مدي انبهاري بهذه القدرات الفكرية الفائقة في ذلك العصر الذي كان طموح أكبر رجال العلم فيه كتابة حاشية علي أحد المتون القديمة .

والانبهار هي صفة لازمت كل من تعامل مع جمال الدين بما في ذلك فلاسـفة الغرب أنفسهم وهو الأمر الذي يذكرني بمقولة الفيلسوف الفرنسي رينان عنه " تشعر أنك أمام أحد الفلاسفة الملحدين العظام مثل ابن سينا وابن رشد " ووصف الإلحاد هذا لـيس غريباً عن جمال الدين فقد وصفه أبو الهدي الصيادي بأنه : "مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية " وهو الأمر الذي وافقه عليه شيخ الإسلام مصطفي صبري إلي حـد كبير. وهو متهم بأنه وصف النبوة بأنها صنعة في إحدى محاضراته بالخارج والغريب في الأمر أن أعماله الكاملة التي جمعت في المجلدات التسع لم تحتو علي ترجمة كاملـة لهذه المحاضرة وذكر المعد لها أن الترجمة الكاملة مازالت مفقودة

وفي سياق حديثنا عن الصراع الفكري والسياسي داخل الدولة العثمانية تبرز في هذا الإطار فكرة غاية في الخطورة والأهمية لدي جمال الدين وهي وجوب نقل مركـز الخلافة العثمانية إلي العراق بدلاً من الأستانة وذلك لمنحها أكبر قدر من الأمان بعيـداً عن مطامع المستعمرين الذين كانوا يحيطون بالأستانة من كل جانب مما يـؤدي إلـي

العمل علي إنقاذ الدولة العثمانية من السقوط . وهي فكرة كان من الممكن تطويرها إلي شئ أعظم من ذلك وهو الاعتراف بالقدرات الحقيقية للدولة ومن ثم الانسحاب الطوعي من كل البلاد الأوربية التي تدخل في سيادتها والتي تشكل أغلبية من المسلمين وبـذلك كان يتاح لأهل الإسلام عن التمركز للدفاع بلاد الإسلام نفسها بدلاً من استفزاز أطمـاع المتربصين وإهدار الجهود المؤدية إلي الإضرار بدلاً من الفائـدة . ويـزعم بلمـز أن السلطان عبد الحميد كان ينوي فعل ذلك فإن صدق هذا فقد تأخر السلطان كثيـراً عـن فعله.

إذا ذكرت خلاصة رأيك في الأفغاني فإنك لن تجد الكثير في محمد عبده فالرجل وقد قرأت أغلب أعماله الكاملة هو حلولي يؤمن بوحدة الوجود مثل أستاذه وتنسب إليـه رسالة الواردات مثلما تنسب إلي أستاذه وإن كان صحة نسبها إلى الأخير أشـد كثيـراً لعمق الرسالة وحداثة سن محمد عبده بالنسبة إلى تاريخ إصدارها.

وبوجه عام فالرجل أشبه ما يكون بالضوء الخافت لأستاذه الأفغاني فلو تركـت جانباً الهالات الإعلامية التي يصطنعها الإعلام العلماني له - وكما يذكر الدكتور محمد محمد حسين أن أجهزة الإعلام تلك قد تذكر كل أئمة الإسلام العظام بما فـيهم الإمـام علي دون أن تذكر لفظ الإمام ولكنها لا تخطأ أبداً في إطلاق لفظ الإمام علي محمد عبده - أو ألقيتها في سلة الزبالة- كما تستحق أغلب منتجات هذا الإعلام - لوجدت الرجـل يفتقد للعمق الفكري إلي حد كبير فمؤلفه الفكري الوحيد الذي صنف خصيصاً لكي يكون كتاباً فكرياً هو رسالة التوحيد وهو نموذج رائع للكتابات التوفيقية التلفيقية حتى في مجال العقائد حيث يحاول فيه الجمع بين مذاهب أهل السنة والمعتزلة والأشاعرة معاً بوضـع أقوالها بجانب بعضها بعضاً وربما بالنية الحسنة أيضاً. ويكتب عن الإسـلام والمدنيـة فيتحدث عن الأصول الخمسة للإسلام من عند نفسه مجموعة من المفاهيم ثم يزعم أنهـا تمثل الأصول الخمسة في الإسلام. وسواء صحت هذه المفاهيم التي ذكرها أم أخطـأت فإنه من الافتراء العظيم علي الإسلام أن أذكر مجموعة من المفاهيم الفكرية مثل (عـدم وجود سلطة كهنوتية في الإسلام) وأقول عنها أنها تمثل أصول الإسلام الخمسة متجاهلاً

بذلك عقائد الإسلام وأركانه الخمسة . والمصيبة الكبرى أن أحد الفقهاء الكبار لهذا العصر نقل عن محمد عبده نفس هذه المفاهيم علي أنها تمثل أصول الإسلام الخمسة .

وطبعاً ستجد في كتاباته تلك ذلك الخلط المعهود لدي الكتابات العلمانية بين مدنية الإسلام ومرجعية المجتمع المدني وبين الشورى والديمقراطية وبين حرية المرأة في الإسلام وإباحيتها في الغرب حيث تمثل كتابات الرجل الأصول الفكرية لكتاباتهم التلفيقية في مثل هذه المجالات وإن كان الرجل لا يشطح إلي نفس المدى الذي يذهبون إليه وإنما هو يعطي الذرائع لتسويغ الاعتقاد بأن هذا يقارب ذلك .

أما فضيحته الكبرى فهي مجموعة المقالات التي تمثل مناظراته مع فرح أنطون. فأنت قد تعجب أشد العجب كيف أن هذا الشاب الصغير لم يكن يبلغ في ذلك الوقت الثلاثين من العمر يهزم ذلك العلم الكبير– وهو الأمر الذي يذهب إليه عدد من الباحثين– ويأتي به شمالاً ويمينا وهو ما يفترض أنه الأقل علماً علي الأقل . ولكن عجبك يزول عندما تدرك أن محمد عبده كان يدافع عن القضية الخطأ وهي أن ابن رشد كان ينتمي للفكر الإسلامي وليس إلي الفكر اليوناني كما ذهب إلي ذلك مناظره بحق وقد شرحنا ذلك باستفاضة في كتابنا (ابن رشد وفيلم المصير).

والفضيلة الأساسية التي كانت لمحمد عبده هي اطلاعه علي أفكار الغربيين واستيعابه لأحداث عصره كأثر من أثار ملازمته لأستاذه لسنوات طويلة وكذلك دعوته إلي تطوير الأزهر ومناهجه وتطوير الاجتهاد ولكنه شطح في ذلك كثيراً فأثار عليه علماء عصره أشد الثورة وجاءت الكثير من فتاويه وكأنها مجرد استجابة لمقتضيات التباهي مع الغرب كفتواه بإباحة فوائد البنوك وفتواه بجواز تربية الأجانب لأبناء المسلمين .

وقد تتبع محمد عبده مواقف أستاذه الأفغاني السياسية في النصف الأول من حياته السياسة وناقضه تماماً في النصف الأخير، فبخلاف عناد الأفغاني كانت المهادنة

بل الخنوع صفة أساسية لمحمد عبده في هذه المرحلة حتى غدا الصديق المقرب لكرومر الذي لا يستطيع الاستغناء عن معاونته في حكم البلاد .

وبعيداً عن أقوال كرومر نفسه التي كثيراً ما أكدت ذلك فإن هناك واقعة محـــددة تلخص هذه الموضوع تماماً .

يروي الشيخ محمد الجنبيهي أن محمد عبده مات حسرة حين تخلي عنه اللـــورد كرومر في الواقعة التي كانت بينه وبين رواق المغاربة فيقول : " إن اللـــورد كرومـــر أجهد نفسه في إعلاء شأن أبن عبده الغرابلي وجعل له نفوذاً تاماً فـــي جميـــع الـــدوائر السياسية حتى صيّره نافذ الإرادة في القصر المصري بحالة تدهش المفكرين وتـــستميل قلوب البسطاء من الأمة إليه ليستعمله في تنفيذ الأغراض السياسية التي أجمـــع عليهـــا ساسة الدول المتحالفة ... فلما ولاه وظيفة الإفتاء ليتداخل في الشئون الأزهرية . ووقعت الواقعة التي كانت بينه وبين رواق المغاربة وهم حماية فرنسا ، ورفعوا أمرهم لـــسفير تلك الدولة ، وخاطب ذلك السفير سمو الخديوي في ذلك الشأن ، فقرر ســـموه (أعنـــي عباس باشا الثاني) انفصال الإفتاء عن الأزهر ، وهناك توهم أبن عبـــده الغرابلـــي أن اللورد كرومر يقف في تلك الواقعة موقف المانعين فكتب أبياتاً من الشعر معناها أن من العجب أن ذنب عابدين يعوى وأسد دار الحماية يسمع ويسكت وهذا نص البيتين :

(قصر الدوبارة) ما لليثك رابضـاً والذئب في بيت الإمارة يحجل

إني سمعت (بعابدين) عواءه فعجبت كيف يسود من لا يعقل

ثم توجه بهما إلي دار الحماية ظناً أن اللورد كرومر ينخدع لهذا التملق ويـــسر بازدرائه لسمو الخديوي .. فما كان خطابه لذلك المغرور إلا أن قال له : "ما كنت أظن أنك جهول بالسياسة إلي هذا الحد . أتريد أن توقع بين بريطانيا وفرنسا؟! أذهب من حيث أتيت فإني لا أتداخل في هذا الأمر . فكانت هي الضربة القاضية علي ابن عبده الغرابلي" [١].

---

(١) نقلاً عن د. محمد محمد حسين ، حصوننا مهددة من الداخل : ص ٩٧ – ٩٨ .

دور الجمعيات المتغربة في إسقاط الخلافة

بدأت السفارات الانجليزية والفرنسية في استانبول ، وفي أهم البلدان الإسلامية ، تثير النعرات القومية ، والنزعات الاستقلالية في منتصف القرن التاسع عشر . وكانت أعمالها بارزة بشكل ظاهر في بغداد ودمشق ، وبيروت ، والقاهرة ، وجدة . واتخذت لها مركزين رئيسيين للقيام بهذه المهمة هما : استانبول لضرب الدولة في مركزها الرئيسي ، وبيروت لضربها في الملحقات ، وخاصة في البلاد التي يسكنها المسلمون الناطقون باللسان العربي .

ويدهش المواطن البسيط في العالم الإسلامي مما يراه من جرأ تحركات ونشاطات الجمعيات السياسية ذات الميول والعلاقات الغربية ووقوف رجال الحكم تجاه ما يفعلونه مغلولي اليدين معتقداً أن هذه الأمور جديدة كل الجدة علي مجتمعاتنا . ولكن عندما يقرأ هذا المواطن تاريخ جذور هذه الجمعيات وما فعلته في جسد الأمة اعتمادا علي مساندة الغرب لها ستزول دهشته وسيدرك جيداً حقيقة أشياء كثيرة تحدث ولا يفهمها .

دور مركز بيروت في العمل ضد الخلافة

وقد بدأ الغربيون العمل السياسي في بيروت بعد انسحاب إبراهيم باشا من بلاد الشام مباشرة : ففي سنة ١٨٤٢ تشكلت لجنة لتأسيس جمعية علمية تحت رعاية الإرسالية الأمريكية وفق برنامجها . وقد سارت في طريقها مدة خمس سنوات حتى تمكنت في سنة ١٨٤٧ من تأسيس جمعية سمتها " جمعية الفنون والعلوم " . وقد تولي رعايتها والسير فيها عميلان نصرانيان من أخطر عملاء الانجليز هما : " بطرس البستاني ، وناصيف اليازجي " إلي جانب " الكولونيل تشرشل " من الإنجليز و " إيلي سميث وكورنيلوس فان ديك من الأمريكان " . وكانت أهداف هذه الجمعية في أول الأمر غامضة ، ولكنها تظهر بمظهر نشر العلوم بين الكبار كما تنشر العلوم في المدارس بين

الصغار ، وحمل الكبار كما يحمل الصغار علي تثقيفهم بالثقافة الغربية ، وإعطائهم الأفكار الغربية ، موجهين بتوجيه خاص . إلا أنه بالرغم من نشاط رجال هذه الجمعية وبذل جهودهم الجبارة فيها ، فإنه لم ينتسب إليها خلال عامين سوي خمسين عضواً عاملاً من جميع بلاد الشام ، كلهم من النصارى ، وأكثرها من سكان بيروت . ولم يدخل في الجمعية من المسلمين ، ولا من الدروز ، أي عضو مطلقاً .

فتأسست جمعية أخري سنة ١٨٥٠ باسم " الجمعية الشرقية "، أسسها اليسوعيون تحت رعاية الأب اليسوعي الفرنسي " هنري دوبرونير " . وكان أعضاؤها كلهم من النصاري .

ثم في سنة ١٨٥٧ تشكلت جمعية علي أسلوب جديد روعي فيها أن لا يدخلها أحد من الأجانب مطلقاً ، وجعل مؤسسوها كلهم من العرب ، وبذلك أتيح لها أن تضم بين أعضائها بعض المسلمين ، وبعض الدروز ، أخذتهم بوصفهم عرباً ، فانتسب إليها عدد كبير بلغ مئة وخمسين عضواً . وكان بين أعضاء إدارتها شخصيات بارزة من العرب ، منهم " محمد أرسلان " من الدروز ، و " حسين بيهم " من المسلمين ، و " إبراهيم اليازجي ، وأبن بطرس البستاني " من النصارى وهذان هما اللذان كان يتوليان رعاية الفكرة ، والدأب علي العمل من أجلها . وقد شجع نجاح هذه الجمعية أعداء الأمة علي الخطوة المباشرة لإثارة النعرة القومية ، والنزعة الاستقلالية ، مباشرة وليس عن طريق العلم ، وبصورة علنية وليس عن طريق الدس والمداورة .

فتأسست سنة ١٨٧٥ في بيروت الجمعية السرية . وقد قام بتأسيسها خمسة شبان من الذين تلقوا العلم في الكلية البروتستانتية في بيروت ؛ وكانوا كلهم من النصارى ، وضموا إليهم عدداً قليلاً . وأخذت هذه الجمعية تركز نفسها علي فكرة سياسية ، وتأسست كحزب سياسي ، وتعتبر أول حزب سياسي قام في البلاد الإسلامية علي أساس فكرة القومية العربية . وكانت تدعو للعرب والعروبة وللقومية ، وتثير العداء للدولة العثمانية ، وتسميها " التركية " وتعمل علي فصل الدين عن الدولة ، وجعل القومية

العربية هي الأساس ، وتحويل الولاء عن العقيدة الإسلامية بين المسلمين وجعله للقومية العربية وحدها . وكانت تصدر نشرات توزعها سراً ، وكانت بعض نشراتهم تتضمن اتهام تركيا – حسب تعبيرهم – بأنها اغتصبت الخلافة من العرب ، وأنها تجاوزت علي الشريعة الإسلامية الغراء ، وأنها فرطت في الدين ، مع أن القائمين بهذه الجمعية السرية والمتولين أمرها نصارى يحقدون علي الإسلام . ثم بعد ذلك أخذت الحركات القومية تنتشر ، والنعرة القومية تبث . إلا أن المستوي الذي أنتجته أعمال الدول الأوروبية من مركز بيروت هو إيجاد جواسيس ، والقيام بأعمال تخريبية للأفكار والنفوس ، فكان منحط المستوي سياسياً وإن كان فظيع الأثر فكرياً .

دور مركز استانبول في العمل لضرب الخلافة

هذا بالنسبة إلي مركز بيروت ، أما في مركز استانبول – وهو المركز الذي اتخذه الغربيون لضرب الدولة الإسلامية في عامتها وفي رجال الحكم فيها – فقد قاموا بأعمال كثيرة كان أهمها وأفظعها نتيجة هو إنشاء جمعية " تركيا الفتاة " ، أو " الاتحاد والترقي " . فقد تأسست هذه الجمعية بادئ الأمر في باريس ، وقد قام بتأسيسها الشبان الأتراك الذين تشبعوا بالأفكار الفرنسية ، وأمعنوا في دراسة الثورة الفرنسية . وقد تأسست كجمعية سرية ثورية . وكان زعيم هذه الجماعة الثائرة " أحمد رضا بك " . وكان من الشخصيات عند الناس ، وكانت فكرته نقل الحضارة الغربية إلي بلاده تركيا . وقد أسست لها فروعاً أخري في برلين ، وسلانيك ، واستانبول .

وكان مركز باريس منظماً تنظيماً دقيقاً ، وكان برنامجه متطرفاً ، ووسائل الدعاية التي يعتمد عليها قوية متينة . وكانت لهم جريدة باسم (الأنباء) ، تهرب إلي استانبول مع البريد الأوروبي ، فيتلقفها جماعة من الأتراك يتعهدون توزيعها سراً . وكانوا يصدرون نشرات سياسية تهرب بنفس الأسلوب . أما فرع برلين فكان مؤلفاً من المعتدلين ، ومن وزراء الدولة السابقين ، أو كبار موظفيها ، أو ذوي المواهب السياسية. وكانوا يطلبون الإصلاح ، وأن تنظم شئون الدولة علي نحو الحكم الألماني ، ويقترحون

توحيد الشعوب المتعددة التي تتكون منها الإمبراطورية العثمانية ، وأن تؤلف ما بينها ما يشبه الحلف الألماني .

أما فرع سلانيك فكانت الأغلبية الساحقة من أعضائه من الضباط المتعلمين أصحاب النفوذ القوي في الجيش . وكانوا يعدون العدة للثورة وانضم إليهم بعض الشيوخ فازدادوا قوة علي قوة ، كما أنضم إليهم صغار الموظفين أمثال طلعت الذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزارة . إلا أنهم مع ذلك كانوا خاضعين للمركز في باريس ولا يخرجون عن رأيه . وكان مركز باريس يوجههم بالنظريات والآراء الغربية ، ويبعث فيهم الميل إلي النضال والتفاني .

وكانت المحافل الماسونية وعلي الأخص المحفل الإيطالي الأكبر في سلانيك ترحب بأعمال هذه الجمعية ، وتنتصر لها انتصاراً أدبياً ، وكانت الجلسات تعقد في غرف المحافل الماسونية التي يستحيل علي الجواسيس أن يصلوا إليها مهما بذلوا من جهد . وكان كثير من أعضاء هذه المحافل مندمجين في جمعية الاتحاد والترقي . وبهذه الوسيلة استطاعت الجمعية أن تضاعف عددها ، وتقوي نفوذها ، بفضل المعونة التي كانت تتلقاها . كما أن أعضاء الاتحاد والترقي كانوا ينتفعون بالأساليب الماسونية في الاتصال باستانبول ، بل في التقرب من القصر ذاته (١).

وقد نما عدد هؤلاء " المتأوربين " بمرور الأيام فأصبحوا يؤلفون في تركيا طبقة كبيرة لها أهميتها الاجتماعية والفكرية ، وهؤلاء هم الذين قاموا بحركة المشروطية (ما كان يطلق علي الالتزام بالديمقراطية في ذلك الوقت) بمعزل عن العامة ورجال الدين تقريباً. وهناك ناحية أخري في المشروطية التركية ينبغي أن لا ننساها هنا هي أن الجيش لعب دوراً حاسماً فيها إذ هو قام بقيادة ضباطه الشبان من أولي الثقافة الحديثة

---

(١) راجع عبد القديم زلوم ، وكيف هدت الخلافة : ص ٢١ : ٢٥

بحركة انقلابية ضد السلطان عبد الحميد واستطاع أن يفرض عليه الدستور في أول الأمر ثم يخلعه أخيراً .

جمعية الاتحاد والترقي

أن جمعية الاتحاد والترقي كان لها الفضل الأكبر في إنجاح المشروطية التركية في مرحلتها الثانية ، تأسست في اسطنبول عام ١٨٨٩م باسم " تركيا الفتاة " وكانت سرية تعمل في منتهي الحذر والحيطة مخافة أن تقع في يد جواسيس السلطان عبد الحميد أو شرطته .

ولقد تشجيعاً في أوروبا ، ولاسيما في فرنسا وبريطانيا ، فأخذ الكثير من أعضائها يهربون إلي أوربا أو إلي مصر فيجدون هناك مجالاً رحباً لنشاطهم وقد يصدرون الصحف المعارضة للسلطان عبد الحميد ، وكان السلطان ينزعج من ذلك كل الانزعاج ويبعث رسله إلي الأعضاء الهاربين بغية إسكاتهم أو أغرائهم بالعودة .

وقد لقيت الجمعية في عام ١٩٠٢م عقدت جمعية الاتحاد والترقي مؤتمراً عاماً لها في باريس رفعت فيه شعارها المعروف وهو " الحرية والأخوة والمساواة " وهو كما لا يخفي مستمد من مبادئ الماسونية والثورة الفرنسية ، فكان ذلك من العوامل التي ساعدت علي رفع سمعة الجمعية في الأوساط الأوربية وفي عام ١٩٠٥م وجدت الجمعية مجالاً واسعاً لنشاطها في مقدونيا وهي منطقة لم تكن واقعة تحت وطأة جواسيس السلطان بل كانت خاضعة للرقابة الدولية . وقد استطاعت الجمعية أن تعمل في هذه المنطقة علي شئ من الحرية ، واجتذبت إلي صفوفها عدداً لا يستهان به من الضباط الشبان المتحمسين .

ويقول المؤرخ أرمسترونج :" إن الجمعية كانت تعقد اجتماعاتها في بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسية الايطالية والجمعيات الماسونية الايطالية ، إذ أن جنسيتهم هذه تحميهم – بحكم المعاهدات والامتيازات الأجنبية – من الخضوع لأوامر القبض التي

يصدرها السلطان ، ومن تفتيش البوليس لمنازلهم ، أو محاكمتهم أمام المحاكم التركية لأن لهم محاكمهم القنصلية الخاصة ... ومن ثم دأب أعضاء (الاتحاد والترقي) علي الاحتماء بحصانة هؤلاء اليهود ، فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كل خطر ! . وكان بعضهم ... قد انضموا إلي جماعة (الماسونية) ... واستعانوا علي تأليف جمعيتهم الثورية وتنظيمها باقتباس أساليب المنظمات الماسونية . وصاروا يتلقون الإعانات المالية الوافرة من مختلف الجهات ، ويتصلون اتصالاً منتظماً باللاجئين السياسيين البارزين الذين نفاهم السلطان إلي خارج البلاد " [١].

إعلان الدستور

في ٢٣ تموز ١٩٠٨م أرسل نفر من الضباط في سلانيك إنذاراً باسم الجيش إلي السلطان عبد الحميد يطلبون فيه إعادة الدستور إلي البلاد ، ثم تحركت بعض القوات من سلانيك زاحفة نحو اسطنبول . وأدرك السلطان خطورة الوضع فدعا مجلس الدولة إلي الانعقاد ، وكان السلطان علي عادته يراقب المجلس من وراء ستار ، وسره أن أحداً من الحاضرين لم ينطق بكلمة " الدستور " ولكن رجلاً واحداً تجرأ وتفوه ناصحاً بقبول مطالب الثوار ، ذلك هو شيخ الإسلام حيث قال للسلطان : " بل أجبهم إلي رغابتهم وامنح الدستور فإنه مطابق للشرع الشريف ".

موقف السلطان

المظنون أن السلطان عبد الحميد لم يكن مخلصاً في موافقته علي إعلان الدستور بل فعل ذلك من باب الدهاء والمراوغة ، وربما كان غرضه أن يماشي الثوار في أول الأمر لكي يخفف من فورتهم الجامحة حتى إذا خمدت الفورة بمرور الزمن استطاع أن يدبر لها الضربة القاضية .

---

(١) هـ . س. أرمسترونج " مصطفي كمال " ، القاهرة ، ص ٢٩ .

تقول الدكتورة وتلن : " إن طريقة السلطان عبد الحميد في قبول الدستور تكشف عن مواهبه كسياسي وكممثل ، فقد أعلن عن استعداده ليرأس جمعية الاتحاد والترقي ثم رضي بقبول العضوية العادية في الجمعية عندما أبانت له اللجنة المركزية فيها أن الأعضاء كلهم متساوون ، وأخذ السلطان علاوة علي ذلك يتظاهر بأنه أشد الأعضاء إخلاصا للجمعية فتبرع بنصف مليون ليرة من جيبه الخاص لصندوق الجمعية ووهب أحد قصوره ليكون مقر البرلمان القادم ، ووضع الوردة الحريرية التي كانت شعار الجمعية في معطفه ثم صار يشكر رجال الجمعية لأنهم " فتحوا عينيه " علي الحقيقة مدعياً أن مستشاريه الأغبياء هم الذين أخفوها عنه" [١].

واقعة ٣١ آذار :

لم يمض علي إعلان الدستور العثماني سوي مدة قصيرة حتى تألفت في اسطنبول جمعية باسم " الجمعية المحمدية "

لقيت دعاية هذه الجمعية رواجاً في أوساط العامة ، وكان أنصارها يؤكدون للناس أن الدستور هو من صنع الماسون والمرتدين واليهود . وفي أوائل نسيان ١٩٠٩ نشر الصحفي حسن فهمي بك في جريدته " سربستي " خبراً قصيراً مفاده أن الأتراك يجب أن يلبسوا القبعة ومعني هذا أن الأتراك سوف يتشبهون في زيهم بالكفار . ولم يمض علي نشر الخبر سوي أيام معدودة حتى أطلق مجهول رصاص مسدسه علي الصحفي فأراده قتيلاً ، وكان القاتل يرتدي بذلة ضابط من ضباط العهد الجديد فهاجمته الخواطر لهذا الحادث ، وقدم ستة من أعضاء مجلس المبعوثين سؤالاً عنه إلي وزير الداخلية ، وتفاقم القلق في اسطنبول واغتنم الناقمون الفرصة.فحولوا تشييع جنازة القتيل إلي مظاهرة ضد العهد الجديد وأخذوا يوزعون فيها أوراقاً صغيرة في مهاجمة المبعوثين، وما أن انتهت مراسيم الدفن حتى ارتفعت أصوات تهتف بحياة الشريعة المحمدية وبسقوط جمعية الاتحاد والترقي فجاوبتها أصوات كثيرة أخري .

---

(١) نقلاً عن د. علي الوردي . لمحات اجتماعية من تاريخ العراق : المجلد الثالث ، ص ١٥٢.

وفي ١٣ نيسان استيقظت اسطنبول صباحاً علي أصوات الطبول والرصاص ، وشوهدت أفواج من الجنود تجري في الشوارع وتطلق الرصاص ، وكان في مقدمة كل فوج جماعة من الدراويش تحمل الأعلام وتهتف مع الجنود " باشاسون شريعة محمدية " أي تعيش الشريعة المحمدية . وحاصر الجنود مجلس المبعوثين والباب العالي وأرسلوا وفداً إلي السلطان يطلبون منه إلغاء الدستور وإعلان الشريعة .

وهجم الجنود علي نادي الاتحاد والترقي ، وعلي إدارة جريدة طنين ، وعلي النادي العسكري ، وعلي النادي النسائي ، فنهبوها وجعلوا عاليها سافلها . وتقدموا نحو مجلس المبعوثين بغية قتل أعضائه ، وكان فيه نحو أربعين مبعوثاً ، ولبث هؤلاء ينتظرون الموت مدة ساعتين ، ومنهم من رمي بنفسه من النوافذ فسقطوا وتكسرت أرجلهم ومنهم من اختبأ في أي مكان يتواري به عن الأعين . وتمكن الجنود من قتل وزير العدلية كما قتلوا مبعوثاً عربياً أسمه محمد بك ارسلان ، ولكنهم عندما فعلوا ذلك سمعوا بأن عسكراً سيأتي بأمر من السلطان ليقتص منهم فوقع الرعب في قلوبهم وتوقفوا عن قتل بقية المبعوثين ، ثم صاروا يطلقون الرصاص في الفضاء تهويلاً.

خلع عبد الحميد

في ١٦ نيسان ١٩٠٩ – أي بعد ثلاثة أيام من الواقعة – أبرق محمود شوكت باشا قائد حامية مقدونيا إلي اسطنبول يقول بأنه " عائد لإقرار النظام في العاصمة ". ثم تحرك القائد بجيشه وهو يتظاهر أمام الجنود بأنه زاحف لحماية السلطان وإنقاذ العاصمة من الفوضى ، وكان السلطان نفسه يزعم أمام حاشيته أنه هو الذي استدعي " جيشه الوفي " من مقدونيا لإقرار الأمن في بلاده .

استطاع محمود شوكت باشا أن يصل إلي مقربة من اسطنبول خلال مدة قصيرة تكاد لا تزيد علي الثلاثة أيام وضرب بذلك رقماً قياسياً في سرعة الزحف ، وقد انضم إليه في الطريق جماعات من اليهود والأرمن والأروام والبلغار والصرب بغية المعاونة علي قمع الحركة " الرجعية " .

وفي ٢٣ نيسان وقف محمود شوكت باشا عند أبواب العاصمة فاستسلمت له حاميات الأسوار الخارجية ، والجنود الهائمون في الشوارع ، بلا مقاومة وفي مساء ٢٤ نيسان عاد الهدوء إلي اسطنبول وصار محمود شوكت باشا السيد المطلق فيها . كان رجال العهد الجديد قد اختفوا في بيوت غير بيوتهم أثناء واقعة ٣١ آذار ، فلما دخل محمود شوكت باشا العاصمة منتصراً عادوا إلي الظهور وأخذوا ينتقمون من أعدائهم ومن جميع من ساهم في الواقعة .

إن هذه لوقائع تعلمنا جيداً الأهمية العظمي للاحتراس من الانزلاق لفخاخ منصوبة لنا تبدأ ببعض القرارات الارتجالية الهوجاء والتي قد تحقق بعض الانتصارات الكاذبة ولكنها تنتهي في الحقيقة إلي كوارث مروعة . كل ذلك إذا لم يحسب للأمور حسابها من أهل الاختصاص .

نصبت المشانق علي جانبي جسر " غلطة " وعلقت علي صدور الجثث المشنوقة عبارة " خائن للحرية " وحكمت المحكمة علي ثلاثين من رجال الدين بأن يأكلوا خبزاً مسموماً لكي يكونوا عبرة لغيرهم ، وصار كل معمم يمشي في شوارع اسطنبول عرضة للإهانة والاعتداء . ذكر معروف الرصافي أنه وصل إلي اسطنبول في تلك الفترة فاضطر إلي خلع عمامته وزيه الديني واستبدل به ملابس إفرنجية جديدة لكي لا يتعرض للأذى .

وفي ٢٦ نيسان اجتمع مجلس المبعوثين ومجلس الأعيان في جلسة مشتركة وقرروا خلع السلطان عبد الحميد ، واستدعوا شيخ الإسلام لكي يصدر الفتوى اللازمة لذلك ، ويقال أن شيخ الإسلام صادق علي الفتوى وهو محاط بحراب البنادق.

وذهب إلي السلطان وفد مؤلف من أربعة أعضاء لتبليغه بقرار خلعه . والغريب أن أعضاء الوفد لم يكونوا أتراكا أصليين بل كانوا مواطنين عثمانيين من أصل أرمني ورومي ويهودي وكان أحدهم من ذوي الرتب العالية في الماسونية اسمه عمانويل كراسو

أفندي وهو يهودي من سلانيك والمظنون أن جمعية الاتحاد والترقي إنما اختارت أعضاء الوفد بهذه الشاكلة نكاية بالسلطان عبد الحميد وتحدياً له [1].

(١) راجع علي الوردي . مرجع سابق : المجلد الثالث ، ص١٥٨ : ١٦٣ .

شخصية السلطان عبد الحميد

ورث عبد الحميد عن والده السلطان عبد المجيد قصر (دونما بهجة) بساحاته الكبيرة وغرفة المزخرفة وثرياته العظيمة .

وكان القصر الذي تطل حدائقه علي البوسفور مثالاً للفن المعماري الباذخ ولم يرق ذلك لعبد الحميد ، فقد نشأ بعيداً عن الصخب كارهاً للبذخ متواضعاً ، فأقام له في الطرف الغربي من استانبول وفوق أرض عراء قصراً متواضعاً أسماه قصر يلدز.

عاش السلطان عبد الحميد ٣٣ سنة في قصره يترقب ، وكان شديد الحذر خائفاً متردداً فالأوضاع متوترة والمؤامرات مستمرة في داخل البلاد وخارجها .

وكانت دولته تضم جزءاً من البلقان ، وشبه جزيرة الأناضول ، وعدداً من الجزر اليونانية (تاسيوس وكريت ورودس)، وسوريا (من ضمنها لبنان وفلسطين والأردن) والعراق والحجاز ، والساحل الليبي في شمال أفريقيا وكان حكمه في المناطق الأخرى. ضعيفاً أو أسميا لا وجود له ، وأما اليمن وداخل صحراء العرب فلم يخضعا له تماماً ، وكذلك كانت السيادة العثمانية علي مصر وقبرص أسمية . وفيما يتعلق بتونس فقد حكمها الفرنسيون منذ عام ١٨٨١م . ولقد تحدث السلطان عن ظروف مملكته عند توليته الحكم فقال:

- "تمرد أهل البوسنة والهرسك ، وهزموا الجيش وحاصروه في الجبل الأسود
- العرب ، أعلنوا الحرب بقوت منظمة وخطرة .
- في هذه الأوقات العصيبة انفجرت الحرب الروسية الفظيعة .
- توليت السلطنة بعد خلع سلطانين متعاقبين وأزمة وزارية دامت ٩٣ يوماً.
- في هذه الأوقات العصيبة انفجرت الحرب الروسية الفظيعة .

- توليت السلطنة بعد خلع سلطانين متعاقبين وأزمة وزارية دامت ٩٣ يوماً.
- عينت علي الفور مدحت باشا في الصدارة العظمة ، وكان محل ثقة العموم" [(١)].

هذه الأوضاع المنهارة شجعت روسيا علي التحرك لتنفيذ خطة القضاء علي الرجل المريض فاندفعت جيوشها حتى أصبحت علي بعد أميال قليلة من استانبول ، وبدا فجأة أن استيلاء الروس علي الممرات المائية واستعادة أيا صوفيا أمران قريبان.

بيد أن الدول الأخرى ، كي تمنع روسيا من حيازة مثل هذه الأراضي المهمة، عقدت مؤتمراً في استانبول حضرته كل الدول المهتمة (بالمسألة الشرقية) ما عدا العثمانيين فلم يدعوا له ، وحين انفض المؤتمر كان المؤتمرون قد تنازلوا لروسيا القيصرية عن معظم ما طلبته ، حسب معاهده أيا ستفانوس في ٣ آذار (مارس ١٨٧٨م).

كان المؤتمر صفعة لمدحت باشا وعملاء الانجليز الآخرين ممن كانوا يحسنون الظن بالأوروبيين .

واستطاع عبد الحميد الذي طرد مدحت باشا من رئاسة الوزراء ، أن يتقرب من الإنجليز ويثير فيهم المخاوف من التوسع الروسي ، ودعا الأسطول البريطاني إلي البوسفور...وعندئذ عقد مؤتمر برلين في ١١٩٢ هـ - ١٣ تموز (يوليو) ١٨٧٨م) ، والذي كان عملية إنقاذ وإن كانت لم ترجع لعبد الحميد الكثير من أراضيه. وكان السلطان قد وافق علي تأجير قبرص لبريطانيا ضمن اتفاق خاص ولمدة محدودة علي أن تبقي ضمن المناطق التابعة لتركيا ... وذلك ليكسب فيها السلطان تأييد بريطانيا ، أما بريطانيا فقد كانت تطمع في بترول الموصل وضمان إنشاء خط ثان للهند وهو خط بري يمتد من فلسطين إلي الخليج الفارسي ، كما احتلت عدن عام ١٨٣٩م وبسطت حمايتها علي منطقة الخليج ، واستولت علي مصر عام ١٨٨٢م وعلي السودان عام ١٨٩٨م وأما

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ص - ٢٣ .

فرنسا فقد احتلت الجزائر عام ١٨٣٠م وتونس عام ١٨٨١م والمغرب عـام ١٩١٢م . كما احتلت إيطاليا ليبيا عام ١٩١١م ، وكانت تطمع بالاستيلاء علي القسم الغربي مـن الأناضول ، أما روسيا فكانت تطمع في قسم من تراقيا واستانبول وأرمينيا وكردستان[١] وأما للنمسا فقد وضعت البوسنة والهرسك تحت حمايتها ، ومنحت رومانيـا الاسـتقلال التام ، بينما منحت بلغاريا استقلالاً جزئياً .

وعندما احتلت بريطانيا مصر ... اضطر السلطان إلي التحول نحو ألمانيا التي أصبحت في هذه الأثناء قوة أوروبية كبيرة يحسب حسابها .

يقول السلطان في هذا الشأن : " الشئ الذي لفت انتباهي بادئ ذي بـدء فـي الـسياسة الخارجية وقت اعتلائي العرش كان تأسيس الاتحاد الألماني".

هذه الدولة التي ولدت وأسرعت في التوسع في عدة أعوان ، أفـسدت تـوازن القوي في أوروبا ، وأدت بالدول الأوروبية كلها إلي ضرورة إحداث تغيير كبير فـي سياساتها الخارجية .

خففت فرنسا – المتنافسة مع إنجلترا – من حدة تنافسها ، وإن لم تتركه، وبدأت في البحث عن طرق للتفاهم مع الروس لتأمين أمنها . كانت تؤيد باستمرار الروس في خلافاتهم مع الدول العثمانية .

وبدأ الروس يعملون حساباً للألمان ، جيرانهم الأقوياء في الغرب .

وأقامت النمسا من جديد سياسة التداخل بين العدو والصديق .

وأما إنجلترا ، وهي تعتمد علي جزرها وعلي أسطولها القوي ، لم تكـن علـي وفاق كبير مع ألمانيا بسمارك ، بل إنها استفادت من نزاع الدول الأوروبية الأخرى مع بعضها البعض ، واتبعت طريق تأمين مصالح جديدة لها في أراضي الدولة العثمانية في البحر الأبيض وفي آسيا ، وسلك جلادسـتون سياسـة أعمـل مـا تـستطيع عملـه ،

---

(١) الإسلام وآسيا أمام المطامع الأوروبية – أوجيد يونغ ، ص ١٥٨.

واكسب ما تستطيع كسبه في العام الذي توليت فيه العرش ، كان الإنجليز قد استولوا علي الهند وصرفوا جهدهم في تأمين سلامة طريق الهند . وكانوا يحاولون من ناحية أخرى الدخول إلي الصين وإلي آسيا الوسطي والروس حولوا ايضاً أنظارهم في تلك الأعوام إلي آسيا الوسطي، واستولوا علي فرغانه وخانية خوقند ، وعقبوا ذلك بالاستيلاء علي قرغيزستان وتركستان وطاجيكستان ، وكان التنافس بين الإنجليز والروس عظيماً في آسيا، في هذه الفترة ولدت في أمريكا دولة فتية قوية ، وخرجت أسبانيا من مستعمراتها ، وانتظم يهود العالم ، وسعوا – عن طريق المحافل الماسونية – لإقامة دولة (الأرض الموعودة) وجاءوا إلي بعد فترة وطلبوا مني أرضاً لتوطين اليهود في فلسطين مقابل أموال طائلة وبالطبع رفضت .

ولم أكن أستطيع الوقوف أمام هذه القوي كلها بمفردي . طاقاتنا لم تكن تكفي. الشئ الوحيد الذي كنت أستطيع عمله هو أن أفيد من التنافس بين هذه القوي . هذه الإفادة كانت عبارة عن توزيع الأمل ، في لقمة كبيرة بعض الشئ، علي كل واحدة منها، والإيقاع بين كل واحدة والأخرى .

أصابت إنجلترا الوساوس والشكوك من حملة الاستعدادات العظيمة التي تبذلها ألمانيا في أسطولها ، وأنه من الخطر العظيم وجود ألمانيا قوية في البحار المفتوحة . في هذه الأيام كان الإنجليز والروس قد أعدوا اقتراح تقسيم الإمبراطورية العثمانية ، الانجليز كانوا يريدون ضرب عصفورين بحجر : منع الروس من تقدمهم في آسيا ، وأيضاً التحالف معاً ضد ألمانيا ، لم يرغب الإنجليز في أي وقت من الأوقات نزول الروس في البحر الأبيض ، ولكنهم رأوا الأخذ بهذه العملية الفدائية ، لأن منافعهم في آسيا كبيرة ومخاوفهم من ألمانيا تتضخم .

رفض الروس هذا الاقتراح السري الإنجليزي ، لأني كنت من ناحية أقترب من القيصرية ومن ناحية أخري أقترب من الألمان . ومعني اقترابي من الألمان : اكتساب

الألمان فرصة الحركة في مساحة تمتد حتى الهند ، وهذا لا يرضي الإنجليز، وجعلتهما معاً يقيمون علاقات ودية معي .

لم يكن في نيتي التحالف مع الألمان ، ولكن الظهور بمظهر المتحالف سيجعل اتفاقي مع دولة تسود البحار العالية غالياً . وكان علي إنجلترا – لكي تطمئن علي أمنها في الهند – أن تسلك أحد طريقين ، الاستيلاء علي أراضي الدولة العثمانية ، أو الاتفاق معها . وهي لم تكن تستطيع الاستيلاء علي أراضي الدولة العثمانية ، فالدنيا كانت ستقف علي قدم وساق فكان لابد لهؤلاء الإنجليز أن يتفقوا معي [١].

وكما استغل الإنجليز غفلة أعضاء تركيا الفتاة ، عن طريق المحافل الماسونية، بدأ الألمان يفعلون هذا مع الفريق الآخر منهم ، وعن طريق المحافل الماسونية أيضاً وبهذا الشكل سيطر الألمان علي تشكيل تركيا الفتاة في سالونيك ، وسيطر الإنجليز علي تشكيل تُركيا الفتاة في مناستر أما عن محاولات الدول الأوربية تقويض الدولة العثمانية من الداخل فيقول عنه السلطان عبد الحميد :

" كانوا يعملون علي قيام انقلاب للاستيلاء علي الدولة من الداخل . ونجاح الإنجليز باستخدام اتحاديي مناستر كان مصيبة بالنسبة لي ، لأنهم كانوا سيزيلونني ويصلون إلي مرادهم ولم أكن أخاف من اتحاديي الألمان لأن نجاحهم كان سيزيد من خوف إنجلترا . اتحاديو سلاميك الواقعون تحت تأثير المحافل الماسونية الألمانية تحركوا بكل من أنور ونيازي ، وأضاع اتحاديو مناستر الفرصة .

لابد للتاريخ يوماً أن يفصح عن ماهية الذين سموا أنفسهم (الأتراك الشبان) أو (تركيا الفتاة) وعن ماسونيتهم . استطعت أن اعرف من تحقيقاتي أنهم كلهم ينتسبون إلي المحفل الماسوني الإنجليزي ، وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل وهكذا

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ص ٦١.

استخدمت الماسونية العالمية ومن ورائها اليهودية نفراً من أبناء المسلمين لخيانة أمتهم واستعملتهم سلاحاً لهدم صرح هذه الإمبراطورية العظيمة"[1].

في ظل هذه الظروف المعقدة ترى ما الأمل الذي كان ينتظره السلطان عبد الحميد يتحدث هو نفسه عن ذلك فيقول : " منذ أربعين عاماً وأنا انتظر أن تشتبك الدول لإنقاذ دولته الكبرى مع بعضها البعض . كان هذا كل أملي . كنت أري سعادة الدولة العثمانية مرتبطة بهذا . وجاء ذلك اليوم الذي كنت انتظره لكن .. هيهات. فقد أبعدوني عن العرش ، وابتعد الذين حكموا البلاد بعدي عن العقل والتبصر فلم يستفيدوا من الفرصة العظيمة التي ظللت أربعين عاماً في انتظارها لقد ولت وأفلتت من يد الدولة العثمانية إلي الأبد .

جاهدت لكي لا يعزلوني عن العرش طوال ثلاثين عاماً وجهادي هذا كان من أجل هذه الفرصة . حبست الأسطول في الخليج ولم أخرجه ولو للتدريب . تجاهلت الحرب اليونانية لكي لا أدع للإنجليز منفذاً للاستيلاء علي كريت ، وتجاهلي هذا كان من أجل هذه الفرصة بمعني آخر إن كل مجهودي قرابة ثلاثين عاماً بصوابه وبخطئه إنما كان من أجل هذه الفرصة .

وهكذا قرر السلطان محاربة العدو بسلاح العدو حيث يقول : " لقد تعلمت من التجربة وأثناء الحرب الروسية أننا نقف بمفردنا في العالم ، لنا أعداء وليس لنا صديق. يمكن للصليب أن يتحد في كل وقت ، لكن الهلال دائماً بمفرده . الكل ينتظر النفع من الدولة العثمانية ، ويظهر لنا المودة ولكنه في الوقت الذي لا يجد فيه ما يكسبه ، سرعان ما يعاديننا . ووضعت بالتالي سياستي علي هذا الأساس : التوجه للعدو بسلاح العدو" [2] .

---

(١) المذكرات ، ص ٦١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٦٤ .

ثم يسترسل في موضع آخر فيقول " لقد كانت الدول الكبرى وخاصة تلك التي تحكم شعوباً إسلامية في آسيا ، مثل إنجلترا وروسيا ، ترتعد من سلاح الخلافة الذي أحمله لقد قررت استخدام قوتي كخليفة في وحدة بلادي وأمنها ، كما قررت العمل علي سلامة أخوتنا في الدين في الخارج ضد كل احتمال . إن وجود الخلافة في يدي كان يجعل الانجليز في دوامة الاضطراب . وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية كل من جمال الدين الأفغاني وإنجليزي يدعي بلند قالا فيها : بإقصاء الخلافة عن الأتراك، واقترحا علي الإنجليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة علي المسلمين . لقد كنت – ودون أن أثير شكوك الإنجليز – أرسل السادة الدعاة إلي مسلمي آسيا الوسطي ، لأربطهم معنوياً بالخلافة . وإني أذكر الخدمات التي قدمها الشيخ سليمان أفندي البخاري بين مسلمي روسيا ورأيت في هذا فوائد جمة . كما رأيت الرباط الوثيق الذي يربط مسلمي الهند بالدول العثمانية" [١] .

(١) المذكرات ص (٦٧ – ٦٨)

دو اليهود في إسقاط السلطان عبد الحميد

لقد أصدر نابليون بونابرت نداء إلي اليهود طلب منهم مساعدة فرنسا لاحتلال فلسطين عن طريق القوة العسكرية ويذكر لهم أن هذا النداء لإعادة القدس القديمة للورثة الشرعيين لفلسطين هو الأول من نوعه في عصر ما بعد النهضة الأوروبية [١].

أما بريطانيا التي كان يهمها تأمين مواصلاتها إلي الهند عن طريق استمرار نفوذها في بلاد الشام فقد اقتضت مصالحها الاستعمارية إيجاد كيان في فلسطين يتوافق وجوده مع مصالحها .

وبالفعل فقد عملت بريطانيا أكثر من آية دولة أخرى علي قيام دولة إسرائيل في فلسطين . فقد ضغطت علي محمد علي باشا عندما استولي علي سوريا لتسهيل هجرة اليهود إلي فلسطين ... وضغطت بعد ذلك علي الدولة العثمانية وطالبتها بطرد سكان فلسطين المسلمين وإسكان اليهود مكانهم منذ عام ١٨٤٥م .

ولقد أدركت الدولة العثمانية الدور التآمري المزدوج البريطاني اليهودي ليس علي فلسطين فحسب بل وعلي المنطقة كلها وقد أفهمهم السلطان عبد الحميد: " أن اليهود يستطيعون العيش بسلام في أية جهة من المملكة العثمانية إلا في فلسطين ، الدولة العثمانية ترحب بالمضطهدين ولكنها ترفض مساعدة اليهود في إقامة مملكة لهم في فلسطين أساسها الدين " [٢].

---

(١) المذكرات ص (٦٧ – ٦٨).

(٢) المطامع الصهيونية التوسعية -٠ عبد الوهاب الكيالي ، ص – (١٢ – ١٣)

والجدير بالذكر أن اليهود لم يجدوا الطمأنينة في العيش إلا في ظـل المسلمين والحكومات إسلامية سواء في أسبانيا أو الدولة العثمانية أو في بعض البلدان العربية.

فقد أصدر السلطان بايزيد الثاني مرسوماً يقضي بحسن معاملتهم في أنحاء الدولة وسمح لهم بحرية التجارة والاشتغال بالأمور الاقتصادية والمصرفية .

ولقد أكد هرتزل أن الدولة اليهودية المزمع إنشاؤها في فلسطين ستكون قاعدة استعمارية ليست لدولة واحدة وإنما لجميع الدول !!! .

" سنبني سكك الحديد في آسيا ونشق الطريق للأمم المتحضرة . وهذه الطريق لن تكون في يد دولة كبيرة واحدة بل للجميع "[1].

أما ذروة المعارضة العثمانية للاستيطان اليهودي في فلسطين فقد دونه هرتزل في مذكراته والتي تمثلت بقول السلطان عبد الحميد : " لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد ، لأنها ليست لي بل لشعبي . لقد حصل شعبي علي هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم ، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا . لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سوريا وفي فلسطين وقتل رجالنا الواحد بعد الآخر في (بلقنه) [2] .لأن أحداً منهم لن يرضي بالتسليم – وفضلوا أن يموتوا في ساحة القتال الإمبراطورية العثمانية ليست لي وإنما للشعب المسلم . لا أستطيع أبداً أن أعطي أحداً أي جزء منها . ليحتفظ اليهود بملايينهم فإذا قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود علي فلسطين دون مقابل ، أنما لن تقسم إلا علي جثتنا ".

يقول الأستاذ مصطفي الطحان في كتابه تركيا التي عرفت : " ولا يظنن القارئ أن السلطان عبد الحميد الذي اشتهر بحنكته وذكائه كان يجهل عاقبة هذا الموقف ... بل

---

(١) يوميات هرتزل ص – ٣٤٢ .

(٢) أسم معركة دارت بين العثمانيين والروس في منطقة البلقان .

لقد اطلع بدقة علي المقررات الضمنية لمـؤتمر بال الذي عقد في سويـسرا خـلال الفترة الممتدة من ٢٩ آب (أغسطس) إلي أول أيلول (سبتمبر) عام ١٨٩٧ ولتي من أهمها القرار التالي :

"في حال استمرار رفض السلطان للمطالب الصهيونية فإن تحطيم الإمبراطورية التركية شرط لإقامة حكومة صهيونية في فلسطين".

وعلي هذا النحو استطاعت الحركة الصهيونية مع المحافل الماسـونية متابعـة النشاط السياسي لتحقيق المشروع الصهيوني في فلسطين ، وكان يهـود الدونميـة يشكلون اللبنة الأولي لتنفيذ هذا المشروع.

ويمكن القول أن حزب الاتحـاد والترقـي ولـد فـي المحفـل الماسـوني المـسمي (مكادونيا ريزتورا) المؤسس من قبل (قارصوه لليهودي السلانيكي). ومـن سـلانيك ، جاءت قوات الاتحاديين التي ثارت علي السلطان ١٩٠٨م تمهيداً لعزله ١٩٠٩م

وما إن زال السلطان عبد الحميد... حتى بدأ اليهود يقطفون الثمار ...فاشـتروا معظـم الصحف التركية ...وعينوا العديد من شخصياتهم في حكومة الاتحاديين وخاصة جاويد بك الذي عين وزيراً للمالية والذي استطاع تأمين بعض القروض المالية ...ممـا سـهل أمامه مهمة التعاون مع جمعية الاتحاد الإسرائيلية في نيويورك لشراء الأرضـي فـي فلسطين. واستطاع اليهود كذلك إلغـاء معظـم القوانين التي وضعت للحيلولـة دون هجرة اليهود إلي فلسطين. وكذلك تم نقل بعـض المـوظفين العثمـانيين المعارضـين لاستيطان اليهود في فلسطين من القدس .

وباختصار فيمكننا أن نقول أن تاريخ إنشاء دولة إسرائيل لم يكن عام ١٩٤٨م ... بـل عام ١٩٠٩م عندما أسقط السلطان عبد الحميد" [1] .

---

(١) تركيا التي عرفت : ص ١٤٩ – ١٥٠ . وراجع كذلك محمد علي الصلابي (الدولة العثمانية) : ص٤٢١ وما بعدها وكذلك كتابه (السلطان عبد الحميد) .

حقيقة السلطان عبد الحميد

رسخت الثقافة العلمانية في الأذهان صورة دموية للسلطان عبد الحميد أقرب ما تكون إلي مصاصي الدماء في أفلام هوليود فهو حاكم طاغية مستبد عدواني سفاك للدماء ومستلذ بالتعذيب ويهوي التحقيق مع أعدائه وهم يوضعون فوق الخازوق (وهي الصورة التي وصفه بها أنيس منصور) سلطان طاغي فاجر يستنزف ثروات شعبه ويمالئ أعداء البلاد .

لن نذهب إلي ما يذكره الطرف النقيض ونقول أن الصورة الحقيقية ذات شبه قريب من عمر بن الخطاب ولكننا سنقول أنه بحسب رواية الثقات من المؤرخين فأن الرجل يعد من حيث الكفاءة أحد رجال الدولة المعدودين في التاريخ وبأسوأ الظن لا تقل عن الدرجة المتوسطة إن لم تكن الجيدة من حيث العدالة واستقامة السلوك .

يذكر المؤرخ التركي يلماز أوزتونا عن السلطان عبد الحميد الأفعال والمواقف والأوصاف التالية : (لم تكن في الإدارة الشخصية لعبد الحميد عقوبة الإعدام أو أسلوب الاغتيال . عقوبات السجن كانت نادرة وخفيفة . كانت عقوبات السجن لأسباب سياسية تستبدل بعد مدة وجيزة وفوراً إلي نفي في أي مدينة من مدن الإمبراطورية تحت اسم "الإقامة الجبرية" . لم يكن عدد معارضي وأعداء السلطان الألداء قليلين . وحتى عن المسلمين والأتراك ، لم يكن عددهم قليلاً . واستمرار الإدارة الشخصية طيلة هذه المدة الطويلة – رغم ذلك – لم يكن إلا علي أساس شخصية السلطان . استعمل السلطان عبد الحميد صفه رئاسته لكل مسلمي العالم كخليفة وصفه كونه حاكماً شرعياً للعثمانيين بمهارة فائقة. وبقدر ما طغي تأثيره علي الأفراد طغي علي الجماعات والأقوام والملل والشعوب كذلك . هنا يكمن سر دهائه . أكبر بمهارة منقطعة النظير أنه أقدر مسلم وتركي علي وجه الأرض"[1].

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية – المجلد الثاني : ص ١٤٣ .

ويقول كذلك : " إن الذين لا يدينون بالإسلام يؤمنون بأنـــه شخـــصية جــديرة بالاحترام يخشي جانبها وخلال هذه الفترة التي تفشت فيها الفاقة والمجاعة فـــي معظـــم الأقطار العالمية ، ومات الملايين في إيرلندا والهند بسبب قلة التغذية ، لم تكن في الدولة العثمانية مشاكل من هذا القبيل . لم يكن هناك شخص جائع وبلا مسكن " (١) .

أما عن سلوك السلطان الشخصي فيقول عنه : " عاش حياة منظمة ، لـــم يـــذق طعم المشروبات الكحولية ، لم يهمل أبداً عبادته ، قام مبكراً ، أظهر مقـــدرة ونـــشاطاً مذهلا في العمل . كان مدمناً علي التدخين وشرب القهوة . كـــان مولعـــاً بالنـــساء دون إفراط ودون إسراف وخصص وقتاً كثيراً لهن . لم يكن له علاقة مع أية أمرآة خـــارج حرمه ليس هذا فحسب بل إنه لم يلتفت إليهن بعين نابية حافظ علي سراي يلدز كمـــأوي للعفة والأخلاق" (٢).

وفي موضع آخر يتحدث فيه عن أحمد رضا بك فيقول : "سبب ثبات أحمد رضا بك في باريس استمرار حركة الاتحاديين وعدم اندثارها . كان بإمكانه العودة والحصول من السلطان علي وظيفة كبيرة . مات في العهد الجمهوري بعد مدة وجيزة من نـــشره مذكراته في جريدة جمهوريات التي اعترف فيها بعدم تفهمهم السلطان عبـــد الحميـــد ، ومدح فيها شخصية الخاقان وسياسته بشكل رفعه فيه إلـــي السماء ، وقد اعترف كل من طلعت وأنور وجمال والزعماء الذين قلبوا الفكرة الاتحادية إلـــي مـــؤامرة بـــأنهم لـــم يستطيعوا فهم السلطان حميد وتركوا وطنـــهم في نهاية عام ١٩١٨م " (٣) .

أي أن أعداء السلطان أنفسهم من قادة الاتحاديين قد ندموا عـــن عـــداوتهم لـــه وأدركوا بعد فوات الأوان أنه كان صمام الأمان لعدم انهيار الدولة ، أو كما يقول يلمـــاز

---

(١) المرجع السابق : ص ١٤٤ – ١٤٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٤٩ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٧٠ – ١٧١

أوزتونا : " تعتبر من الأمور الأكيدة محافظته علي تركيا من حروب البلقان والحرب العالمية لو كان قد بقي في العرش حتى موته الطبيعي لكانت سياسته الخارجية سوف تظل سائرة في هذا الاتجاه . لقد كان من الممكن عندما تحل سنوات إتمام الإمبراطوريات لأعمارها الطبيعية أن تقوم تركية بمحض إرادتها وبشكل أكثر عقلانية بإجراء التصفية فتمنح الاستقلال للأقطار غير التركية وترتبط معها بعلاقات مادية ومعنوية ، ويحتمل أن يكون أهم من كل ذلك أنها لن تتحطم ويصيبها الدمار في فترة الحروب التي دامت عشر سنوات بصورة مستمرة ولا يصيب عمرانها الخراب وأنها سوف تتطور أكثر " [1].

والخلاصة من كل ما سبق هي كما يقول يلماز أوزتونا : " إن البادشاه الذي عزز صفة الخلافة بشكل واضح هو السلطان عبد الحميد . وقد لقي هذا قبولاً حسناً لدي العالم الإسلامي وحتى اليوم يذكر العالم الإسلامي ذلك بمحبة . كان العالم الإسلامي في وضع حرج بسبب ضغط الاستعماريين. اجتمع بكل امتنان حول زعامة السلطان عبد الحميد المعنوية . شوهد بدهشة في صحف استانبول عام ١٩٦٧م خبر تلاوة الخطبة في مساجد بعض المناطق النائية في أفريقيا باسم عبد الحميد . وإنني موقن أنه حتى اليوم مازالت تقرأ الخطب في أماكن كهذه باسم السلطان حميد بينما جاء بعده ثلاثة خلفاء آخرين " [2].

والسؤال الآن من الذي عزل السلطان عبد الحميد ؟ هل هو الشعب ؟ أو حتى الجيش التركي بقيادة الاتحاديين ؟ لا . إنه تحالف الاتحاديين مع شرازم عصابات الأقليات الناقمة علي الإسلام والدولة .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٨٩.

(٢) المرجع السابق : ص ١٥٦ .

يذكر يلماز المشهد الأخير فيقول : " بدأ الاتحاديون بجمع قوات في سلانيك ونقلها بالقطار إلي استانبول . سميت هذه القوة (حركة أوردوسي) أي جيش الحركة. الجيش الثالث ، كان يحتوي علي قليل من الجنود النظاميين . البقية عصابات يدعي أنها متطرفة أكثر من أفراد العصابات البلغارية ، الصربية ، اليونانية ، المقدونية والألبانية الذين أهدروا الكثير من الدماء التركية " [١].

هل انتهت المسألة لقد كان لدي السلطان الجيش المتمركز استانبول أكبر قوة ضاربة في الإمبراطورية خصوصاً فرقتيه الأولي والثانية . وكانوا يكرهون ذلك الجيش الثالث لما لمسوه من غرور وزهو ملازمي ونقباء ذلك الجيش القادم من سلانيك ولكن المشكلة كانت في السلطان نفسه فذلك السلطان السفاح الدموي الذي مازال الإعلام العلماني يرسخ صورته هذه في الأذهان رفض مجرد الاشتباك مع هذا الجيش والدفاع عن نفسه وليته ما فعل. هكذا يسرد يلماز المشهد " مثل الجنرالات بين يدي السلطان عبد الحميد في استانبول ، أمر السلطان بشكل قاطع بعدم التحرش بهم . نوقش هذا الأمر كثيراً ، إذ أن التطورات التي حدثت بعده كانت ذات تأثير وخيم علي مستقبل وشرف الدولة التركية وذكر بأنه لا يمكنه بعد هذا العمر أن يقتل المسلمين بالمسلمين ... وضح هنا عدم تركه سياسة بني عثمان في عدم استعمال الجيش في السياسة الداخلية ولو كان ذلك ضده ، بلغ الأمر إلي حد أن السلطان عبد الحميد ، حصل من قائد الجيش الأول ناظم باشا والجنرالات الذين يرافقونه علي قسم بعدم استعمالهم السلاح ضد جيش الحركة" [٢].

بالنسبة لي فقد أخطأ السلطان عبد الحميد خطأ جسيماً بموقفه المتسامح هذا فقبل التسامح وقبل اتقاء الدماء وقبل الزهد في الرياسة يجب النظر إلي مستقبل الدولة وهو لم يكن بالطبع مع الاتحاديين المتغربين فإذا كان السلطان قد وثق في مستقبلها معهم فهذا في ذاته تأكيد لخطئه الجسيم .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٨٣

(٢) المرجع السابق : ص ١٨٣ .

ومع ذلك فهذا هو فتح الله جولان يقدم الرأي الآخر : .

" يقولون عنه إنه كان (السلطان الأحمر) وأنا أري أن هذا اللقب الذي وُضع من قبل الفرنسيين كان من المفروض أن يؤدي لدينا إلي انطباع إيجابي عنه ". لأن الفرنسيين لم يكونوا أصدقاء . وهكذا فإن هذا الافتراء الذي رموه به تُرجم إلي لُغتنا من قبل بعض التعساء عندنا من الذين حسبوا سب الأجداد وشتمهم مفخرة لهم . ولكن التاريخ هو الذي سيقرر عما إذا كان عبد الحميد شعلة من الذكاء والدهاء أم سلطانا أحمر ، إذ لم يكن له أي علاقة لا من قريب ولا من بعيد بهذا اللقب .

قُتل عمه السلطان عبد العزيز وأرادوا إخفاء هذه الجريمة فزعموا أنه انتحر. قام مدحت باشا وبعض من أعوانه بقتل السلطان عبد العزيز . وكان محاولة إظهار الجريمة وكأنها انتحار من السذاجة بحيث أنها ما كانت لتخدع صبياً صغيراً . فعندما قُتل عبد العزيز قصت شرايين رسغيه وقيل إنه انتحر هكذا . ولكن إن قص شريان أحد رسغه فبأي يد استطاع قص شريان رسغية الآخر ؟ ثم إن بعض شرايين عنقه كانت أيضاً مقصوصة . فكيف يمكن أن يكون هذا انتحاراً ؟ !! ثم ما السبب الذي دعاه إلي الانتحار ؟ كل ما قيل في هذا الخصوص عبارة عن أكاذيب وعن افتراءات.

ثم شكلت هيئة للتحقيق في هذا الموضوع . وبعد قيام هذه الهيئة بتدقيق التقارير المقدمة لها أصدرت قرارها بإدانة مدحت باشا وأعوانه وأصدرت حكم الإعدام بحقهم . فكيف يكون عبد الحميد سلطاناً أحمر وهو الذي استعمل صلاحيته فخفف أحكام الإعدام هذه عن قاتل عمه الذي كان في الوقت نفسه أعدي أعدائه ، وخفف هذه الأحكام إلي سجن مؤبد ونفاه إلي الطائف . وهنا هبت الاستخبارات السرية الدولية في محاولة لإنقاذ مدحت باشا الذي كان من "الدونمة " وتهريبه من السجن . عند ذلك أصدر عبد الحميد أمراً مشدداً إلي والي الطائف بأنه إن تم تهريب مدحت باشا من السجن فسيكون هو مسئولاً مسئولية كاملة عن مثل هذا الإهمال الخطير .

وبدأ الوالي كل يوم يتلقي أخباراً عن محاولات التهريب هذه حتى سئم من ازديادها . لذا يحتمل أنه لكي يخلص نفسه من عقاب منتظر قام بخنق مدحت باشا في السجن . فالمسألة غير متعلقة بعبد الحميد من قريب أو بعيد . ثم كان يستطيع تنفيذ حكم الإعدام عليه ، ولاسيما أن مدحت باشا حاول اللجوء إلي دولة أجنبية ، وهو عمل يرقي إلي مرتبة الخيانة . لقد كانت الرحمة لدي عبد الحميد رحمة كبيرة إلي درجة أنها أصبحت حالة مرضية عنده ، فلم يرغب أبداً في إراقة دم أي شخص ، وهذه الرحمة والشفقة هي التي منعته من مجابهة " جيش الحركة " .

كان محمود باشا شخصياً ساذجاً لا يكاد يفهم شيئاً ، ولم يكن يعرف أصول إدارة الدولة أكثر مما يعرفه أي فلاح في الحقل . وعندما دخل المجلس النيابي (مجلس المبعوثان) فيما بعد كان يغطّ في النوم . كان رئيس المجلس النيابي يحاول أحياناً إيقاظه من النوم لكي يتخلص من الحرج أمام الضيوف الأجانب . مثل هذا الشخص الخالي من الشعور بالمسئولية تجاه مشاكل البلد وشئونه إلي درجة الغطيط في النوم في المجلس كان قد جمع حواليه مجموعة من شذاذ الآفاق جاء بهم من مدينة " سلانيك " إلي إسطنبول . وعندما سمع قائد حامية قصر " يلدز " بهذا النبأ هرع إلي السلطان وطلب منه السماح له بتشتيت هذا الجيش . كان السلطان علي علم بهذا الأمر منذ البداية، ولكنه لم يقبل طلب قائد حرسه ورد طلبه قائلاً بأنه لن يسمح بإراقة دماء أمته بينما كان جيش الحركة بعيداً عن النظام العسكري ، وكان وجود محمود باشا علي رأسه دليلاً علي هذا . ولم يكن أكثرية جنود هذا الجيش يعرفون سبب مجيئهم إلي إسطنبول ، وكان قسم منهم يحسبون أنهم جاءوا لحماية السلطان .

أجل ! لم يكن السلطان ضحية أحد .. بل ضحية رحمته وشفقته . ولو لم يقابل التصرفات الهوجاء لـ " جمعية الاتحاد والترقي " بمثل هذا التصرف الإنساني الرحيم لكان له معهم تصرف آخر .

ثم إنه لم يكن يتوقع أو يفكر بأن الاتحاديين سيتسببون في فواجع ومآس كبيرة، لذا قيمهم ضمن تفكيره الإنساني ، أي أنه لم يتوقع أبداً من هذه الجماعة التـــي تـــصدت لقيادة الأمة صدور ما صدر منهم بعد ذلك وكان يتوقع أن أخاه السلطان رشاد سيـــستمر في نفس طريقه . لذا نري أن جانب التوكل عنده تغلب علي جانب التدبير . وهكذا ذهب ضحية مُروءته[1] ".

(١) السلطان الأحمر : موقع فتح الله جولان العربي أون لاين .

حرب الاستقلال

انتهت الحرب العالمية الأولي ... وهزمت دول المحور وتحطمت الإمبراطورية العثمانية وسلخت عنها ممتلكاتها في مصر وسور يا وفلسطين والعراق بعد أن سلخت عنها ممتلكاتها الأوروبية ...وأدي دخول قوات الحلفاء البلاد وتمزيقهم شملها ، وأهانتهم جيشها وحكومتها ، إلي انبثاق حركات مقاومة شعبية تستهدف إنقاذ ما يمكن إنقاذه ... فتشكلت :

- جمعية تراقيا في أدرنة .
- وجمعية الدفاع عن الولايات الشرقية .
- وجمعية حفظ الحقوق .
- وجمعية اللامركزية .
- وجمعية تعالي الإسلام .

وغيرها من حركات المقاومة الشعبية التي بدأت تتصدي لقوات الاحتلال في المناطق المختلفة .

وعلي الرغم من أنه لم يثبت أي دليل أن لمصطفي كمال أية علاقة بهذه الجمعيات الوطنية إلا أن الإنجليز أعلنوا اسمه في رأس قائمة الخطرين عليهم !! بينما كان يقضي وقته في هذه الفترة في مقاهي المدينة وحاناتها بدون أي هدف أو خطة أو أمل.

ومع تعاظم حركات المقاومة الشعبية لاسيما في الأناضول ، فرض الإنجليز علي السلطان قمع هذه الحركات والقضاء عليها بالقوة وانتداب الضابط مصطفي كمال للقيام بهذه المهمة قبل مؤتمر الصلح الذي سيعقد في باريس.

وعلي الرغم من محاولات الخليفة اليائسة في إيقاف مصطفي كمال، وإبقائه في العاصمة ، ومنعه من أداء هذه المهمة ... إلا أن إدارة الاحتلال التي ادعت أنها لا

تعرف كيف تنفذ قرار السلطان ، وهل تسنده إلي قوات الجيش أم إلي قوات الأسطول هي التي مكنت مصطفي كمال من الخروج.

ولم يضع مصطفي كمال الفرصة.... فقد أبحر في الليلة نفسها ... ووصل إلي مدينة صامسون علي البحر الأسود ... كانت المدينة تحت الاحتلال الإنجليزي مما وفر لمصطفي كمال الحماية والقدرة علي إجراء اتصالاته مع الآخرين .

في السفينة التي أقلته عبر البوسفور والبحر الأسود صارح مصطفي كمال صديقة عارف ورأفت بحقيقة أهدافه فقال لهما : " إن الشعب والجيش مازالا متمسكين بالخليفة والخلافة .... ومن الضروري أن يبرز من خلال حطام هذه الأمة قائد فذ يطيح بكل هذا التراث الثقيل" (١).

ومن صامسون التي وصلها يوم ١٩ مايو ١٩١٩م ... بدأ عمله الذي خطط له بعناية كبيرة ... كان يحتاج إلي كسب ثقة الشعب والجيش .... مع إظهار ولائه للسلطان .

كان خطابه في هذه المرحلة مزدوجاً ...

فقد استخدم المسجد مكاناً مناسباً للتجمعات ولإبراز مواقفه الوطنية .... كان يخاطبهم فيقول : " لقد قرر العدو القضاء قضاء تاماً علي أمتنا ووطننا، والسلطان عاجز عن فعل أي شئ لأنه واقع في قبضة الإنجليز لذلك أرسلني إليكم من أجل العمل علي إنقاذكم من الكارثة . إن السبيل الوحيد لإنقاذكم هو انضمامكم إلي صفوف الجيش الوطني الجديد " .

كان يظهر في هذه التجمعات حرصه علي تخليص السلطان من ذل الاحتلال والأسر .

---

(٣) الذئب الأغبر – آرمسترونغ ، ص – ١١١ .

أما خطابه مع قادة الجيش الذين يعفرون أن السلطان أصدر أمراً بعزله ، والقبض عليه ، واعتباره خارجاً علي القانون .... فكان يطلب منهم أن يناصروه ويؤازروه للتخلص من القوات الغازية .... وقد قبل القادة هذا الشرط مقابل شرط آخر اشترطوه عليه وهو ألا يقدم علي أي أمر من شأنه أن يؤذي السلطان [١].

وقد استدعي مصطفي كمال بعض القادة : رأفت من سيواس ، وعلي فؤاد من أنقرة . وكان عارف موجوداً معه في أماسيا ، التي انتقل إليها مصطفي كمال من صامسون.

وفي ٢٣ يونيو ١٩١٩م عقد القادة الأربعة اجتماعاً لخصوا فيه الوضع كما يلي: " إن تركيا الآن جاثية علي ركبتيها أمام قوات الاحتلال ... وإن جيوشها باستثناء جيش (كاظم قره بكير) المعسكر في ديار بكر قد جردت من أسلحتها وسرح معظم جنودها وضباطها .... لذلك فإن الطريق لإنقاذ الأمة هو دعوة الشعب لحمل السلاح وخوض حرب عصابات لطرد المحتلين ، وعقد مؤتمر وطني يحضره مندوبون يمثلون جميع المناطق من أجل انتخاب حكومة مستقلة داخل الأناضول ، تأخذ علي عاتقها قيادة الثورة الشعبية لتحرير البلاد) .

وفي أعقاب المؤتمر أرسل مصطفي كمال برقية إلي جميع القادة العسكريين في مختلف المناطق جاء فيها : إن احتلال أزمير ومانيسيا وآيدن من قبل الجيوش اليونانية يوضح بشكل قاطع مدي الخطر المحدق بالوطن . وطلب من القائد كاظم قره بكير (حيث أن مصطفي كمال كان قد جرد من رتبته العسكرية بأمر من السلطان) أن يدعو القادة العسكريين ومندوبي المناطق إلي مؤتمر يعقد في أرضروم .

عقد المؤتمر في أغسطس ١٩١٩ واتخذت فيه القرارات التالية :

١ - أن جميع الأراضي التركية وحدة كاملة .

---

(١) راجع الأستاذ مصطفي الطحان . مرجع سابق : ص ١٦٠ وراع أيضاً عبد القديم زلوم . كيف هدمت الخلافة ؟.

٢ - في حالة تفكك الدولة العثمانية ، علي الأمة (يقصد التركية) أن تقف صفاً واحداً ضد الاحتلال .

٣ - إذا أصبحت الحكومة المركزية (في استانبول) غير قادرة علي حماية استقلال الأمة ، تؤلف حكومة مؤقتة منتخبة من المؤتمر الوطني ، تقوم بهذه المهمة.

٤ - الإرادة الشعبية هي السلطة العليا الحقيقية .

٥ - لا يجو ز أن تمنح الأقليات أي امتيازات أو حقوق تضر بسيادة الأمة .

٦ - لا مجال لقبول أي نوع من أنواع الحماية أو الوصاية الأجنبية .

وفي أثناء المؤتمر ، وصلت إلي الجنرال كاظم قرة بكير برقية من السلطان تأمره بالقبض علي مصطفي كمال وفض المؤتمر ... ولكن قره بكير قال إن الإخلاص العسكري يجب أن يكون لتركيا أولاً وقبل كل شئ . وانتخب المؤتمر لجنة لتمثيلهم في المؤتمر الوطني العام ، الذي تقرر عقده في سيواس واختاروا مصطفي كمال رئيساً لهذه اللجنة ورؤوف نائباً له [١] .

عقد المؤتمر في ٤ سبتمبر ١٩١٩م وكان نسخة مكررة عن المؤتمر التمهيدي الذي عقد في أرضروم ... وانتخب المندوبون لجنة تنفيذية تتولي أعمال الحكومة المؤقتة وانتخبوا مصطفي كمال رئيساً لهذه الحكومة .

وفي ٢٧ ديسمبر عام ١٩١٩م ، غادر مصطفي كمال سيواس واستقر في أنقرة التي أصبحت قاعدة لتحركاته السياسية . وقد دعا إلي عقد جمعية وطنية في ٢٣ أبريل ١٩٢٠م ، واعتبر اللجنة التمثيلية التي تقوم في أنقرة بمثابة حكومة شرعية وحيدة في تركيا ... وفي الموعد المحدد عقد المجلس الوطني الكبير أولي جلساته ، وانتخب مصطفي كمال رئيساً له ، وعين انينو رئيساً للأركان .

---

(١) السيف والهلال – رضا هلال ، ص – ٥٦ .

وكانت قوات الاحتلال وخاصة الإنجليز كانت تكلؤه وترعاه.... وعندما وصلت إلي البلاد لجنة أمريكية لتقصي الحقائق ، كان هاربورد رئيس اللجنة حريصاً علي مقابلة مصطفي كمال في سيواس ، وهو الذي ضغط علي السلطان بأن يقبل شروط مصطفي كمال بإقالة الحكومة وإيقاف المجابهة والدعوة إلي انتخابات جديدة.

وجرت الانتخابات تحت حراب جيوش الاحتلال ، وفاز بالطبع الكماليون في معظم المقاعد ، ودعاهم مصطفي كمال إلي الاجتماع به في أنقرة بعيداً عن الحكومة المركزية ولكنهم (أي النواب) لم يجدوا مبرراً لهذا التصرف . فهم عندما ساروا مع مصطفي كمال اشترطوا عليه بأن لا يقوم بأي تصرف يسئ إلي مركز السلطان...ولقد قبل يومها هذا الشرط علي أساس أن يأخذهم بالتدرج وضمن سياسة المراحل.

بناء علي ذلك فقد أبرق النواب إلي السلطان وأعربوا له عن ولائهم ووضع أنفسهم تحت تصرفه من أجل إعادة الشرعية إلي الحكم وإنهاء حالة الانقسام والفوضي التي سادت البلاد ، والعمل يداً واحدة لتحقيق رغبات الشعب وأهدافه الوطنية تحت قيادة الخليفة الذي هو رمز كرامة الأمة ووحدتها.

وبرقيتهم هذه واضحة لا تحتاج إلي تعليق ، فقد كان يؤلمهم انفصال الأناضول وضرب وحدة البلاد ، وإذا كانوا يظنون (في السابق) أن لذلك بعض المبرر .... أما الآن وهم نواب الأمة فمن الخيانة ترك أماكنهم والالتحاق مصطفي كمال في أنقرة واعتبروا ذلك تكريساً للانفصال والانقسام .

ولقد شعر مصطفي كمال وأسياده بهذه النكسة ، فما كان من الأسياد إلا أن أو عزوا إلي اليونانيين بتحريك أسطولهم باتجاه شاطئ أزمير ليشدوا انتباه الشعب إلي هذه الأمر ومن ثم أمر القائد البريطاني يوم ١٦ آذار (مارس) ١٩٢٠ م بإغلاق البرلمان بالشمع الأحمر واعتقال البرلمانيين ، ولم يطلق سراح إلا أولئك الذين رغبوا بالالتحاق بمصطفي كمال في أنقرة.

معاهدة لندن

أدرك الحلفاء الروح الجديدة التي دبت في الشعب ، وأنه لن يستسلم مهما تكن الظروف فتداعي أقطاب الحلفاء إلي لقاء في لندن .... واشترطوا علي السلطان أن تمثل تركيا الحكومة المؤقتة التي يرأسها مصطفي كمال في المؤتمر وليس حكومة استانبول .

وهنا وضحت القضية ، وأعلنت الصفقة ، فإما تركيا الإسلام والخلافة فعندها تمزق شر ممزق ... وإلا فدولة علمانية بقيادة مصطفي كمال رجل بريطانيا الوفي !.

وفي كل مرحلة بل وفي كل لحظة يعيد التاريخ نفسه وتفرض علينا هذه القوى وعملاؤها من العلمانيين إما الإسلام مع الدمار والحرب ... وإما العلمانية مع السلام والذل ولكن في كل مرة ليست الظروف هي الظروف ، وليست النفوس هي النفوس وتظل في النهاية هناك اللحظة الفارقة التي تقتنصها النفوس الفارقة فتحيل الأمل المشتعل في الصدور إلي حقيقة واقعة .

معاهدة لوزان

أدرك السلطان وحيد الدين أن مصطفي كمال ليس وحده ، وأن قوات الاحتلال تنجده كلما وقع في مأزق .... وع ذلك فقد كان مضطراً للقضاء علي تمرد مصطفي كمال الذي قسم البلاد وفصل الأناضول عن العاصمة ، فجرد جيشاً أسماه (جيش الخلافة) بقيادة سليمان شوكت باشا وأوكل إليه مهمة تطهير البلاد من الكماليين وأنصارهم.

واستجاب الناس في كل مكان للدعوة الجديدة ، وأدركوا أهداف مصطفي كمال علي حقيقتها ، وهبوا لنصرة الخلافة .... وفي مدة وجيزة أحرز جيش الخلافة انتصارات كبيرة فاستولي علي عدد كبير من المدن والقرى ، وواصل زحفه باتجاه أنقرة حتى أصبح علي بعد بضعة أميال منها وانضم الأكراد المسلمين إلي جيش الخلافة ي الشرق وأبادوا فرقة أرسلها مصطفي كمال إلي منطقتهم [١].

وأدرك مصطفي كمال أن المجد الذي كان يحلم به ، إن هـو إلا خيـال رجـل مريض . فالشعب التركي المسلم متمسك بالخلافة والخليفة ولا قيمة لهذه الزعانف إلا في ظل حراب الاستعمار .

وأدرك الانجليز أن صاحبهم في ورطة حقيقة هذه المرة ، فأوعزوا إلي اليونان بأن تحرك قواتها مرة أخري لاحتلال أزمير . وبالفعل احتلتها واحتلت عدداً من القـرى والمدن المحيطة بها [٢].

ولم يستطع السلطان متابعة طريق واتصالات مصطفي كمال ، فقـد توجهـت معظم قواته لحرب اليونانيين .

يقول الأستاذ مصطفي الطحان تعليقاً علي ذلك : " وكان هذا هو بيت القصيد ... ولك أن تتصور الدعاية التي رافقت هذه الحرب وهي تثني علي البطـل الـذي هـزم اليونانيين في أزمير ، وقضي علي جيش الخليفة ، وانتصر علي فرنسا في (مرعش) ، وانتصر علي القوات الإيطالية المرابطة قرب (قونيـة) ، وانتـصر علـي القـوات البريطانية في (لسكي شهير).... انتصر علي جميع الجيوش المنتصرة فـي الحـرب العالمية الأولي !!" [١] .

وفجأة دعا مصطفي كمال الجمعية الوطنية إلي اجتماع طارئ وطالبها بفـصل السلطنة عن الخلافة ... علي أن يكون الخليفة مجرد رمز ديني للمسلمين ... وطالـب بخلع الخليفة وحيد الدين خان [٢] .

ولقد ثار النواب جميعاً علي هذا القرار ، ولم يؤيده سوي ثمانون شخـصاً مـن أنصاره أيدوه ومسدساتهم أمامهم ... وهنا صعد مصطفي كمال المنصة وقـال : أيهـا السادة ، لقد اغتصب السلطان العثماني السيادة من الشعب بالقوة وبالقوة اعتزم الـشعب أن يستردها ... إن هذا أمر مفروغ منه وسينقذ شئتم أو أبيتهم ... ولكن حذار!

فإذا ما تماديتم في معارضتكم فإن رؤوسكم ستسقط!!

---

(١) أرمسترونغ – الذئب الأغبر . نقلا عن مصطفي الطحان ، ص – ١٦٧ .

(٢) أتاتورك – مصطفي الزين ، ص – ١٠٢ .

وفي السابع من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٢٢م خرج وحيد الـدين من الباب الخلفي للقصر وغادر تركيا إلي الأبد ...

وفي ٢٤ يوليو ١٩٢٣م عقدت معاهدة لوزان بين الدول المنتصرة في الحـرب وبين حكومة أنقرة التى مثلها في المؤتمر عصمت أنينو أقرب مساعدي مصطفي كمـال إليه وخليفته من بعده .

في هذه المعاهدة تحققت لحكومة أنقرة ما كانت تطالب به من إنهـاء الاحـتلال للبلاد ولكن في مقابل ذلك فقد تحققت للدول المنتصرة الشروط التي وضـعها المفـاوض البريطاني (كروزون) وأهمها :

- إلغاء الخلافة الإسلامية .
- وإخراج آل عثمان من تركيا إلي الأبد .
- وإلغاء الشريعة الإسلامية والاستعاضة عنها بدستور مدني مستمد من القـوانين الأوروبية .

وهكذا أسدلت هذه المعاهدة الستار علي دولة عظمي ... حكمت قرابة الـستمائة سنة باسم الإسلام ... وطويت صفحة الخلافة الإسلامية وفتحت صفحة تركيا الأوروبية .

(١) تركيا التي عنت : ص ١٦٨ .
(٢) الذئب الأغبر – ارمسترونغ ، ص – ١٨٤

القومية التركية والجمهورية

مما لا شك فيه أن هناك دلائل علي أن القومية التركية كانت مطروحة من الناحية الفكرية والسياسية قبل انهيار السلطنة العثمانية وتأسيس الجمهورية التركية في ١٩٢٣م ، عبر إسهامات فكرية للنخبة العثمانية المثقفة كان أبرزها تلك المحاولات التي قام بها كتاب انتموا لحركات سياسية ، مثل : " تركيا الفتاة " و "شباب العثمانيين " و " الوطن " و " جمعية الاتحاد والترقي " . طرح هؤلاء أفكاراً بدت للوهلة الأولي جريئة وغير تقليدية ، وربما غير عملية عن القومية والدين والحرية والديمقراطية ومعاني السيادة ومظاهرها .

وشهدت السلطنة أحداثاً جسيمة توالت في فترة زمنية قصيرة بدءاً من الحرب الروسية العثمانية في سبعينيات القرن التاسع عشر ، وإقرار الدستور العثماني في ١٨٧٨م [١]، وحرب البلقان في أوائل القرن العشرين ثم الحرب العالمية الأولي في ١٩١٤م فالثورة الشيوعية في ١٩١٧م ، ثم حرب الاستقلال في الأناضول من ١٩١٩م حتى نهاية السلطنة ذاتها في ١٩٢٢ أدت إلي تطور عدة أطروحات ركزت جميعها علي شكل ومضمون الرابطة التي يتعين علي السلطة تبينها مع رعاياها إنقاذاً لنفسها .

كانت أولي هذه الأطروحات باسم " الرابطة العثمانية " تشير علي السلطنة بصياغة علاقتها وارتباطاتها مع شعوبها ، بعيداً عن النظر لانتماءاتهم الدينية أو العرقية أو المذهبية.

وكانت ثانية الأطروحات باسم " الرابطة الإسلامية " رأي أصحابها أن السبب الحقيق في تدهور أحوال السلطنة هو ابتعادها عن تطبيق أحكام الإسلام .

---

(١) جرى إقرار الدستور العثماني لأول مرة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، وربما رغماً عنه وسمي بعهد المشروطية الأول .

وكان ثالث الأطروحات باسم " الرابطة التركية " ، التي رأي أصحابها أن الدول العصرية المتقدمة تبني علي فكرة الدولة القومية ، التي تتأسس علي اشتراك أفراد المجتمع في الجنس واللغة والثقافة بأكثر من تأسيسها علي روابط أخرى مثل الدين ، وأنه يتعين الاهتمام فقط ببناء دولة تركية .

من ناحية الموقف من الغرب والإسلام ، ظهر " دعاة التغريب " ، الذين رأوا أنه ليس هناك من حضارة غير الحضارة الأوروبية ولابد من الأخذ عنها ، وأن ذلك يقتضي خلق حالة ذهنية جديدة من خلال نبذ التعلق بالقيم التقليدية . ورغم أن مفكرين مثل عبد الله جودت – أحد أبرز أصحاب هذا الاتجاه – كانوا يأسفون للفجوة بين المثقفين والجماهير ، فإنهم اقترحوا ردمها بغرس مبادئ الغرب الفكرية عن طريق التعليم . طرح جودت في مجلة " اجتهاد " مشروعاً كاملاً لذلك يتضمن نشر أفكار الدفاع عن حقوق المرأة وتبني الأبجدية اللاتينية والعلمانية ، ومع ذلك ظل إطاره الفكري يتحرك داخل حدود الهوية العثمانية وظلت أطروحاته تستهدف إنهاضها .

علي الجهة المقابلة ، بدا الشاعر محمد عاكف ، الذي تمتع بشعبية كبيرة بين الجماهير البسيطة في أوائل القرن حين عمل أستاذاً للأدب بجامعة إسطنبول من أعلي الأصوات الرافضة والناقدة لتغريب المجتمع . وقد عبر بكتاباته وقصائده عن الانزعاج من الفجوة بين هذه الجماهير والمثقفين الذين رآهم أكثر استعداداً ، وتسليما، لتقليد الغرب ونبذ الدين كعقبة في وجه التحديث . نجح عاطف ومعه بعض الكتاب والشعراء من المتأثرين بأفكار وأعمال جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده في مصر في إصدار مجلة عام ١٩٠٨م باسطنبول باسم " الصراط المستقيم " ، تمتعت بنجاح ملحوظ من ناحية الإقبال الجماهيري ، وانتهجت خطاً فكرياً يستند علي أن المشكلة لا تكمن في الإسلام وإنما في الشكل الفاسد بالغ الانحطاط ، الذي انتهت إليه المجتمعات الإسلامية بحكم سيادة البدع والتقليد وبتأثير الطرق الصوفية ، الأمر الذي افرز – حسبه – إسلاماً جامداً يتعارض مع التفكير العلمي وعاجزاً عن التطور والتكيف مع العصر الحديث ،

وبمرور الوقت سيمثل عاكف ومجلته الجناح الأكثر ليبرالية وعصرية في التيار الإسلامي [١] .

بين الاتجاهين ، ظهر الاتجاه الثالث المستند إلي " النزعة القومية التركية " قاده علماء اللغة التركية ، واتجه إلي " استكشاف ماضي الأتراك قبل عثمانيتهم " وارتكز هذا الاتجاه علي تأسيس " الجمعية التركية " في أواخر ١٩٠٨م ، التي أصدرت مجلة تعني باللغة التركية في المقام الأول ، وتدعم بنشاط كانت تقوم به حركة " تركيا الفتاة " في معقلها الرئيسي في سالونيك من خلال مجلة "الأقلام الشابة"، ويبرز اسم ضياء جوق آلب مندوب مدينة ديار بكر إلي لجنة الاتحاد والترقي في سالونيك عام ١٩٠٩ م الذي أصبح المنظر الرئيسي لها ، ومع ذلك فإن كتابته عكست مسعى للبحث عن هوية جديدة للأتراك ، تحمل قيماً جديدة ليست بالضرورة أوروبية المصدر .

في واقع الأمر لم يكن ممكناً " بعد التنظيمات " لمن تلقوا تعليماً دينياً صرفاً التمتع بالوظائف ، والمكانة والتأثير ذاته ، التي تمتعوا بها قبل ذلك وأفسح المجال شيئاً فشيئاً أمام جيل من المتدربين الجدد علي النمط العصري الغربي ، وتعذر علي عزل تأثير هذا التحديث الذي جري في مؤسسات وهياكل الدولة عن الامتداد إلي مؤسسة الدين العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر ، حيث كان إنشاء مدارس ومعاهد لتخريج الموظفين علي الأساس العصري الغربي وتأسيس مؤسسات تعمل بقواعد عصرية يعني في نهاية المطاف تحجيماً لدور طائفة " العلماء والمشايخ التقليديين " في أهم قطاعين تمتعت فيهما بالنفوذ ، وهما : التعليم والتشريع . بالفعل جري في عام ١٩١٦م في عهد السلطنة وإبان الحرب العالمية الأولي إخراج صاحب منصب " شيخ الإسلام " ، أعلي سلطة دينية في الدولة (إذا استثنينا الخليفة السلطان) الذي لازم السلاطين العثمانيين منذ إرساء دولتهم ، من عضوية مجلس الوزراء وعهد بالحقوق والمسئوليات التي كانت للمؤسسات الخيرية والمعاهد الدينية إلي مؤسسات أخري تابعة للدولة ، كما جري إدخال

---

(١) انظر " تاريخ الدولة العثمانية " ص ٢٦٢ من الترجمة العربية (مرجع سبق ذكره)

تعديلات علي قانون الأسرة لتكون أكثر " تقبلاً" من جانب الأوروبيين[1] .

قدم إعلان الشريف حسين لما سمي لاحقاً " الثورة العربية الكبرى " علي الحكم التركي في ١٩١٦ ، وتحالفه مع البريطانيين ضد الخلافة رصيداً إضافياً لأصحاب الفكرة القومية في إسطنبول .

وإذ تنتهي الحرب العالمية الأولي في ١٩١٨ م بهزيمة السلطنة وتقسيم ولاياتها العربية بين الحلفاء المنتصرين (بريطانيا وفرنسا) ، واستقطاع أراض أخري من الأناضول وبروز شخصية مصطفي كمال كقائد للمرحلة فعزز كل ذلك ترسيخ الفكرة القومية التركية وتهيئتها لتكون أساساً للدولة الجديدة .

---

(١) راجع علي الوردي . لمحات اجتماعية في تاريخ العراق : مج ٣

كمال أتاتورك من الإسلام إلي العلمانية

وما أن تولى كمال الدين أتاتورك الحكم في تركيا حتى كشف عن حقده الدفين ضد الإسلام فقام بإلغاء الخلافة الإسلامية وأعلن فصل الدين عن الدولة وإلغاء المحاكم الشرعية ووزارة الأوقاف وتم طرد الخليفة عبد المجيد الثاني آخر الخلفاء وعائلته من البلاد وأبطل وظيفة شيخ الإسلام وأمر بكتابة القرآن الكريم باللغة التركية الجديدة وجعل الآذان للصلاة باللغة التركية، ومن القوانين الوضعية حتى في الأحوال الشخصية بدلاً من التشريعات الإسلامية، وساوى بين الرجل والمرأة حتى في التجنيد والمواريث، وفرض منع الحجاب والنقاب وفرض لبس القبعة بدلا من الطربوش وحذف من الدستور كون الإسلام دين الدولة وتم تعديل المادة الثانية منه لتنص على أن "الدولة التركية هي جمهورية قومية مركزية علمانية ومتطورة".

ويشير الدستور التركي إلى أنه كحكم ثابت استحالة تطبيق القواعد الدينية ولو جزئيا في كيان الدولة السياسي والاقتصادي والاجتماعي والقانوني، كما لا يجوز إطلاقاً لأي كان أن يسئ استخدام المشاعر الدينية وقيمها المقدسة بغرض تحقيق مآرب سلطوية أو سياسية أو مصلحة شخصية.

ويشير قانون العقوبات التركية في مادته١٦٣ إلى أنه يعاقب كل من يؤسس أو يشكل أو ينظم أو يدير جمعية بهدف ديني أو عقائدي تخالف علمانية الدولة وتخل بنظامها الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي أو القانوني بالسجن من عامين إلى سبعة أعوام ويعاقب كل من ينضم أو يحرض الآخرين بالانضمام إليها بأقل من ستة أشهر. وكل شخص يقوم بدعاية بهدف زعزعة الأسس العلمانية بأي شكل من الأشكال أو استغلال الدين كآلة سياسية يعاقب بالحبس من عام إلى خمسة أعوام وكل من يقوم بنشر أو المساعدة في نشر ما يخل بالعلمانية يعاقب بالسجن من ستة أشهر إلى عامين.

ولم ينطوي تطبيق هذه الإجراءات الأتاتوركية على أي قدر من مرونة بل تم تطبيقها بوحشية بالغة وأبسط مثل نقدمه على ذلك ما حدث في معركة الطربوش والقبعة

إذ وعى الأتراك للمعنى الذي يقف وراء ارتداء القبعة واعتبروها رمزاً للكفر والتبعية الغربية وأفتى الكثير من علمائهم بكفر من يرتديها والذي حدث هو أن أتاتورك أمر بإعدام من أفتى بذلك من العلماء " وقال أحد العلماء وهو على المشنقة أموت دون أن البسها . ويروي أحد شهود العيان المسنين : كنت أمر من الميدان الذي كان يتدلى فيه المشنوقون، لم يكن هناك أحد باستثناء بعض الجندرمة وبدأت الريح تهب ولا أستطيع أن أنسى منظر اللحية البيضاء وهي ترف مع الريح "وأعدم أحد رجال الدين لأنه كتب رسالة في تحريم القبعة قبل صدور قانون ارتدائها بعام" [١].

" كما صار أي إجراء أو نقد شفوي للحكومة يعد خيانة عظمى تعاقب عليها محاكم الاستقلال بالموت "فوراً وألغيت حصانة النواب ضد الاعتقال، ودبر أتاتورك الكمائن لاصطياد خصومه فألقى القبض على زعماء المعارضة، وقدموا لمحاكم الاستقلال التي حكمت عليهم جميعاً بالشنق" [٢].

ووصلت صرامته في تطبيق هذه الأحكام إلى درجة استصدار أحكام بالإعدام لبعض زملائه السابقين من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي.

والخلاصة هي أن تركيا في العهد الأتاتوركي قد غدت كما وصفها شكيب أرسلان " دولة مضادة للدين كالحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء" [٣].

يقول د. ادريس بووانو في كتابة (الإسلاميون الجدد في تركيا) : "ومع هذا ظل الدين الإسلامي بشكل جزءاً من ذاكرة المجتمع العثماني ، ومرجعيته الأساس في مختلف مناحي وشئون حياته . كما ظل بشكل القوة الاجتماعية والسياسية حتى المراحل

---

(١) الدين والدولة في تركيا (مرجع سابق) : ص ١٣٤ .

(٢) محمود ثابت الشاذلي : المسألة الشرقية . دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية : مكتبة وهبة ، ١٩٨٩م . ص ٢٣ .

(٣) سفر الحوالي . العلمانية نشأتها وتطورها ، مكتب الطيب : ص ٥٧٣ .

الأخيرة من عمر الخلافة العثمانية . ويقدر قوته هذه وتجذره ورسوخه اشتدت ضراوة " الإصلاحات " الكمالية لتغييبه ومحوه وتثبيت مبادئ العلمانية مكانه . لقد كان الهدف الرئيس " للإصلاحات الكمالية " هو إبعاد الدين الإسلامي عن أن يقوم بأي دور ، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف قام زعماء الإصلاحات الكمالية بتدابير وإجراءات اتخذت أربعة مظاهر .

١- العلمنة الرمزية : وقد حملت بعداً هاماً في الإصلاحات الكمالية ، وبرزت في خطوتين :

- الخطوة الأولي : تمثلت في إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤م انطلاقاً من كون الخليفة كان يرمز لوحدة المسلمين وللشرعية ، كما كانت مؤسسة الخلافة تحمل دلالة وقيمة رمزيتين بالغتا التأثير علي المسلمين عامة .

- الخطوة الثانية : تمثلت في عملية الإصلاح اللغوي الذي بوشر من خلال خطوات وإجراءات منها : تحويل كتابة الحروف الهجائية من العربية إلي اللاتينية عام ١٩٢٨م وفي هذا الإطار بذلت جهود لاستبدال مفردات اللغة ذات الأصول العربية أو الفارسية، واستتبع هذه الخطوة ترجمة القرآن الكريم إلي اللغة التركية ، وحظر الأذان باللغة العربية ، واعتماد التقويم الكريكوري بدل التقويم العربي ، وتغيير العطلة الأسبوعية .

كما فرض ارتداء الأزياء الغربية والقبعة بدل الطربوش ، وبسبب القبعة هذه مورست نوف وألوان شتي من العذاب علي من يعارض لبسها من العلماء وزعماء الطرق الصوفية وغيرهم ويذكر أن عالماً تركياً كبيراً وهو عاطف أفندي، تم إعدامه من طرف سلطات الإصلاحات الكمالية بسبب كتابته لرسالة يحرم فيها لبس القبعة الغربية .

٢- العلمنة الدستورية : صمم هذا الشكل من العلمنة لإزالة القوة الدستورية للإسلام ، وإزاحته عن أن يقوم بأي دور فيما يخص الشئون الدستورية للمجتمع التركي ، فكان إلغاء السلطنة في سنة ١٩٢٢ م أولي الخطوات ، ونص دستور الإصلاحات الكمالية علي استمداد الشرعية الدستورية من مفهوم السيادة القومية وليس من الإرادة الإلهية ،

كما حذفت سنة ١٩٢٨م المادة الثالثة من دستور ١٩٢٤م والتي كانت تذكر بأن الإسلام دين الدولة . وكان الإبقاء علي هذه المادة بعد إلغاء السلطنة من أجل امتصاص الاحتجاج الذي كن من الممكن أن يحدث ولإضفاء الشرعية علي الدولة لحديثة التي كانت تسعي الإصلاحات الكمالية إلي تثبيت أركانها .

٢- العلمنة السياسية : بدت جلية وواضحة من خلال القضاء علي دور السلطان الديني في مجال القضاء والتعليم .

٣ – العلمنة القانونية : بدأت منذ فرض نظام التنظيمات ، وبالرغم من ذلك استمرت بعض النصوص القانونية المستمدة من الشريعة الإسلامية سارية المفعول إلي جانب تبني الحكومة للقانون المدني السويسري ، والقانون الجنائي الإيطالي ، والقانون التجاري الألماني مع تغييرات بسيطة وخفيفة ، أما المواد القانونية الإسلامية فحصل شبه إقبار لها في الميادين المذكورة "[١].

في الممارسة الفعلية للعلمانية ، أصبحت سطوة الدولة علي المجتمع تعني تحول المبدأ بمعناه القاضي بفصل الدين عن السلطة من عملية تستهدف تحرير المعتقدات الدينية من سيطرة الدولة إلي عملية تستهدف التحرر من هذه المعتقدات، وبدا أن خطوات الجمهورية الكمالية علي هذا الصعيد تنتهي بها إلي فرض دين جديد ، هو علمانيتها ، محل هذه المعتقدات . ومثلما للدين تفسيراته المأخوذة عن أصول وممارسات وتراث يقدمها الفقهاء الدارسين والعلماء لتيسير فهم أحكامه علي الناس ، سيكون للدين الجديد للدولة التركية أصوله وممارساته وتراثه ، ولكن ذلك سيقدم من نخبة الجمهورية ذات التعليم الغربي ، وسيتضمن ما تراه من شروحات للكمالية وأحكامها ومقاصدها وممارساتها .

---

(١) الإسلاميون الجدد في تركيا : أون نت.

الجمهورية التركية

بدأت الأمور تأخذ شكلها النهائي .... فإذا كان مصطفي كمال في بدايات حركته مضطراً إلي افتتاح جمعيته الوطنية بقراءة القرآن وبالدعاء يرفعه بعض المشايخ..وإذا احتاج عندما ألغي السلطنة وأقام الجمهورية في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣ م ، بأن تنص المادة الأولي من الإعلان بأن شكل الدولة جمهوري ودينها الإسلام ولغتها التركية ... إذا كان مضطراً لمثل هذه المواقف في البدايات ... فلم يعد يحتاج شيئاً من ذلك بعد أن تمكن من السيطرة علي الأمور . فبعد انتخابه رئيساً للجمهورية أعلن علي الملأ فقال : " ليكن معلوماً لكل العالم أن برنامجنا الأساسي في إدارة الدولة هو برنامج حزب الشعب الجمهوري ، وأن المبادئ التي احتواها هذا البرنامج لا يمكن مقارنتها بما ورد في الكتب التي يظن الناس أنها نزلت من السماء إننا قد أخذنا إلهاماتنا من الحياة مباشرة ، وليس من السماء ولا من عالم الغيب " .

بدأ مصطفي كمال وبشكل تدريجي بتطبيق برنامجه كما يلي :

في ٣ مارس (آذار) استصدر مصطفي كمال من جمعيته الوطنية عدة قرارات من أهمها:

١ – خلع الخليفة وإلغاء الخلافة .

٢ – حرمان الخليفة المخلوع وأفراد العائلة العثمانية ذكوراً وإناثاً وأصهارهم من الإقامة داخل الدولة .

٣ – إجبار العائلة العثمانية علي مغادرة البلاد خلال عشرة أيام .

وبإلغاء الخلافة انتهت آخر العقبات أمام مصطفي كمال لتحويل تركيا إلي دولة علمانية غربية

وخاطب مصطفي كمال النواب المنفعلين المشدوهين بسبب المرسوم قائلاً : بأي ثمن يجب صون الجمهورية المهددة وجعلها تقوم علي أسس علميـة متينـه . فالخليفـة ومخلفات آل عثمان يجب أن يذهبوا ، والمحاكم الدينية العتيقة وقوانينها يجب أن تستبدل بها محاكم وقوانين عصرية ، ومدارس رجال الدين يجب أن تخلـي مكانهـا لمـدارس حكومية غير دينية ...

وعندما ثار أعضاء مجلس العموم البريطاني علي وزير خارجيتهم ، واتهمـوه بالاعتراف بتركيا كدولة مستقلة ... قال لهم الوزير : إن تركيا قد قضي عليها ، ولن تقوم لها قائمة ، لأننا قضينا علي القوة المعنوية فيها : الخلافة والإسلام[١] .

نهاية مصطفي كمال :

عاش مصطفي كمال حياة متوترة ، خرج فيها علي كل مألوف ... انقلب علـي كل المفاهيم ... فهو في بيته ومع أمه وأخته مشاكس حاقد ، وهو مع أساتذته في خصام دائم أدي في بعض الأحيان إلي طرده ... وهو مع الدين الذي كان سمة العصر ملحـد مجاهر ... أما الأخلاق فلم يكن قاموسه يضم من معالمها شيئاً ... بل كان يعتبر ذلـك من مظاهر الخنوع والضعف .

وما أن فرغ مصطفي كمال من انقلاباته حتى علي رفاقه الذين كانوا إلي جانبه في كل خطواته .... فعلق مشانقهم في أزمير وأنقرة ، وأعلن يومها أنه هو تركيـا .... وتركيا هو ، وأعلن عن تشكيل محاكم الشعب تطوف البلاد لتقطف الرؤوس التي تبـدي معارضة لأتاتورك [٢] .

بقي أن نقول أن مصطفي كمال الذي فرض علي شعبه أن يسميه أتـاتورك (أي أب الأتراك) لم يكن متديناً قط وقد عاش أياماً طويلة في حياته في ملاهـي اسـتانبول

---

(١) مصطفي الطحان ، مرجع سابق : ص ١٧٣ .

(٢) الحركة الإسلامية في تركيا – د . إبراهيم الدسوقي شتا، ص – ٢٧

وحاناتها وأنديتها الليلية يشرب ويقامر ! ولقد قــال عنــه (ارمــسترونغ) الجاســوس البريطاني الذي كتب عنه وأشهره في كتابه (الذئب الأغبر): "لم يكن يعني مــصطفي كمال أن يتأنق في اختيار النساء ، فحسبه نظرة أو ضحكة من امرأة ليلتهب دمه وينطلق وراءها فلا يرجع إلا وقد نال منها ما أراد ...وكلهــن عنده نساء لا فرق بين هذه وتلك علي أنه لم يقع في هوي واحده من هؤلاء أو أولئك فهو لم يكن عاطفياً قــط ... حتــي زواجه من تلك الفتاة الأزميرية (لطيفة هانم) فقد كان نزوة عــابرة فرضــتها عليــه شخصية لطيفة هانم التي قالت له بكل صراحة لن أكون لك خليلة".

وفي أشد الساعات حرجاً ... وعندما كان مصطفي كمال منهمكاً فــي أعمالــه، كانت بنات الهوى اللواتي يحضرهن لا يفارقن منزله ... وقد عرف عنه ذلك وشاع مما أسقطه أخلاقياً من نظر شعب مسلم متدين .

وهكذا عاش مصطفي كمال مغامراً مستهتراً بكل القيم ، عاش وحيــداً لا يثــق بأحد[١] ... ومات وحيداً في استانبول يوم ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٨ م، فقــد لفظ أنفاسه في قصر (الدونما بهجة) ، بعد أن تعفنت جثته قبل موته ، وفسر الأطبــاء هذه الظاهرة بسبب تعاطيه الكحول بكميات كبيرة [٢].

---

(١) نشرت جريدة الصنداي تايمز وثيقة كانت الحكومة البريطانية قد ســمحت بنــشرها ... تقــول أن مصطفي كمال أتاتورك عرض علي السفير البريطاني تولي رئاسة الجمهورية التركية من بعده .
(الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة الإسلامية – د . مصطفي حلمي ، ص ٤٦)

(٢) راجع مصطفي الطحان ، مرجع سابق : ص ١٨٣ : ١٨٤ .

الأتاتوركية والعلمانية والدين

في عهد الجمهورية ، ليس الإسلام بالنسبة للدولة سوي دين الغالبية العظمي لسكانها لا أكثر ولا أقل، جري وضعه ي حدود اختصاص دائرة حكومية ، تعمل تحت إشراف الدولة باسم " هيئة لشئون الدينية " ، في لم يتمتع رئيسها أبداً بالسلطات والصلاحيات التي كانت لشيخ الإسلام في عهد الدولة العثمانية ، وإنما تحددت مهامها حسب مرسوم إنشائها بمتابعة الأمور الدينية في الجمهورية ، ولا لقاء للدين مع الدولة التي لا يصح إلا أن تكون بلا ديانة ولجميع المواطنين . كذلك لن تعني ديانة غالبية الأتراك بالإسلام أكثر من احتفاظهم كأفراد بمفاهيم روحية معنية موروثة لظروف تاريخيه ما ، وسيحظر عليهم من الآن فصاعداً التقدم بأي شكل للتعبير الجمعي عن هذه المفاهيم .

وبصرف النظر عما لقيه إعلان الدولة لتعاليمها من ترحيب أو رفض من جانب السكان ، فأن النخبة الكمالية رأت المضي في تنفيذ بنود إعلانها بنفسها ضماناً لحسن سلوك المواطنين وتهذيباً لأداء الجميع لشعائره ، واعتبرت أنها بذلك تقدم خدمة جليلة للمجتمع بإرشاده للحدود التي تقبل بها الدين .

وإذ يجري تدريس الدين ، كمادة إجبارية في مدارس الدولة العلمانية اعتباراً من المرحلة الثانوية ، فإن نظرة علي مضمون المناهج توضح تناوله من زاوية الدولة وفلسفتها ، حيث يدرس في سنوات هذه المرحلة تباعاً أساس فكرة الأديان ، ثم البعد الأخلاقي للأديان ، فالبعد الفلسفي للأديان ، مع المرور علي العقائد والعبادات " كلما اقتضي الأمر " ، ولا يسمح بتدريس الدين في المرحلتين الابتدائية والإعدادية التي يتلقي فيها التلاميذ " تعليماً علمانياً موحداً " حسب القانون. ولكن يتاح التعمق فيه ، ومن منظور محدد لأولئك ، الذين يقررون دخول المدارس الثانوية الدينية، التي يتلقون بها دروساً في اللغة العربية أولاً ثم في علوم الدين .

وحتى مع ذلك " التسامح " من الدولة ، فإن بدائل التعليم الجامعي أمام خريجي هذه المدارس تقتصر علي بديل واحد فقط هو كليات العلوم الدينية المنشأة حسب القانون لتخريج " متخصصين لإلقاء الوعظ في المساجد " . وحيث المساجد تابعة للدولة شكلاً ومضموناً ، فأن هؤلاء المتخصصين يصبحون معلمين لتعاليم الدولة ورؤيتها للدين .

لقد اعتبر الأتاتوركيون أن كبح جماح المشاعر الدينية للأتراك كفيل بتحقيق نفس النتائج التقدمية التي حققها النموذج الغربي ، فجري باسم ذلك نصب المشانق لكل من اعتبر " إصلاحات الجمهورية " مخالفة للدين .

من الناحية الفعلية كانت صعوبة المهمة تكمن في أن ما طرحه مؤسس الجمهورية هو استبدال للهواية الجديدة بالهوية التقليدية للأتراك ، وتقديم عناوين وشعارات لأناس ، نظروا لأنفسهم علي مدي قرون طويلة كرعايا للسلطان خليفة المسلمين في إسطنبول ، وأبداً لم يدركوا ذواتهم وفقاً لمعاني المواطنة في دولة تنشأ علي الأساس القومي [1].

لم تنشأ الكمالية كنظرية متكاملة جري إطلاقها في المجتمع ، بقدر ما كانت عملية تفاعل مجموعة من الأفكار والتفضيلات المرتبطة بالانحياز الفكري العام لدي أتاتورك نحو القيم الغربية مع التطوير المستمر لها طيلة حياة الرجل علي رأس الجمهورية حتى وفاته عام ١٩٣٨ م . خلال حرب التحرير ، تم تعبئة السكان بمقولات " الحرية " و " الوطن التركي " و " الإرادة " و " سيادة الشعب " ، وبعد انتهائها تم التركيز علي مقولات " التغيير الجذري " و " عهد الجمهورية " و " العلمانية " . وارتكزت الكمالية دائماً علي محورية الدولة وتعزيز قوتها دائماً وسمو مكانتها فوق الجميع، وعلي أولوية مصالحها وقدسيتها ، سعت ونجحت إلي حد كبير في توظيف مبادئها الستة فيما بين بعضها البعض .

وعمل الرجل علي أن يرسخ في أذهان شعبه أن كل شئ يدين بالوجود له ، الجمهورية وبطولاتها ومؤسساتها فجري تشييد تماثيل للرجل بمختلف الأشكال والأحجام

---

(١) راجع ياسر أحمد حسن . تركيا البحث عن مستقبل : ص ٤٤ – ٦٣ .

تعكس مختلف الأدوار والمواقف ، ولا تكاد مدينة أو ميدان في مدينة أو قرية تخلو من هذه التماثيل . في المدارس يبدأ الصباح كل يوم بهتاف التلاميذ أمام تمثال نصفي ، أو بالحجم الكبير ، لمؤسس الجمهورية لتحية ذكراه ولقسم الولاء والعهد بالمحافظة علي مبادئه وتمت حماية ذلك بالقانون الذي يعاقب بالسجن كل من يوجه أهانه لاتاتورك أو يهدم أو يخرب تمثالاً له . بعد وفاته وقعت حوادث متكررة لتحطيم تماثيله ، ولكن رد الدولة عليها كان حاسماً في إيقافها ، وإلي يومنا هذا يبقي هناك من يحفظ سيرة الرجل ويمنع المساس بها أياً كانت الظروف . في ٢٠٠٤ ثارت دعاوي العقاب ضد أحد نواب البرلمان ، عندما قال إنه ينزعج في كل مرة يدخل فيها البرلمان ويشعر بأنه في جبهة قتال لأنه يواجه في بهوه بصورة كبيرة لاتاتورك بالزي العسكري ، وعلي الفور جاء الرد من الجيش التركي الذي اصدر بياناً يحقر فيه ما قاله النائب ويذكره ، وجميع النواب وتركيا كلها ، بأن الفضل في وجود البرلمان ذاته يرجع إلي مصطفي كمال .

جري تقديم كل شئ باسم الكمالية : الثروة والمكانة ، الفكر والعقيدة ، سلطة الدنيا والدين . ظل الأتراك لوقت طويل يستقون مكانتهم المجتمعية بقدر انتساب كل منهم للدولة صاحبة الكمالية وحاميتها ، ولم يكن من المعروف حتى عقد الثمانينات أن الفرد يمكن ، بحد ذاته ، أن يكتسب مكانة متميزة في المجتمع بعيداً عن الدولة . ظلت الدولة أكبر مشتر للإنتاج الزراعي ، وهي مالكة المصانع وصاحبة الإنتاج ، وهي التي تصوغ كتب التعليم ، وتقدم الثقافة والفن ، وهي التي تحدد للناس مضامين البرامج الترفيهية التي يستحقونها ... إنها المانحة لكل شئ التي فرضت علي الجميع منطق الأب صاحب السلطة المطلقة والصلاحية المطلقة ، تتحمل كل المسئوليات وتتوافر لديها كافة الحلول لكل المشكلات التي تواجه أي مواطن ، وإليها يرجع الفضل في كل فضيلة ولا يصح أن تنسب إليها أية رذيلة .

بهذه المعاني والممارسات ، أضحت الجمهورية بمرور الوقت جامعة مانعة: هي للأتراك وليس لغير الأتراك ، هي للعلمانيين التقدميين منهم المؤمنين بالتغير الجذري المتواصل وليس لـ " الرجعيين " ، هي للمسلمين ومعهم الأقليات التي حددتها اتفاقيه

لوزان. دون غيرهم من الأقليات الأخرى ، وهي للمسلمين من أتباع المـذهب الحنفـي وليس لغيرهم .... إلخ .

ليس في تركيا بحكم العقيدة الكمالية سوي أمة واحدة ووطن واحد وشعب واحد سري ذلك المفهوم في جميع المواثيق الدستورية والقانونية ، وعاقب القانون كل من خالف ذلك أو كل من رأي غيره . في مناهج الدراسة وفي الممارسات اليومية في المـدارس ، يقف التلاميذ لتحية العلم التركي ومؤسس الجمهورية وليرددوا مقولته " سعيد أنـت أيهـا التركي أن تكون تركياً " ، " ليس هناك من صديق للتركي غير التركي". ويعـد تـاريخ الثورة الكمالية مادة إجبارية في [1].

(١) راجع المرجع السابق ، ص ٦٠ – ٦٥ .

مرحلة التعددية

أعلنت الدولة عبر كثير من الإجراءات والقوانين هوية جديدة لمجتمع وأقرتها ضمن فلسفة الحزب ، الذي أسسه مصطفي كمال أتاتورك باسم حزب الشعب الجمهوري، وأبدت إصراراً علي حمايتها ورعايتها فأنزلت غضبها علي كل من عارضها ، فكان أن منحت المجتمع بسلوكها هذا قاموساً جديداً تضمن تعاليمها ، وعوقب كل من قرأ غيره أو رفض الالتزام بما ورد فيه .

كان من الأمور العادية أن يري المواطنون المشانق تنصب – في أول عهد الجمهورية – لمحاسبة أولئك المتهمين بخيانتها وخيانة مبادئها . ولا يزال يتذكر الأتراك إلي اليوم كيف اعتمد عصمت اينونو ، رفيق حرب الاستقلال ورئيس الوزراء في عهد الجمهورية الذي أدار شئون البلاد وحده في السنوات الأخيرة من حياة أتاتورك ، علي شبكة من العملاء السريين انتشرت في كافة أنحاء البلاد.

ومن ثم فقد أصبحت ممارسة الدين والإعلان عن الانتماء للقيم الدينية المحافظة أو حتى ترديد ذلك علناً غير ممكنة في الجمهورية ، ولو في حدودها البسيطة ، وانطوي السكان خوفاً من الدولة علي معتقداتهم ، وتعين لإخراجها للعلن الانتظار حتى مات كمال أتاتورك في نوفمبر ١٩٣٨م ، بل ولما بعد ذلك التاريخ.

بعده تولي عصمت إينونو رئاسة الجمهورية ، الذي رأي بعد انقضاء سنوات الحرب العالمية الثانية أن بإمكان البلاد قطع خطوة إضافية نحو الغرب ، فأعلن في ١٩٤٥ تطبيق نظام التعددية الحزبية بعد مرحلة حكم الحزب الواحد ، حزب أتاتورك، حزب الشعب الجمهوري ، التي دامت لعشرين عاماً .

بعد إعلان التعددية في النظام السياسي التركي فاز الحزب الديمقراطي بأغلبية مقاعد البرلمان بنسبة بلغت ٥٣،٥% وسريعاً ما طالب الحزب بعد توليه الحكم بإلغاء المبادئ الكمالية الستة وقدم الحزب الديمقراطي رؤية جديدة للإسلام تراه عقيدة وديناً

للأتراك مثله في ذلك مثل المسيحية للمجتمعات الغربية وعبرت عن ذلك صحيفة الحزب (زافار) بقولها: " إن الحزب الديمقراطي قد وضع المبادئ النقية للإسلام أمامه فهو المرشد والمساعد للعلم والتقدم والفضيلة والأخلاق الحسنة" [1] بل أن رئيس الوزراء عدنان مندريس قال: "تعلن بأن تركيا مسلمة وستبقى مسلمة ويجب عدم إبقاء الطفل بعيداً عن تعاليم الدين الذي يعد حقاً من حقوقه الطبيعية وكذلك الشروح الإسلامية"[2].

وبوجه عام فقد شهد العقد الذي حكم خلاله الحزب الديمقراطي(١٩٥٠-١٩٦٠) " توسيع وتعضيد دور الإسلام في الحياة السياسية فقد ألغت حكومة الحزب عام ١٩٥٠ القانون الذي ينص على أن يرفع الأذان باللغة التركية فأصبح الأذان باللغة العربية، كما أصبح القرآن الكريم يتلى في محطات الإذاعة الرسمية وأدخلت الدراسات الدينية ومنحت الصفة القانونية لمدارس "إمام وخطيب" التي تتيح للطالب تعليماً دينياً "[3] وأشار مندريس في حملته الانتخابية عام ١٩٥٧ إلى "أن تركيا في السبع سنوات المنقضية بها ١٥ ألف مسجد "

لقد شكل وصول الحزب الديمقراطي إلي السلطة منعطفاً مهماً في تاريخ العلاقات بين الدين والدولة في تركيا . وعقد زعماء البلاد الجدد العزم ، علي اتخاذ كل التدابير لإعادة الحرية الدينية للمواطنين وبأسرع وقت ممكن . وقد رأوا أن هذا الأمر ملح لكونهم اعتبروا الإسلام وسيلة للنضال ضد التيارات اليسارية وعلي الأخص الشيوعية منها.

لقد ظفر الحزب الديمقراطي بهذه الأغلبية بالرغم من أنه التزم بمبادئ أتاتورك ، فهو جمهوري وعلماني ولا ديني ... فقد كان يكفيه في نظر المسلمين أنه الحزب الذي أسقط حزب الشعب الذي اسقط الخلافة وحارب الإسلام بكل عنف.

---

(١) الدين والدولة في تركيا : مرجع سابق ص ١٥٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٥٠ .

(٣) د . راغب السرجاني . قصه أردوغان : دار أقلام للنشر والتوزيع والترجمة ،ط١١: ٢٠١١ . ص ٣٣

" وفي ١٩ يوليو ١٩٤٦م قام كل من نجمي كوناش ومصطفي أوزبك بتشكيل حزب حماية الإسلام ، فألغته الحكومة بحجة أن الحزب قد اتخذ من الدين أداة سياسية.

وفي ٨ يوليو ١٩٤٧م قام جواد رفعت أتيلخان مع بعض زملائه بتأسيس حزب المحافظين ، وذكر في لائحته أنه يعتمد الأسس الإسلامية ، فألغي لنفس السبب، وقام فوزي جاقماق بإنشاء حزب الأمة اليميني بروح إسلامية في ٣٠ يوليو ١٩٤٨م فحلته الحكومة لنفس السبب " (١) .

القرار الأول الذي اتخذته الحكومة الجديدة في حزيران (يونيو) ١٩٥٠م، قضي بإبطال القانون الذي يحرم الأذان باللغة العربية . وبعد فترة وجيزة سمح لمحطات البث الإذاعي التابعة للدولة بتقديم برامج دينية ، ولأول مرة سمح بتلاوة القرآن من الراديو . ويوم انزاح الكابوس وسمح للأتراك بالأذان باللغة العربية ، يومها سجد الأتراك جميعاً في الشوارع سجدة شكر ، ولم يحبوا أن يرفعوا الرؤوس الشامخة حتى ينتهي المؤذن من كل كلمات الأذان .

بالمقابل ، أهتم الديمقراطيون ، وبما ينسجم مع برنامجهم السياسي الانتخابي ، بتصحيح البرامج المدرسية ، فأعيد في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٥٠م تعليم الدين الإسلامي إلي المدارس الابتدائية ، بشكل شبه إلزامي ، ثم بعد ذلك ، أعيد إدراج التعليم الديني في المرحلة المتوسطة عام ١٩٥٤م وأخيراً في المرحلة الثانوية وفي خطاب له بمدينة قونية عام ١٩٥٤ م قال مندريس : (نعلن أن تركيا مسلمة وستبقي مسلمة ، ويجب عدم إبقاء الطفل بعيداً عن تعلم الدين) .

وراحت تتكاثر مراكز التعليم الديني ، وجمعيات بناء المساجد بحيث أصبح في تركيا عام ١٩٥٣م خمسه عشر مدرسة من مدارس الأئمة والخطباء ، ونحو ٥٠٠ مدرسة قرآنية معترف بها رسمياً ، ولن تتوقف هذه المراكز عن التزايد خلال ما سيتلو من سنوات .

---

(١) مصطفي الطحان . مرجع سابق : ص ١٩٠ – ١٩١

أما بالنسبة لجمعيات بناء المساجد ، فلقد ازداد عددها من ١٤٢ في العام ١٩٥٠ إلي ٤٨٢١ في العام ١٩٦١م .

لقد وجد الديمقراطيون أنفسهم ، في وضع لا يحسدون عليه ، إزاء عودة النشاط الديني " فهم مدينون بنجاحهم الانتخابي عام ١٩٥٠م ، إلي سمعتهم كمدافعين عن الإسلام، وكانوا متشبثين بالاحتفاظ بصورتهم المميزة هذه .... لكنهم لم يرغبوا من جهة مقابلة أن يلعبوا لعبة الارتداد إلي عهود التعليم الديني . لقد كانوا حريصين علي الاحتفاظ بتـراث الثورة الكمالية وقضية فصل الدين عن الدولة ... ولهذا تصدوا لكل التحركات الإسلامية.

ففي عام ١٩٥٠م اعتقلوا أعداداً كبيرة من التيجانيين وقدموهم للمحاكمة وحكـم علي شيخ الطريقة كمال بلاو أوغنو لمدة عشر سنوات.

وفي فبراير عام ١٩٥٤م ألقت القبض علي (١٧) من شيوخ الناقشبندية في ماردين .

كما قامت بمحاكمة شيخ الطريقة المولوية في يونيو ١٩٥٠م .

كما قبضت علي جماعة من الطريق البكتاشية .

كما حوكم الشاعر نجيب فاضل الذي كان مديراً لتحرير مجلة بويوك دوغو أي الشرق الكبير . واتخذت خلال السنوات التي تلت ذلك قرارات عدة ، لكبح جماح التيار الديني إذ سن الديمقراطيون عام ١٩٥٣ م القانون المتعلق بضمان حرية المعتقد والـذي هدف بشكل واضح إلي النيل من الحركات الإسلامية" (١).

لكن هؤلاء الديمقراطيين سيضطرون حوالي نهاية أعوام الخمسينيات ، إلي تبديل موقفهم من المسألة الدينية . واعتقد الديمقراطيون أن بوسعهم إيقاف تنـامي إعـراض الرأي العام عن حزبهم عن طريق التملق للمشاعر الإسلامية عند السكان وعن طريـق إطلاق العنان للحرية الدينية .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٩٣ .

لقد بذل الديمقراطيون ما بوسعهم ليقدموا أنفسهم كمدافعين عن حرية المعتقد ، كما شددوا علي أهمية المكانة التي يحتلها الإسلام في الحياة الروحية والأخلاقية للأمة ، الأمر الذي دفع خصومهم السياسيين إلي اعتبار العلمانية للكمالية في خطر .

رئيس الوزراء السابق الذي قال : إن الخطر الذي تخشاه تركيا ليس الخطر القادم من الغرب ، وليس الخطر الأحمر القادم من الشرق ، بل الخطر الأخضر القادم من بلاد المسلمين ! وماذا عساه يقول غير ذلك .... وهو رفيق درب كبيرهم الذي علمهم السحر !! . وكانت قاصمة الظهر... عندما خاطب مندريس رجال البرلمان ... قال لهم : بأنهم أصحاب القرار في الدولة ... بإمكانهم إذا أرادوا عودة الخلافة !! بدأ اليساريون في الجامعات يسخنون الأجواء ... ويهيئون الظروف لتغير النظام ..... وماذا عساهم يقولون ؟ !

وهذا هو الذي يحدث في كل مكان ، ما إن يبدو في الأفق ملمح للحديث عن الإسلام حتى يبرز قادة العلمانيين وإعلاميوهم ككلاب مسعورة تبادر علي الفور بمهاجمة من يسمح بالحديث عنه ونهش لحمه والمثل أمام أعيننا هنا في مصر خصوصاً بعد الثورة حيث تحولت أجهزة الإعلام إلي سعار محموم لمهاجمة الإسلام وأهله واختراع الأكاذيب وتلفيق التهم وترويج التشنيعات وإطلاق الأراجيف والشكوك لنا وترديد ذلك ليل نهار علي أسماع وأبصار شعب مسكين تركته مزقته التجربة المباركة تماماً وتركت وعيه العام ضعيفاً هشاً مسطحاً تلعب به الأهواء كيفما شاءت .

حشد حزب الشعب كل قوته ودخل الطلاب الشيوعيون الحلبة، فتحولت الجامعات في إستانبول وأنقرة وأزمير إلي ساحة معارك ... وبدأ أنينو يعلن عن عزمه علي القيام بجولة في أنحاء تركيا لكي يمهد (لحرب استقلال) جديدة توقف إسراع تركيا نحو الرجعية .

وفي ٢٧ أبريل ١٩٦٠م وقع انقلاب عسكري بقيادة الجنرال جمال غورسيل وأعلن العسكريون أنهم تدخلوا لفساد الطبقة الحاكمة في الحزب الديمقراطي التي تجاهلت الجيش .

تعطلت الدراسة وأغلقت الجامعات ... وبدأ معظم الطلبة الغرباء يسافرون إلي بلادهم . كنت مع بعض إخواننا الطلبة في قطار الشرق السريع عائدين إلي بلادنا . وقدم عدنان مندريس مع قله من وزرائه إلي المحاكمة .

" في الجلسة الأولي أخرج رئيس المحكمة مظروفاً ... فتحه وأخرج منه لباساً داخلياً نسائياً.. وأعلن أن هذا المظروف وجدناه في أحد أدراج طاولة رئيس الوزراء !!! أرادوا أن يهزوا صورته عند المتدينين الذين يحبونه ... !! هذه هي محاكم للتفتيش يدعي قضائها العصمة وهم غارقون إلي الأذقان في الفساد والرذيلة !.

وتم إعدام عدنان مندريس ووزير ماليته (حسن بولاد قان) ووزير خارجيته) (فتح رشدي زورلو) ، كما حكم علي بايار بالإعدام ثم خفف الحكم إلي المؤبد ثم أطلق سراحه ، وتم تسريح خمسه آلاف ضابط من رتبه جنرال حتى رتبة مقدم تحت شعار تنقية الجيش من الأصوليين " [١].

اتهم مندريس بالخيانة العظمي لمبادئ أتاتورك .. وركزت المحاكمة علي علاقته بجماعة النور ونشرت الصحف رسائل متبادلة بينه وبين الشيخ سعيد النورسي زعيم حركة النور الإسلامية الذي يفرض علينا أن نعرض لأفكاره لدوره البارز في الحياة الفكرية والسياسية في تركيا .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٩٩ .

مفكرون مستقلون

هناك عدة مفكرين مستقلين كان لهم تأثيرهم الخاص علي الحركة الإسلامية يمكن تلخيص وقفهم في التالي :

نجب فاضل:

مفكر إسلامي ثوري يري أن التاريخ الحقيقي للأتراك يمتد في جذور الحضارة الإسلامية لأكثر من ألف عام وأن طريق النهضة لا يكون في التلقي عن الحضارة الغربية وإنما بالاقتياد بالمفاهيم والقيم الإسلامية وهو يمثل التيار الثوري في تركيا ويري تلاميذه أن أسلمة السلطة من أهم الواجبات الدينية حتى أن بعضهم يتجه نحو العنف لبلوغ هذا الهدف .

سزائي قراقوج :

هو مفكر يسعي إلي إحياء علوم المدنية الإسلامية والتركيز علي المرتكز الحضاري للإسلام وقيام الدولة الإسلامية العالمية والتي تستطيع صون المسلمين ومن يدخل بينهم ومن ثم فهو يري أن الحدود القائمة بين الدول الإسلامية هي حدود مصطنعة يجب إزالتها لأن كل هذه الدول ملك لكل المسلمين وأن الوحدة الإسلامية هي السبيل الوحيد لدفاع المسلمين عن أنفسهم .

عصمت أوزال

يرى أوزال أن الخلافة تمثل التجسيد الحقيقي للأمة وللشريعة وأنا لمسلم لا يستطيع أن يحقق وجوده كمسلم فظل النظم العلمانية ويرى أن المشاركة في هذه النظم يمثل تلبية لحاجة هذه النظم إلى الاستمرار بما في ذلك حكومة أردوغان نفسها فإنها قد أدت الدور نفسه وهو يرفض الحوار مع العلمانيين ويرى أهم يمثلون الطبقة الحاكمة المستبدة التي اضطهدت المسلمين لعشرات السنين ويذهب إلى أن المسلم الحقيقي هو المسلم الذي يعيش في حالة اغتراب وهو يعني بذلك إحياء المسلم لعقيدته والتأكيد علي ممارسته لشعائر الإسلام والعمل بشرائعه وأنه ليس هناك سبيل لمواجهة الطبقة العلمانية الحاكمة سوي المقاومة وهو بذلك يشبه سيد قطب عندنا .

سعيد الزمان النورسي

الأفكار الأساسية للتيار النورسي

ولد سعيد الزمان النورسي عام ١٨٧٦ في قرية نورس بولاية تبليس في شرقي أناضول من أبوين كرديين . أتجه إلي طلب العلم ولم يتم له ثمانية عشر عاماً من العمـل حتـى أصبح في عداد العلماء .

هاجم استبداد السلاطين وقال ذلك في مواجهة السلطان عبد الحميد ولكنه أثنـي عليه بعد الإطاحة به وقال إنه ولي من أولياء الله وشارك في حرب التحرير . وحـاول مصطفي أتاتورك التقرب منه ولكنه رفض ذلك بشدة ووجه نقداً شـديداً لـه وللنظـام الأتاتوركي من بعده حتى تعرض للحكم عليه بالإعدام وتم نفيه أكثر من مرة.

وكانت له مساهماته الفكرية والإصلاحية في كل هذه المراحل ولكـن تحـولات الدولة التركية الصادمة له أدت به إلي الاقتصار فقط علي العمل الدعوي الذي ينقذ إيمان الناس ومن هنا كان عكوفه علي " رسائل النور" هي عبارة عن أربع مجموعات رئيسية عمدتها هي المجموعة الأولي المعروفة باسم : الكلمات ومنها تنبثق المجموعـة الثانيـة والموسومة بالمكتوبات ومنها تنبثق المجموعة الثالثة المسماة باللمعات، ثـم المجموعـة الرابعة الشعاعات وهي متفرعة عن سابقتها ، وألحق بهذه المجموعة ثلاثة ملاحق هـي ملحق " بارلا " ، وملحق " قسطموني " وهي رسائل توجيهية إلي طلبة النور في أساليب خدمة القرآن وفقه الدعوة والقضايا العملية التي تواجههم .

وألف النورسي ايضا بالإضافة إلي هذه المجموعات الأربع الرئيـسية رسـائل أخري مستقلة منها " المدخل إلي النور " و " مفتاح لعالم النور " وهي آخر رسالة كتبت، والمحاكمات وترجمة حياة وسنوحات ومناظرات وديوان حربي عرفي . ومن ثم فرسائل النور هي عمل موسوعي كبير بلغ حوالي ثمانية مجلدات كبار تضمنت آلاف الصفحات وعالجت قضايا متعددة علي فترات زمنية طويلة " [١].

---

(١) د. كمال حبيب . الدين والدولة في تركيا : ص ٦١ – ٦٢ .

وعاش سعيد النورسي حياته كلها مبتعداً عن الصدقات والزكوات والهدايا من أي مصدر كانت . وكان تعليله للأمر : أن من أهم التهم التي توجه في هذا العصر لأهل العلم ودعاة الإسلام جمع المال من الناس وإنني مدعو – بما أقامتني الأقدار فيه في هذه الوظيفة – إلي محاربة هذه التهم بالتزام رفض أي مال يأتيني من أي إنسان .

وكان سعيد النورسي يلح علي طلابه أن لا يربطوا حركة النور ورسائله باسمه قائلاً : إن هذا ظلم كبير للحقيقة ، إن الحقيقة الخالدة لا يمكن لها أن تتأسس علي كاهل شخص . يجب أن تعلموا أنني مجرد دلال أنادي علي بضاعة القرآن ومعجزاته الموجودة بين يدي الإنسان في كل عصر .

ورسائل الإمام النورسي تؤكد انبثاقها من القرآن الكريم ، وأتباعها السنة المطهرة ، وهي ليست منهجاً قائماً بنفسه ، بل هي رسائل في الدعوة والإيمان تدعو إلي العودة للإسلام ، وتحارب البدع والخرافات التي زحفت علي حياة المسلمين ، يقول مصطفي سنقر : لسنا أصحاب طرق ، والقرآن سبيلنا.

لم يتخل سعيد النورسي طول حياته عن المبادئ الإسلامية ولم يساوم عليها وتكشف دراسة كتبه ورسائله دراسة عميقة عن حقيقة أن هدفه الوحيد في الحياة هو إعادة المسلمين إلي الإسلام وفق تعاليم القرآن والسنة .

وقد أكد سعيد النورسي في تعاليمه علي ضرورة الإيمان الصحيح بالله والقرآن والسنة ، وكان يحث الناس علي أن يعملوا عقولهم لتحقيق معني الإسلام كما هو مبين في القرآن الكريم والسنة النبوية . ولقد طلب ممن يستمعون إليه ألا يأخذوا كلامه قضية مسلمة وطلب إليهم أن يدققوا النظر في تفاسيره وأن يوضحوا أخطاءه . ومما كان يهدف إليه عاجلاً تنوير الجيل الجديد وتزكية فهمهم للإيمان والعمل الصالح مع الإخلاص ، وها هو يقول : " إن الإيمان يرفع قدر البشرية ومكانتها . وفي الواقع فإن الإيمان يجعل الرجل قوياً فالمرء الذي يعرف طعم الإيمان بحق يستطيع أن يتحدي

العالم بأسره [1] ".

وكثيراً ما وصفت جماعة النور بأنها طريقة صوفية ... وهذا مخالف للحقيقة يقول الأستاذ النورسي :" يجب علي الفرد ألا يكون له ولاء خاص بالطرق ، إذ كانت هذه الطرق جميعها ترتبط بالإسلام .

إن الزمن ليس زمن طريقة بل زمن إنقاذ إيمان، فالإنسان يدخل الجنة بدون طريقة ولكنه لا يدخل الجنة بدون إيمان " [2].

كان النورسي يهدف إلي تكوين اتجاه إسلامي عام يكون أداة ضغط علي الدولة لئلا تنحرف عن أسس الإسلام .

وبالإمكان إيجاز الأفكار الأساسية عند سعيد النورسي فيما يلي :

١ – القرآن هو المصدر المعرفي الوحيد الذي يمكن الاستناد إليه في استخلاص الأفكار والمعارف التي يتحقق بها صلاح الفرد والجماعة هو يقول " لأبرهنن للعالم أن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها " .

٢ – عدم التخلي عن الواقعية والمرحلية .

٣ – اللجوء للحوار مع المخالفين .

٤ – الإيمان والعلم قرينان ولا يعارض أحدهما الآخر ، ولا يوجد أي تناقض بين مسائل العلم الحديث والمعني الظاهري لحقائق الإسلام وفي هذا يقول " إن المستقبل الذي لا حكم فيه إلا للعقل والعلم سوف يسوده حكم القرآن الذي تستند أحكامه إلي المنطق والعقل والبرهان".

---

(١) راجع مصطفي محمد الطحان . تركيا التي عرفت : ٢٤٣ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٥ - الحرية الحقيقية هي التي تنبع من الإيمان وتعني عدم فرض السيطرة علي الآخرين من ناحية والالتزام بقواعد الإسلام من ناحية أخري ، فالحرية والإيمان مرتبطان . وفي هذا يقول :" الحرية المطلقة ما هي إلا الوحشية المطلقة بل بهيمية وتحديد الحرية ضرورة من وجهة النظر الإنسانية " " الحرية الخارجة عن دائرة الشرع إنما هي استبداد أو أسر بيد النفس الأمارة بالسوء أو بهيمية أو وحشية ، فليعلم جيداً هؤلاء الزنادقة والمهملون للدين أنهم لا يستطيعون أن يحببوا أنفسهم لأي أجنبي يملك وجدانا بالإلحاد والسفاهة ".

٦ - التغيير في الأفراد والمجتمعات يأخذ في اعتباره الزمن والعصر ويعتمد سنة التدرج واستخدام الوسائل السلمية فهو يقول " إن من يشق طريقاً في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركة لا يستثمر مساعيه ولن يكون النجاح حليفه ، ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون " وفي موضع آخر يقول " وضع الله سبحانه وتعالي وجود الأشياء تدريجاً وترتيباً أشبه ما يكون بدرجات السلم وذلك بمقتضي أسمه الحكيم فالذي لا يتأني في حركاته إما أنه يطفر الدرجات فيسقط أو يتركها ناقصة فلا يرقي إلي المقصود ".

٧ - رفض مفهوم العلمانية الذي يبعد الدين كلية عن الحياة فهو يقول " إن الإسلام ليس فيه رجال دين بالمفهوم الغربي المسيحي لذا فالمقارنة باطلة ، ليس في الإسلام طبقة الرهبان ذلك لأن النص الوارد في أنه " لا رهبانية في الإسلام يشكل قاعدة رئيسية من قواعد تفكيرنا ويجب أ، يكون كذلك في الواقع ايضاً . والمنطق يرفض أن نحمل النتائج الضارة الناتجة من التطبيق السيئ علي هذه الفكرة وأن نجعلها موضع نقاش ... إن الإسلام نظام كامل للحياة فشريعتنا لم تدع وظائفنا التعبدية شيئاً نظرياً وأمراً منفصلاً عن الحياة بل أدمجتها ضمن هذه

الحياة وضمن نظامها ، فإن انفصلت عقائدنا تماما عن قلب الحياة فلا يبقي فـــي أيدينا سوي شئ نظري [١].

---

(١) راجع كل من مصطفي الطحان ، مرجع سابق ص ٢٤٦ . ود . كمال حبيب ، مرجع سابق : ٦٢ – ٦٦

حقيقة المواقف السياسية للنورسي

وهذا الموضوع هو من أكثر المواضيع التي أسئ فهمها ... وكان لسوء الفهم هذا أثر سلبي علي أوضاع حركة النور بعد سعيد النورسي ... فلم يستطيع تلاميذه أن يفهموا الأمر كما فهمه أستاذهم ... فذهبت المذاهب طرائق شتى ... فسعيد النورسي داعية إسلامي يفهم الإسلام بشموله وأنه يتناول مظاهر الحياة جميعاً ، فهو دولة ووطن وحكومة وأمة ، وهو نظام سياسي ، ونظام اجتماعي ، ونظام اقتصادي ... ولم يتخل سعيد النورسي عن هذا الفهم حتى آخر لحظة في حياته. فهو ومنذ عام ١٨٩٤ في ماردين تعرف علي بعض تلاميذ جمال الدين الأفغاني والحركة السنوسية ... وكلتا الحركتين سياسية بامتياز ... من هذا التاريخ بدأ يتابع الصحف ويتعرف علي أحوال الأمة ويكتب المقالات ... ويعلم تلاميذه أن عليهم أن يقاوموا الطغيان كما قاومه الإمام الأعظم أبو حنيفة وأحمد بن حنبل ... وفي عام ١٩٠٧ م عندما قابل السلطان عبد الحميد شكا له بعض حاشيته وخاصة القائمين علي نظام الأمن والاستخبارات ... وتحدث معه عن نظام الحكم في الإسلام ... وعن خطورة الاستبداد .... وضرورة التمسك بالحريات .

وعندما قامت حركة الاتحاد والترقي مال إلي مقولاتهم وسافر إلي سلانيك وتعرف علي قياداتهم والتقي بمهندس هذه الحركة (قرصو) وعندما تبين له حقيقة مواقفهم وأهدافهم وأن شعاراتهم تخفي وراءها أهدافاً أخري مثل العلمانية ومحاربة الإسلام نأي بنفسه عنهم وبدأ يحاربهم من خلال الاتحاد المحمدي الذي أنشأه مع مجموعة من العلماء عام ١٩٠٩م في استانبول .

وعندما ضاق الاتحاديون بانتقاداته ذراعاً اعتقلوه وقدموه لمحاكمة عسكرية وعندما قامت الحرب العالمية الأولي وتقدم الروس علي جبهة القفقاس جمع النورسي طلابه وشكلوا فرقة الأنصار واشتركوا في الحرب ضد الروس وجرد وأسر وهرب وعاد إلي استانبول .

وعندما اقتسم الحلفاء الممتلكات العثمانية وسيطر الإنجليز علي استانبول وأحاط جندهم بقصر الخليفة أصدر فتوى مع ١٢٠ مفتياً وعالماً دعوا فيها الشعب إلي حـــرب التحرير والاستقلال .

وعندما احتفل مصطفي كمال بالنصر في أنقرة ، ودعا سعيد النورسي لتكريمــه علي الخدمات التي قدمها للأمة التركية وكان في الحقيقة يريد استغلاله نظـــراً لـــشعبيته الواسعة وكان يحتاج في هذه الفترة عالماً كبيراً يكون إلي جانبه وعنـــدما تبـــين ســـعيد النورسي حقيقة مصطفي كمال ابتعد عنه وذهب إلي وان واعتكف هناك وذكر أن سعيداً جديداً قد بدأ عهده .

والخطأ الذي وقع فيه الكثيرون وتوهموا أن سعيد النورسي طلق السياسة بالثلاث يكمن في المرحلة الجيدة التي بدأت في تركيا والتي أدرك الشيخ سعيد النورسي طبيعتها فعاشها وتأقلم معها وانتقل بعمله من النشاط السياسي وإلقاء الخطـــب وكتابـــة المقـــالات والبحوث إلي مرحلة العمل التربوي والتكوين والانصراف بشكل كامل إلي نشر رسائل النور .

وسعيد النورسي الذي انتقل إلي هذه المرحلة لم ينتقل منها لأنه كفـــر بالـــسياسة وابتعد عنها أو لأنه تخلي عن كفاحه السابق وإنما لأنه قرأ بشكل جيد الظروف الجديـــدة وأدرك أن العمل السياسي بالطريقة السابقة التي كان يؤديها لم يعـــد ممكنـــاً فـــي هـــذه المرحلة ومن يقرأ رسائل النور يجد أنها تدعو لكل المبادئ السياسية التـــي نـــادي بهـــا الإسلام .

فمثلاً عندما كتب رسالته عن الدجال ألقت السلطات القبض عليه ، واتهمته بأنه يقصد به مصطفي كمال ومع ذلك فقد برأت المحكمة ساحته ، لعدم وجود أي دليل مادي علي ذلك .

وعندما تحدث عن الغرب يقول : ولئلا يساء الفهم ، إن الغرب اثنان وخطـــابي ليس موجهاً إلي ذلك الغرب النافع للبشرية بما استفاد ، مـــن النـــصرانية والحـــضارة

الإسلامية ، فانتفعت الحياة الاجتماعية البشرية بصناعته وعلومه ، وإنما أخاطب الغرب الثاني ، ذلك الغرب الذي تعفن وفسد بظلمات الفلسفة الطبيعة المادية[١].

---

(١) راجع مصطفي الطحان . مرجع سابق : ص ٢٤٣ – ٢٤٥ .

من أفكار النورسي

يتحدث النورسي عن دلائل النبوة فيقول :

"إن آثار محمد صلي الله عليه وسلم وسيرته المباركة وتاريخ حياته تشهد – مع تسليم أعدائه – بأنه لعلى خلق عظيم ، وأنه قد اجتمعت فيه الخصال العالية كافة . ومن شأن امتزاج كثرة من تلك الأخلاق وتجمعها وإحاطتها ، توليد عزة النفس، التـي تولـد شرفاً ووقاراً يترفعان عن سفاسف الأمور ، كترفع الملائكة وتنـزههم عـن الاخـتلاط بالشياطين ... فالأخلاق السامية كذلك لا تسمح أصلا بتداخل الحيلة والكذب بينها ، بـل تتنزه وتتبرأ وتترفع عنها ، بحكمة التضاد فيما بينها .

ثم إن حياة هذه الأخلاق الرفيعة وروحها هي : الصدق وإصابة الحق ... فهمـا يضيئان كالشعلة المنورة ويعلنان عنها .

أيها الأخ! ألا تري أن الشخص المشتهر بالشجاعة وحدها يترفع عن الكـذب ، لئلا يخل بالمقام الذي تعطيه تلك الصنعة ، فكيف إذا اجتمعت الخصال الرفيعة ؟ نعـم ، للكل حكم ليس لكل .

نشاهد في الوقت الحاضر : أن المسافة بين الصدق والكذب لا تتجاوز الإصبع، فكلاهما يباعان في سوق واحدة ولكن لكل زمان حكمه ، إذ لم يحدث قط في أي وقـت مضي أن اتسعت الشقة بين الصدق والكذب اتساعه الذي حدث في عصر السعادة النبوية فقد انجلي الصدق ببهائه الحقيقي وبكمال الاحتشام والهيبة ، واعتلي محمد صلي الله عليه وسلم الصادق الأمين أعلي علي الصادقين ، وأوقع انقلاباً عظيماً في العالم ، فأظهر بعد الصدق عن الكذب بعد ما بين المشرق والمغرب فراج شوق الصدق ومتاعه فـي ذلـك القرن .

أما الكذب الشبيه بأشلاء الأموات والجثث ، فقد ظهر قبحه وسماجته ، وتـردي بمن تمسك به من أمثال مسيلمة الكذاب إلي أسفل سافلي الإنسانية . فكسد سوقه ولم ترج بضاعته في ذلك القرن .

وهكذا فمن طبائع العرب الاعتزاز والتفاخر ، والرغبة في الرائج من المتاع ... لذا تسارعوا وتسابقوا للتجمل بالصدق والبعد عن الكذب ، ونشروا راية العدل علي العالمين ومن هنا نشأت عدالة الصحابة عقلاً . إذا أنعم الإنسان النظر في السيرة والتاريخ والآثار ، ودقق حاله صلي الله عليه وسلم من الرابعة من عمره إلي الأربعين، مع أن شأن الشبابية وتوقد الحرارة الغريزية أن تظهر ما يخفي ، وتلقي إلي الظهر ما استتر في الطبيعة من لحيل والخداع ، تراه صلي الله عليه وسلم قد تدرج في سنيه وعاشر باستقامة كاملة ، ومتانة بالغة وعفة تامة ، مع اطراد وانتظام ، وما أومأ حال من أحواله إلي خديعة ، لا سيما في مقابلة المعاندين الأنكياء .

بينما تراه صلي الله عليه وسلم كذلك إذ تنظر إليه وهو علي رأس أربعين سنة الذي من شأنه جعل الحالات ملكة ولعادات طبيعية ثابتة لا تخالف ، قد أوقع انقلاباً عظيماً في العالم ... فما هو إلا من الله .

فمن لم يصدق أنه من الحق وعلي الحقيقة المحضة ، فقد اختفي إذن في ذهنه سوفسطائي . ألا تري أنه صلي الله عليه وسلم كيف كان حاله في أمثال واقعة الغار الذي انقطع بحسب العادة أمل الخلاص ، إذ يتصرف بكمال الوثوق وغاية الاطمئنان والجدية .

كل ذلك شاهد كاف علي نبوته وجديته ودل يل قاطع علي تمسكه بالحق أيها الأخ ! إن كنت عارفاً بطبيعة البشر ، لا تر أحداً يتجاسر بسهولة علي مخالفة وكذب ولو حقيراً ، في قوم ولو قليلين ، في دعوى ولو حقيرة بحيثية ولو ضعيفة فكيف بمن له حيثية في غاية العظمة ، وله دعوى في غاية الجلالة ، ويعيش بين قوم في غاية الكثرة ويقبله عناد في غاية الشدة ، ومع أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب إلا أنه يبحث في أمور لا يستقل فيها العقل وحده ، ويظهرها بكمال الجدية ويعلنها علي رؤوس الأشهاد، أفلا يدل هذا علي صدقه ؟

إن كثيراً من العلوم المتعارفة عند المدنيين – بتعليم العادات والأحوال وتلقين الوقوعات والأفعال – مجهولة نظرية عند لبدويين . فلابد لمن يحاكم محاكمة عقلية ويتحري حال البدويين أن يفرض نفسه في تلك البادية .

فإن شئت فراجع المقدمة الثانية ، فقد أوضحت هذه النكتة .

لو ناظر أمي علماء علم ثم بين رأيه في مسائله مصدقاً في مظان الاتفاق ، ومصححاً في مطارح لاختلاف ، يدلك ذلك علي تفوقه ، وأن علمه وهبي لا كسبي .

فبناء علي هذه النكتة نقول : " إن الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم مع أميته كأنه بالروح الجوالة الطليقة طوي الزمان والمكان فدخل في أعماق الماضي ، وبين كالمشاهد لأحوال الأنبياء عليهم السلام ، وشرح أسرارهم علي رؤوس العالم ، في دعوى عظيمة تجلب إليها أنظار الأذكياء . وقد قص قصصهم بلا مبالاة ولا تردد وفي غاية الثقة والاطمئنان ، وأخذ العقد الحياتية فيها وأساساتها ، مقدمة لمدعاة مصدقاً فيما اتفقت عليه الكتب السالفة ومصححاً فيما اختلفت فيه فأبت أن حاله هذه دليل علي نبوته".

إن مجموع دلائل نبوة الأنبياء عليهم السلام دليل علي صدقه صلي الله عليه وسلم ، وجميع معجزاتهم معجزة معنوية له .

أيها الأخ !

قد يحل القسم محل البرهان ، لأنه يتضمن البرهان لذا : [والذي قص عليه القصص للحصص وسير روحه في أعماق الماضي وفي شواهق المستقبل ، فكشف له الأسرار في زوايا الواقعات ، إن نظره النقاد أدق من أن يدلس عليه ، ومسلكه الحق أغني من أن يدلس علي الناس] .

نعم ، إن الخيال لا يستطيع أن يظهر نفسه حقيقة لنور نظره صلي الله عليه وسلم ومسلكه الحق أغني من أن يدلس أو يغالط الناس .

إن محمداً الهاشمي صلي الله عليه وسلم مع أنه أمي لم يقرأ ولم يكتب ، ومع عدم قوته الظاهرية ، وعدم ميله إلي تحكم وسلطنة ... قد تشبث بقلبه – بوثوق واطمئنان في موقع في غاية الخطر وفي مقام مهم – بأمر عظيم ، فغلب علي الأفكار ، وتحببت إلي الأرواح ، وتسلط علي الطبائع وقلع من أعماق قلوبهم العادات والأخلاق الوحشية المألوفة الراسخة المستمرة الكثيرة . ثم غرس في موضعها في غاية الإحكام والقوة – كأنها اختلطت بلحمهم ودمهم – أخلاقاً عالية وعادات حسنة ... وقد بدل قساوة قلوب قوم خامدين في زوايا الوحشة بحسيات رقيقة وأظهر جوهر إنسانيتهم ، ثم أخرجهم من زوايا النسيان ورقي بهم إلي أوج المدنية وصيرهم معلمي عالمهم ، وأسس لهم دولة عظيمة في زمن قليل . فأصبحت كالشعلة الجوالة والنور النوار بل كعصا موسي تبتلع سائر الدول وتمحوها . فأظهر دقه ونبوته وتمسكه بالحق إلي كل من لم تعم بصيرته .

لابد من ملاحظة أربع نكت فيها :

أحداها : أن شخصاً لا يكون متخصصاً ، وصاحب ملكة في أربعة علوم أو خمسة مها إلا إذا كان خارقاً .

إن الديانة والشريعة الإسلامية المؤسسة علي البرهان ملخصة من علوم وفنون تضمنت العقد الحياتية في جميع العلوم الأساسية ، منها : فن تهذيب الروح ، وعلم رياضة القلب وعلم تربية الوجدان ، وفن تدبير الجسد ، وعلم إدارة المنزل ، وفن سياسة المدنية ، وعلم أنظمة العالم ، وفن الحقوق ، وعلم المعاملات ، وفن الآداب الاجتماعية ، وكذا وكذا .. فالشريعة فسرت وأوضحت في مواقع اللزوم ومظان الاحتياج ، وفيما لا يلزم أو لم يستعد له الأذهان أو لم يسأعد أو لم يساعد له الزمان ، أجملت بخلاصة ووضعت أساساً ، وأحالت الاستنباط منه وتفريعه ونشو نمائه علي مشورة العقول . والحال أنه لا يوجد ي شخص كل هذه العلوم ، ولا ثلثها بعد ثلاثة عشر عصراً ، في

المواقع المتمدنة ، ولا في الأذكياء فمن زين وجدانه بالإنصاف يصدق بأن حقيقة هـذه الشريعة خارجة عن طاقة البشر دائماً ولاسيما في ذلك الزمان .

والفضل ما شهدت به الأعداء :

فهذا " كارلايل " فيلسوف العالم الجديد ، ينقل عن أحد حكماء الألمان وسياسيه، أنه قال بعد ما أنعم النظر في حقائق الإسلام : " إن كان الإسلام هكذا فيا تـرى أيمكـن للمدنية الحاضرة أن تعيش ضمن إطار الإسلام ؟" . فأجاب نفسه : نعم . " بل المحققون الآن يعيشون ضمن تلك الدائرة ".

ثم قال كارلايل :"ما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية وكل ما لم يكن بحق فإنها حطب ميت أكلته نار الإسلام فذهب".

يا أخا الوجدان ! يا من يرافقني بخياله من أول منازل هـذا الكتـاب ! انظـر بمنظار واسع ووازن الأمور وكون في خيالك مجلساً رفيعاً لإجراء محاكمات عقليـة ، واستحضر ما تنتقيه من المقدمات الاثنتي عشر ، ثم شاور الوقاد الآتية :

إن شخصاً لا يتخصص في علوم كثيرة ... وإن كلامـاً واحـداً يتفـاوت مـن شخصين ... وإن العلوم نتيجة تلاحق الأفكار وتكتمل بمرور الزمن ... وإن البديهي في المستقبل قد يكون نظرياً في الماضي ... وإن معلوم المدني قد يكون مجهول البدوي ... وإن قياس حال الماضي علي المستقبل قياس خادع مضل ... وإن بساطة أهـل الباديـة والوبر لا تتحمل حيل ودسائس أهل المدينة والمدر . نعم ، إن الحيل ربما تتستر تحـت حجاب المدنية ... وإن كثيراً من العلوم إنما يتحصل بتلقين العادات والوقوعات .... وإن نور نظر البشر لا ينفذ في المستقبل ولا يري الكيفيات المخصوصة به ... وإن لقـانون البشر عمراً طبيعياً ينقطع وينتهي كما ينتهي كما ينتهي عمره ... وإن للمحيط الزمـاني والمكاني تأثيراً عظيماً في أحوال النفوس ... ون كثيراً من الخوارق الماضية قد يكـون اعتيادياً الآن بسبب تكمل المبادئ ... وإن الذكاء ولو كان خارقاً لا يكفي في كمال علم ، فكيف في علوم عدة !

فيا أيها الأخ ! شاور هذه القواعد ، ثم جرد نفسك ، وانزع عنك لباس الخيالات المحيطة والأوهام الزمنية ، ثم غض من ساحل هذا العصر في بحر الزمـــان ، حتـــى تخرج إلي جزيرة عصر السعادة النبوية .

فأول ما يتجلي لعينك أنك تري : إنساناً وحيداً لا ناصر له ولا ســلطان يبـــارز العالم وحده ، وقد حمل علي كاهله حقيقة أجل من كرة الأرض ، وأخذ بيده شريعة هي كافلة لسعادة الناس كافة . وتلك الشريعة كأنها زبده جميع العلوم الإلهية وخلاصة الفنون الحقيقة . وتلك الشريعة ذات حياة – لا كاللباس بل كالجلد – تتوسع بنمو استعداد البشر وتثمر سعادة الدارين ، وتنظم أحوال نوع البشر كأنهم في مجلس واحد . فـــإن ســـألت قوانينها : من أين إلي أين ؟ لقالت بلسان إعجازها : نجئ من الكلام الأزلي ، ونرافـــق فكر البشر لضمان سلامته ونتوجه إلي الأبد . وبعد ما نقطع هذه الدنيا الفانيـــة ، تبقـــي معنوياتنا دليلاً وغذاء روحياً للبشرية مع أننا نفارقهم صورة "[١].

ويقول النورسي عن الحرية : "والآن نستفسر عن الحرية ، فما هذه الحرية التي تتجاذبها التأويلات وتتراءى فيها الرؤى العجيبة الغريبة ؟!

إن من عاش مع طيفها منذ عشرين سنة حتى تعقبها في الرؤى وترك كل شـــئ لحبها يستطيع ألإجابة عنها فهو الخبير بوصفها .

لقد فسروا لنا " الحرية " تفسيرا خاطئاً سيئاً ، وكأن الإنسان مهما فعـــل – فـــي كنف الحرية – من سفاهات ورذائل وفضائح لا يؤاخذ عليها مادام لم يضر بها الناس ... هكذا أفهمونا الحرية ، أهي كذلك ؟؟ !! .

إن الذين فسروها هكذا ، ما أعلنوا إلا عن ســفاهاتهم ورذائلهـــم علـــي رؤوس الإشهاد ، فهم يهذرون متذرعين بحجج واهية كالصبيان لأن الحرية الحسناء ما هي إلا تلك المتأدبة بآداب الشريعة والمتزينة بفضائلها ، وليست تلك التي في السفاهة والرذائل.

---

(١) صيقل الإسلام : ص ٥٨ وما بعدها .

بل تلك حيوانية وبهيمية وتسلط شيطاني ، ووقوع في أسر النفس الأمارة بالسوء .

إن الحرية العامة هي المحصلة الناتجة من حريات الأفراد ومن شأن الحرية عدم الإضرار سواء بالنفس أو بالآخرين .

[علي أن كمال الحرية ، أن لا يتفرعن ، وأن لا يستهزي بحرية غيره إن المراد حق لكن المجاهدة ليست في سبيلها].

كم رأينا من لا يفسر الحرية كما تفسرها أنت ، مع أن أفعال أعضاء من " جون تورك " تخالفك في التفسير وتناقض قولهم قولك ، إذ إن بعضهم يفطرون في رمضان ويشربون الخمر ويتركون الصلاة ...

فهيهات أن يصدق مع الأمة من خان الله ولم يصدق في امتثال أمره تعالي ؟

أجل ، نعم لكم الحق ... ولكن الحمية شئ والعمل شئ آخر ، وعندي أن القلب أو الوجدان الذي لم يتزين بالفضائل الإسلامية لا ترجي منه الحمية الحاقة والوفاء الصادق والعدالة الخالصة . ولكن لأن الصنعة غير الفضيلة، فقد يقوم الفاسق برعي الأغنام رعياً جيداً ، وقد يصلح شارب الخمر ساعة بإتقان حين لا يكون سكران ، ولكن وا أسفي علي ندرة الذين جمعوا النورين معاً : نور القلب ونور الفكر أو بعبارة أخري الفضيلة والصنعة ، فهم نادرون لا يكفون لملء الوظائف ، فإذن إما الصلاح وإما المهارة ... وإذا تعارضا فالمهارة مرجحة في الصنعة .

واعلموا كذلك أن السفهاء التاركين للصلاة ليسوا بـ "جون تورك " بل هم " شين الترك " أي فاسدون ، فهم روافض " جون تورك " مثلما أن لكل شئ ورافضه ، فروا فض " الحرية " هم السفهاء .

أيها الأتراك والأكراد ! أنصفوا ... هل يرفض لحديث الشريف وينكر إذا أوله الرافضي تأويلاً فاسداً أو عمل بخلافه ، أم بخطأ الرافضي حفاظاً علي منزلة الحديث الشريف وكرامته ؟

ألا إن الحرية هي : أن يكون المرء مطلق العنان في حركاته المشروعة ، مصوناً من التعرض له ، محفوظ الحقوق ، ولا يتحكم بعض في بعض ليتجلي فيه نهي الآية الكريمة : ﴿ **ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله** ﴾ (آل عمران : ٦٤) ولا يتآمر عليه غير قانون العدالة والتأدب لئلا يسد حرية إخوانه .

فما لنا إذن نحن معاشر البدو ، نحن أحرار منذ القدم ، فقد ولت حريتنا توأما معناً ، فليفرح بها الآخرون من غيرنا ، فالأمر لا يهمنا .

نعم ، إن حب تلك الحرية والشغف بها هي التي جعلتكم تتحملون مشقات البداوة التي لا تطاق ، وإن سلوككم المفعم بالقناعة هو الذي أغناكم عن محاسن المدنية البراقة، فزهدتم فيها . ولكن أيها البدو ! إن ما لديكم من الحرية هو نصفها والنصف الآخر هو عدم المساس بحرية الآخرين . ثم إن الحرية الممزوجة بالبداوة وبالعيش الكفاف ، توجد منها أيضاً في حيوانات الجبال والبراري القريبة منكم . وفي الواقع لو كانت هناك لذة وسلوان لهذه الحيوانات فهي في حريتها تلك ...

ولكن أين أنتم من تلك الحرية الإنسانية الساطعة كالشمس وهي معشوقة كل روح، وصنو جوهر الإنسانية ، وما هي إلا التي تربعت علي قصر سعادة المدنية وتزينت بحلل المعرفة وحلي الفضيلة والتربية والإسلامية .

لقد قيل في حق هذه الحرية التي تثني عليها :

[حرية حرية بالنار ، لأنها تختص بالكفار] فما تقول في هذا القول ؟

إن ذلك المسكين الشاعر قد ظن الحرية مسلك البلشفية ومذهب الإباحية كلا ، بل الحرية بالنسبة للإنسان تولد العبودية لله سبحانه ، وقد رأيت كثيرين يهاجمون " السلطان عبد الحميد " أكثر من هجومهم علي " الأحرار " .. وكانوا يقولون : إنه علي خطأ لقبوله " الحرية " و " القانون الأساس " قبل ثلاثين سنة " هكذا ! فما ظنكم يقول قائل حسب الاستبداد الذي اضطر إليه السلطان عبد الحميد حرية ، وارتعد من القانون الأساس الذي

هو اسم دون مسمي ! فما قيمة قوله يا تري ؟ هذا ولقد قال مجاهد خدم الإسلام عشرين سنة : [حرية عطية الرحمن ، إذ إنها خاصية الإيمان] .

كيف تكون الحرية خاصية الإيمان ؟

لأن الذي ينتسب إلي مسلطان الكون برابطة الإيمان ويكون عبداً له تتنزه شفقته الإيمانية عن التجاوز علي حرية الآخرين وحقوقهم مثلما تترفع شهامته الإيمانية وعزته عن التنازل بالتذلل للآخرين والانقياد لسيطرتهم وإكراههم .

نعم ، إن خادماً صادقاً مخلصاً للسلطان لا يتذلل لتحكم راع وسيطرته ، كما يربأ بنفسه أن يفرض سيطرته علي مسكين ضعيف ، فبمقدار قوة الإيمان إذن تتلألأ الحرية وتسطع فدونكم خير القرون ، إلعصر السعيد ، عصر النبوة والصحابة الكرام .

هيهات ! نحن عوام كيف نصير أحراراً تجاه الشخصيات الكبار أو الأولياء والصلحاء والعلماء العظام ، أو ليس من حقهم أن يتحكموا فينا لمزاياهم ، فكيف لا نكون أسراء فضائلهم .

إن شأن الولاية والمشيخة والعظمة : التواضع والتجرد ، وهما من لوازم الفضيلة وخصائص الكمال ورفعة الشأن ، لا التكبر والتحكم ... فمن تكبر فهو صبي متشيخ وطفل متكهل ، فلا تعظموه .

لم يكون التكبر علامة التصاغر ؟

لأن لكل شخص نافذة يشاهد فيها ويطل منها علي المجتمع ، تلك هي مرتبة الشهرة والكرامة . فإذا كانت تلك النافذة أرفع من قامة استعداه ، يتطاول بالتكبر ، أما إذا كانت أخفض من قامة همته بتواضع بالتحدب وينخفض كي يشهد في تلك المرتبة ويشاهد .

حسناً جداً ، لقد رضينا بأن الحرية حسنة جميلة ، ولكن تبدو حرية الروم والأرمن شوهاء ، وتسوقنا إلي التوجس وقلق البال ، فما رأيك فيها ؟

أولاً : إن حريتهم ألا يظلموا ، ولا يخل براحتهم ، وهذا أمر شرعي ، أما ما زاد علي هذا فهو تعد منهم تجاه طيشكم وسوء تصرفكم ، أو استغلال لجهلكم .

ثانياً : لو كانت حريتهم – كما تظنونها – مضرة بكم فلسنا معاشر المسلمين بخاسرين لأن الأرمن الذين هم بين ظهرانينا لا يبلغون ثلاثة ملايين ، وغير المسلمين فيها أيضا لا يبلغون عشرة ملايين ، بينما ملتنا الإسلامية وإخواننا الحقيقيون الأبديون يزيدون علي ثلاثمائة مليون ، إلا أنهم مقيدون بثلاثة قيود رهيبة من قيود الاستبداد فينسقون تحت هذا الاستبداد المعنوي للأجانب ... وهكذا فحرية غير المسلمين – التي هي شعبة من حريتنا – إنما هي مقدمة وإتاوة لحرية أمتنا كافة ... وهي رافعة ذلك الاستبداد المعنوي المرعب . وهي مفتاح لفك تلك القيود ... وهي رافعة للاستبداد المعنوي الرهيب الذي ألقاه الأجانب علي كاهلنا . نعم حرية العثمانيين كشافة لطالع آسيا العظيمة ومفتاح لحظ الإسلام وأساس لسور الاتحاد الإسلامي .

ما تلك القيود الثلاثة التي قيد الاستبداد المعنوي بها العالم الإسلامي ؟

إن استبداد حكومة روسيا – مثلاً – قيد ... وتحكم الشعب الروسي قيد آخر ، وتغلب عاداتهم الكفرية الجائرة علي العادات الإسلامية قيد ثالث ... والحكومة الإنجليزية، وإن كانت تبدو غير مستبدة إلا أن أمتها متحكمة مسيطرة ، وعاداتها مهيمنة، فدونكم " الهند " برهاناً علي ذلك و " مصر " نصف برهان عليه .

أفلم يثبت إذن أن أمتنا الإسلامية مقيدة بثلاثة قيود ، أو بقيد ونصف ، وليس لنا إزاء ذلك إلا قيد كاذب موهوم ضعيف وضعناه علي أرجل غير المسلمين فينا . وقد تحملنا كثيراً من دلالهم بديلاً عن ذلك . فلقد ازدادوا نسلاً وثروة ، أما نحن فقد تناقصنا نسلاً وثروة . وذلك بسبب انحصار الوظائف – التي هي ضرب من عمل الخادم – والعسكرية فينا إن الفكر الملي والد " الحرية " وما كان الأسري إلا الأكراد والأتراك .

وهكذا نفك ذلك القيد الكاذب عن أرجل ثلاثة ملايين أو عشرة ملايين لينفسح المجال ويتمهد الطريق أمام حرية ثلاثمائة مليون مسلم مقيدين بثلاثة قيود ولا ريب أن من أعطي ثلاثة عاجلاً وربح ثلاثمائة آجلاً ليس بخاسر .

[وسيأخذ الإسلام بيمينه من لحجة سيفاً صارماً جزاراً مهنداً .. وبشماله من الحرية لجام فرس عربي مشرق اللون فالقاً بفأسه وقوسه رؤوس الاستبداد الذي به اندرست بساتيننا] .

هيهات ! كيف تكون حريتنا مقدمة لحرية العالم الإسلامي كافة وفجره الصادق؟ بجهتين :

الأولي : إن الاستبداد الذي أقام سداً مظلماً جائراً إزاء حرية آسيا ، فيما كان لضياء الحرية أن ينفذ من ذلك الستار الكثيف المظلم ليفتح الأبصار ويري الكمالات ، ولكن بخراب هذا السد أنتشر – وسينتشر – فكر الحرية ومفهومها حتى إلي الـين ، بيد أن الصينيين أفرطت وأصبحت شيوعية . ولما ثقلت كفة الحرية في ميزان العالم ، فقد رفعت كليا الوحشية والاستبداد اللذين في الكفة الأخرى وسيزولان بمرور الزمن فلو أنكم قرأتم صحيفة الأفكار وتأملتم في طريق السياسة واستمعتم إلي الخطباء العموميين، أعني الصحافة الصادقة في أخبارها ، لعلمتم أنه قد حصل في العالم العربي والهند وجاوا ومصر والقفقاس وأفريقيا وأمثالها ، تحول عظيم وانقلاب عجيب ورقي فكري وتيقظ تم نابع من فوران فكر الحرية وغليانه في أفكان العالم الإسلامي ، فلو كنا دافعين مئة سنة ثمناً لها لكان رخيصاً لأن الحرية كشفت عن الملية وأظهرتها وبدأ يتجلي الجوهر النوراني للإسلام في صدفة إلملية ، فأذنت -بتحرك الإسلام واهتزازه-: بأن المسلم جزءاً فرداً سائباً حبله علي غاربه ، بل هو جزء لمركبات متداخلة متصاعدة، له مع سائر الأجزاء صلة رحم من حيث جاذبية الإسلام العامة . فهذا النبأ يمنح أملاً قوياً بأن نقطة الاستناد ونقطة الاستمداد في غاية القوة والمتانة ، وهذا الأمل أحيا قوتنا المعنوية بعد أن كانت صريعة اليأس وستمزق هذه الحياة حجب الاستبداد المعنوي العام

المستولي علي العالم الإسلامي كله مستمدة من فكر الحرية ومفهومها الذي يفور فيه [علي رغم أنف أبي اليأس] .

الجهة الثانية : مازال الأجانب ينلون ملتنا بالحيل ويتذرعون بأسباب واهية وحجج تافهة لذلك . أما الآن فما ظل في أيديهم ما يحتجون به من حجة تؤثر في عروق إنسانيتهم ، أو تهيج أعصاب تعصبهم أو تحرك أوتارهم الخداعة الدساسة ، بل لو وجدوا حجة ما فلا يمكنهم أن يتذرعوا بها ، إذ من شأن المدنية وخاصيتها : حب الإنسانية .

هيهات ! أين هذا الأمل العظيم الذي تسلينا به من ذلك الحيات المرعبة المحيطة بنا الفاغرة أفواهها لتنفث السم في حياتنا وتمزق دولتنا إرباً إرباً ، فتحول ذلك الأمل المشرق إلي يأس قاتم ؟ .

لا تخافوا ، إن المدنية والفضيلة والحرية قد بدأت تهيمن في العالم الإنساني مما أثقلت كفة الميزان فبالضرورة تتخفف الكفة الأخرى شيئاً فشيئاً ، فلو فرضنا محالاً أنهم مزقونا وقتلونا – لا سامح الله – اطمئنوا بأننا نموت ونحن عشرون إلا أننا نبعث ونحن ثلاثمائة ، نافضين غبار الرذائل والاختلافات عن رؤوسنا متحدين مقدرين حقيقة مسئوليتنا ، نتسلم الراية لنقود قافلة البشرية . فنحن لا نهاب هذا الموت الذي ينتج حياة أشد وأقوي وأبقي . فحتى لو متنا نحن فسيبقي الإسلام حياً سالماً ، فلتعش أبدً تلك الملة المقدسة .

كيف نتساوى مع غير المسلمين ؟

المساواة ليست في الفضيلة والشرف بل هي في الحقوق . فالسلطان الملك والفقير المسكين كلاهما سيان في الحقوق ... فيا للعجب إن الشريعة التي نهت عن تعذيب نملة وأمرت ألا تداس عمداً ، أتهمل حقوق بني آدم ؟ كلا !! .

ولكن نحن الذين لم نمتثل الشريعة . ألا تكفي لتصحيح خطئكم هذا ، محاكمة أمير المؤمنين الإمام علي رضي الله عنه ، مع يهودي فقير ، ومرافعة صلاح الدين الأيوبي – وهو مدار فخركم – مع نصراني مسكين .

إن منح الحرية للروم والأرمن يقلقنا ، فتارة يتجاوزون علينا وأخرى يفتخرون بأن الحرية والمشروطية هما نتيجة سعيهم فيحرموننا فضائلها .

أظن أن تجاوزهم الحدود الآن هو تشف لغيظ ما توهموا من تجاوزكم عليهم في الماضي ... أو هو تصنع وتظاهر وتهديد تجاه ما يتوقعون واهمين من تعد منكم عليهم في المستقبل فإن اطمأنوا واعتقدوا بعدم التعدي عليهم فسيرضخون – بلا شك – للعدالة ويقتنعون بها ، وإن لم يقنعوا بالعدالة فالحق يرغم أنوفهم بقوته ويسوقهم مضطرين إلي الاقتناع .

أما قولهم " نحن الذين حصلنا علي المشروطية " فهو كذب بين ، إذ ما برزت الحرية والمشروطية إلي الوجود إلا بحراب جنودنا وبأقلام مجتمعنا الحامل لروح الأمة، بل كان هدف هؤلاء وأمثالهم من الثرثارين المهاذير هو " اللامركزية السياسية " التي هي ابنة عم " الإمارة " والحكم الذاتي " إلا أن تسعين بالمائة منهم قد اتبعونا ، وظلت خمسة من العشرة الباقية يثرثرون والبقية الباقية باتوا يعذرون ولا يرغبون في العدول عن أوهامهم الماضية " (١).

(١) المرجع السابق : ص ٤٢١ وما بعدها .

حركة النور بعد وفاة النورسي

عاش بديع الزمان بقية عمره منعزلاً عن الناس ، في مدينة (إسبارطة) إلـــي أن كان قبل وفاته بثلاثة أيام حيث اتجه مع بعض تلامذته في سيارة صغيرة إلـــي أورفـــه ، دون أن يستأذن من السلطات ، فقد كان التنقل من بلدة إلي أخري محظوراً عليه وقبل أن تدخل بهم السيارة مدينة أورفه عارضتهم قوة من الجيش وأمرتهم بالعودة إلي المكان الذي قدموا منه . ولكن بديع الزمان قال لهم في هدوء دون أن يتحرك من داخل السيارة : يبدو أنني لن أستطيع الإجابة إلي طلبكم ولكنني أؤكد لكم أني لن أبقي في أورفه أكثر من يومين ، فتنحت جماعة الجيش عن طريقه ، ودخل أورفه .

وبعد يومين فقط من دخوله إليها ، أعلن العالم الإسلامي عن وفاة بديع الزمان، بتاريخ ٢٥ رمضان عام ١٣٧٩ هـ الموافق ٢٣ مارس عام ١٩٦٠م ، عن عمر يناهز السبعة والثمانين سنة .

يقول الأستاذ مصطفي الطحان : " بكيته بعيون حري قد كنا علي صـلة قويـة بشباب النور في إتحاد الطلاب وهم زملاؤنا بالجامعة يحـضرون احتفالنـا ويـسعدون بأنشطتنا ونسعد بروحانيتهم وتقواهم وحبهم لإخوانهم المسلمين . رحم الله سعيد النورسي رحمة واسعة " [١].

عندما مات النورسي ترك ١٢ تلميذاً كانوا يلازمونه فـي دعوتـه ، ويكتبـون بأيديهم الرسائل التي كان يبعثها إلي الناس . وهؤلاء أوصاهم أن يشكلوا مجلـس شـوي لتلاميذ مدارس النور . كان أكثرهم قرباً منه الشيخ مصطفي سنقر . عندما دخل النورسي السجن قبضوا أيضا علي سنقر وسجنوه معه ، فكان هذا فألاً حسناً بالنسبة له ، فقد كـان يقوم بخدمه النورسي في سجنه ، وكان يكتب رسائله الدعوية التي تتسرب عبر

---

(١) تركيا التي عرفت : ص ٢٥٠ .

الأسوار لتجتاح أسوار العلمانية المحيطة ببيوت تركيا .

وبعد وفاة الشيخ النورسي تفرق أنصاره في عدة اتجاهات.

فريق استمر في طباعة رسائل النور ونشرها دون أن تشغله السياسة عن هـذا الهدف .

وفريق آخر أيد الأحزاب السياسية مثل الحزب الـديمقراطي وحـزب العدالـة وحزب النظام الإسلامي ... متخذاً من توجيهات الشيخ سعيد عندما وصف تأييده لعدنان مندريس بأنه من قبيل أهون الشرين .

فعل الحزب ذلك ، ومنح تأييده للأحزاب مقابل مكاسب يحققها مثل : مناصـب معينة في بعض الوزارات مثل العدل والشئون الدينية ، وتمكين بعض الأساتذة من ولوج سلك التدريس في الجامعات وتمكين البعض من خريجي كليات القانون بتعينهم في سـلك القضاء ، هذا بالإضافة لي الحصول علي بعض المنافع المادية للجماعة .

وفريق آخر وهو الأوسع انتشارا بقيادة فتح الله جولان ، الذي اهـتم بالـدعوة وإقامة المدارس وللشيخ فتح الله جملة من المواقف السياسية مثل تحالفه مع أجاويد رئيس حزب الشعب الجمهوري ومحاربته لحزب الرفاه الإسلامي واتخاذه مواقف مؤيدة للدولـة في بعض قراراتها مثل إغلاق مدارس الأئمة والخطباء والمدارس القرآنية وغيرها مـن المواقف غير المستساغة إسلامياً.

فتح الله جولان

في نعرة دعا إليها اتحاد الكتاب والصحفيين الأتراك الذي يرأسه فخرياً الشيخ فتح الله جولان عدداً من المفكرين للتداول في عدد من القضايا مثل : (الإسلام ، والعلمانية، والدولة) .

كانت أهم القرارات التي توصل إليها المجتمعون هي :

- ضرورة الإيمان بدور العقل في الحياة .
- فتح باب الاجتهاد .
- الإيمان بالديمقراطية كأسلوب حياة في عصر العولمة .
- الكفاح من أجل جعل الدولة التركية دولة ليبراليه علمانيه [(١)] .

لقد وضعت هذه الندوة الحجر الأساسي للإسلام التركي المرتبط بتقاليد وتراث الأتراك ... وهو الفكر الذي تبناه مسعود يلماظ رئيس الوزراء أثناء حضوره احتفال البكتاشيين ... فقد قال : يوجد بيننا اليوم من يؤمن بالأفكار العربية والفارسية الرجعية المستوردة ، ويعمل علي تعكير صفو الإسلام التركي البراق .

أما الجنرال إلهان قيلينج قائد القوات الجوية فقد ذكر : أننا سوف لن نسمح لأولئك الذين يحاولون استثمار ديننا الجميل ، الإسلام التركي المعاصر .

وفي الوقت الذي رفض المفكرون الإسلاميون هذه الفكرة الشعوبية لم يتردد الشيخ فتح الله جولان زعيم النورسيين بأن يصف ترجمة القرآن الكريم إلي التركية بالأمر المفهوم ... فليس هناك علاقة بين الإسلام والقومية العربية .

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٥ .

ولقد تطوع جولان مؤخراً فتحدث في التليفزيون لساعة كاملة ... قال فيها أنه يكره أربكان لله في الله ... وأن رغبة العسكر في إغلاق المدارس الدينية يجب احترامها ... ولا يري في إغلاقها أي ضرر ... وأن العسكر قوم مجتهدون إن أصابوا فلهم أجران ... وإن أخطأوة فلهم أجر واحد .

وعندما أصرت القيادات العلمانية علي منع الفتاة المحجبة من دخول المدارس والجامعات ودوائر العمل ... أفتي الشيخ جولان بأنه يمكن للفتاة أن تخلع الحجاب ... لقد كانت السلطة بكل ألوانها بحاجة إلي مثل هؤلاء الشيوخ وإلي مثل فتاويهم الجاهزة .

وليس للجماعة تنظيم كما هو الحال بالنسبة للحركات الإسلامية الأخرى فلا توجد لها هياكل تنظيمية وإنما الرابطة الأساسية التي تجمع بين المنتسبين للجماعة هي العلاقة مع الشيخ ومع النصوص التي ينتجها "فالحركة لا تزال تعبر عن الطابع الصوفي في العلاقة بين الشيخ كإمام وقائد روحي وبين المريدين أو الأتباع ، وهذه العلاقة ذات طابع رأسي يشبه الهرم حيث يقف الشيخ علي رأسه ثم طبقات الأتباع التي تتخذ طابع العلاقة الأبوية أو العلاقة مع الأكبر سناً حيث تكون الفكرة والعلاقة الروحية هي الرابط الأقوى بين الأتباع وليس قوة التنظيم "[1]. وتثير مواقف وعلاقات أو علامة ومجموعته قدرا من الحيرة والريبة لدي الباحثين وهو الأمر الذي يعرضنه الدكتور كمال حبيب فيقول : " تمثل مجموعة فتح الله جولن" وزناً معتبراً في السياسة لتركية بالنسبة لأحزاب اليمين خاصة وهو ما يفسر حرص قادة العديد من الأحزاب السياسية علي وجود علاقة خاصة معها فمنذ عام ١٩٩٤ التقي رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والعديد من قادة الأحزاب السياسية ورجال الأعمال الكبار في تركيا مع زعيمها " فتح الله جولن " الذي كثيراً ما يتم استضافته كأحد الوجوه التركية المهمة في الميديا، ففي عام ١٩٩٧م مثلا زار " سليمان ديميريل " رئيس الجمهورية إحدى المؤسسات التابعة لجماعته وأثني علي

---

(١) د . كمال حبيب . مرجع سابق : ص ٧٥ .

النشاط التعليمي للجماعة ، وقابله " بولنت أجاويد " زعيم اليسار التركي" الذي صرح بعد للقاء بقوله : " الحوار بالكامل كان حول الدين والفلسفة ولم يكن له أبعاد سياسية ووجدت الرجل ودودا مخلاً وكان لقاؤنا مفيداً" ، هذا يدل علي مدي قبول خطاب الجماعة حتى لدى اليسار .

ولكن مؤسسة الجيش التي ترى نفسها حامية العلمانية في تركيا لا تزال تنظر لمجموعة " جولن " باعتبارها خطراً يتهدد المؤسسة العسكرية الإستراتيجية عبر اختراقها ومجلس التعليم العالي في تركيا وإحدى ركائز العلمانية التركية المهمة ينظر هو الآخر بعين محاذرة للجامعات التي تنشئها الجماعة حول العالم ويقيم العراقيل أمام خريجها .

ويتفق مع هذه الرؤية مفكرون علمانيون غلاة من النخبة المثقفة التركية يقولون: " إن الجماعة تستخدم تكتيكات توصلهم لنفس أهداف الإسلاميين ويزعمون أنهم خائفون من أن يكون هذا الوجه الودود ستاراً لمطامح سياسية تقلب الدولة التركية إلي النموذج الإيراني للدولة الإسلامية "، ويعلنون مخاوفهم من دعم الأحزاب العلمانية للجماعة حتى تضمن ولاءها في مواجهة الرفاه .

بينما تنظر قطاعات مهمة أخري من النخب العلمانية الفكرية في تركيا لمجموعة " جولن " باعتبارها إحدى أدوات الأحزاب السياسية العلمانية المهمة في تحجيم التيار الذي يعبر عنه " نجم الدين أربكن " وهي حركة " الملي جورش " ويذهبون إلي أن مجموعة " جولن " يتم دعمها من وزارة الخارجية التركية وأن مخصصات سرية كبيرة حولتها " تانسوشيلر " لدعم الجماعة لاستخدام نفس أدوات أعدائها في الرفاه لمواجهتهم بها ، وهو ما يفسر العلاقة المتينة بين حزب الطريق المستقيم وبين الجماعة .

وعلي الجانب الآخر يحظ " جولن " بدعم مجموعة من الوجوه الليبرالية المثقفة المهمة في تركيا مثل الصحفي " محمد الطان وعلي بيرام أوغلو ومحمد علي بيراند وجنكيز شاندار " وهؤلاء يجادلون حول أن حل المشكلة التركية يكمن في التوصل لحالة من التوافق في الآراء ولذا فهم يقدرون الوجه الهادئ للإسلام الذي تعبر عنه الجماعة ،

ويمثل الموقف الناقد للجماعة من الرفاه قبل حله أحد مصادر الدعم لها مـــن الاتجاهـــات القومية المحافظة .

وعلي صعيد علاقة " جولن " بالتيار الذي يمثله " أربكـــان " وحركـــة " الملـــي جورش " فإنها عدائية حيث ينظر أتباع اربكان إلي حركة " جولن " بأنها مدعومـــة مـــن الدولة لتعويق حركة الرفاه ومن جانبه يشن " جولن " حملة علي الرفاه ويقول : إن النسبة العالية التي حصل عليها في انتخابات عام ١٩٩٥م (٢١%) ، لا تعبر عن قوته الحقيقية في الشارع والتي لا تزيد عن ١٥% وربما أقل بينما الفارق الذي حصل عليه الرفاه يعبر عن التصويت العقابي من جانب المواطنين ضد حكومات فاشلة . وحمل " جولن " الرفاه مسئولية الصدام مع الجيش والذي قاد إلي الانقلاب الأبيض عليه فـــي يونيـــه ١٩٩٧ م والذي حمي تركيا في تقديره من الانجراف إلي صراع شبيه بما حدث في الجزائر " [١].

---

(١) الدين والدولة في تركيا . ص ٧٥ – ٧٧ .

ما نذهب إليه في فكر وحركة فتح الله جولان

يقول أحد العلماء والمفكرين الكبار في شرح حديث الرسول صلي الله عليه وسلم الذي رواه البخاري: " نصرت بالرعب مسيرة شهر" عندما قام مبلغ هذا الدين العالمي وهذه الدعوة العالمية وتلاميذه الأوائل بنشر هذا النظام العالمي في أرجاء العالم كانوا يشعرون بمدي مسئوليتهم ويدركونها فكانوا يهرعون من جبهة قتال إلي أخري يجاهدون في سبيل الله لاستلام قيادة العالم .. يقتلون ... ويقتلون يبرهنون علي أحقيتهم في الدخول إلي الجنة ورؤية جمال الله .. يستهينون بحياتهم الدنيوية في سبيل دعوتهم ، وبحرص أكبر من حرص الآخرين ورغبتهم في الحياة الدنيا . كانوا يذوبون شوقاً للقاء الله ويسعون لتحقيق الخلافة في الأرض لذا فما كان بقدرة أحد قتال أمثال هؤلاء الذين ارتبطوا بالعالم الآخر هذا الارتباط ".

ويقول في موضوع آخر : " والحقيقة أن مفهوم الجهاد لدي الرسول صلي الله عليه وسلم كان ينبع من منبع الرحمة . أجل قد يلحق بعض الضرر الدنيوي بالناس بسبب جهادهم ولكن ما يربحونه في حياتهم الأبدية أكبر كثيراً إلي درجة أن هذا الضرر يعد صفراً بجانبه ، فرسول الله صلي الله عليه وسلم كان يفتح بحد سيفه الطرق المؤدية إلي الجنة . وهذا بعد آخر من أبعاد الرحمة التي بعث بها للعالمين " .

ويقول في موضع آخر : " كما يوصي القرآن الكريم باستعمال القوة لإسناد الحق والحكمة في التوازن العالمي فإن محمداً صلي الله عليه وسلم رسول جاء بشرعة الحرب، فقد جاءت صفته في الإنجيل بأنه" صاحب القضيب " (الشفاء للقاضي عياض) فهو يقوم بنشر الحق إلا أنه يستعمل القوة ويستعمل السيف إن تم الوقوف في وجه نشر الحق والحقيقة فهو رسول السيف أيضاً " .

ويقول في موضع آخر : " لقد جاء الوقت المناسب لإنزال الضربة النهائية علي رؤوس الذين يعرقلون ويمنعون الدعوة المخلصة الصافية إلي الله تعالي وإلي إعلاء كلمة

الله . ولكن يقال لأعداء الله " لن تستطيعوا بعد الآن منع ذكر أسم الله تعالي في أرجاء الأرض ولن تستطيعوا إدامة الضغوط علي النفوس المنفتحة علي دعوته ، أجل فدعوة الله يجب ألا تبقي منحصرة في مكان محدد ، بل يجب أن تدخل إلي النفوس جميعها لتطمئن بها جميع القلوب . ويجب أن تزال جميع العقبات من أمام إعلاء كلمة الله لكي لا تبقي هذه الكلمة في نطاق الأسرة ، بل لتنتشر في أفاق الإنسانية كلها وتكون لها مبدأ " .

إذا وضعت هذه العبارات السابقة والكثير من مثيلاتها لأقوال هذا العالم المفكر بجوار بعضها البعض في منشور واحد ووزعته بين الناس وأطلقته علي الانترنت لتتبعتك عن يقين المخابرات الأمريكية لتعرف من هذا القائد الجهادي الذي يكتب هذا الكلام وربما دبرت التدابير لقتله أو اعتقاله وإلا كانت مقصرة في عملها .

وربما فكر القارئ أنه قد لا يستطيع كتابة هذه اللغة الجهادية المتوهجة سوي سيد قطب نفسه .

تُري ما هي حقيقة كاتب هذه العبارات ؟ .

إنه فتح الله جولان نفسه .

ذلك في كتابة الرائع (النور الخالد : محمد مفخرة الإنسانية) هذا الكتاب الذي ربما لا يوجد نظير له في العربية . أقول هذا وأنا أزعم إطلاعي للغالبية العظمي من كتب السيرة ذات القيمة التي كتبت بالعربية في العصر الحديث [١] .

إذن الرجل ليس بهذه الصورة التي يرسمها له من البعض وكأننا أمام نموذج تركي متفسخ شبيه بنموذج جمال البنا في مصر ولكننا أمام عالم متمكن ومفكر عميق ولكن مواقفه الفكرية والسياسية شديدة التعقيد والغموض للغاية .

---

(١) أرقام صفحات مواضع العبارات السابقة هي علي التوالي ٢٣٦ ، ٢٥٨ ، ٤٠٣ ، ٤٢٣ .

فالرجل كما قيل عنه هاجم الحجاب في التلفاز وهاجم المشروع الإسلامي الذي كان يصنعه أربكان وهاجم أربكان نفسه في التلفاز وقال أنه يكرهه لله في الله وهو الرجل الذي يلتجأ إليه أردوغان بعدها انقلب علي أستاذه أربكان وهو الرجل الذي تسمح له المخابرات الأمريكية والمخابرات العالمية بانتشار مدارسه في كل مكان ، ومع كل ما سبق فهو الرجل الذي يتم تصوير مقطع له وهو يشرح لتلامذته كيفية العمل لبلوغ الإسلام للحكم تدريجياً بحذر شديد وهو الأمر الذي يتهمه به علي الدوام غلاة العلمانيين.

بل الأغرب من ذلك فإن أحد تلاميذه المقربين (محمد أنس أركنه) عندما يكتب كتاباً عنه ليقرب أفكاره إلي القراء يقول : " وفي الحقيقة أن هناك العديد من الشخصيات يسهل كثيراً تحليلها لأنها تحاول بكل ما تملك من قوة وبكل جهدها إظهار كل ما يتعلق بها . ولكن هذا الطريق مسدود بالنسبة للأستاذ فتح الله كولن الذي اختار حياة الوحدة وحياة العيش وراء الأستار " [١] .

إذن ما يتعلق بتحليل شخصية الرجل ومواقفه السياسية سنتركه لرجال المخابرات أو معاونيه أو منافسيه من كل الاتجاهات لأن المعلومات المتاحة لهم أكبر كثيراً مما بأيدينا أما إذا نظرنا إلي فكر الرجل بحسب الكتب والمقالات المتاحة لنا بالعربية سواء تمثلت في كتب مطبوعة أو منشورة في صفحته بالعربية علي النت لكان أمامنا حوالي عشرة كتب أهمها علي الإطلاق كتابه في السيرة المشار إليه(النور لخالد).

وتعطينا هذه الكتب صورة من عالم موسوعي ومفكر عميق يجمع بين الأصولية والتجديد مع عمق صوفي فلسفي له اطلاع ملم بالعلوم القديمة والجديدة وكتابه في السيرة شديد النضج في تجسيد تأثيرها تجسيداً عصرياً فاعلاً . وكتابه في الجهاد ، علي الرغم من كونه لا يتحدث عن علاقة أحكامه بالواقع المعاصر فهو كتاب يبدو محايداً أشبه بالكتب العلمية التي يكتبها الأزهريون أو السلفيون التقليديون ولكن يحسب له مع ذلك أن

---

(١) (فتح الله كولن) جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية : ص ٢١ .

يكتب في هذا الموضوع بهذا الحياد في ظل وجود الحكم الأتاتوركي الطاغوتي في الوقت الذي تأول فيه علماء كبار من العرب الفكرة الجهادية ذاتها في ظل حكم طاغوتي مماثل أو أحاله البعض كجمال البنا لمجرد معني اقتصادي دنيوي يتمثل في زيادة الإنتاج خدمة للسياسات الأمريكية.

ومن الطبيعي أن تنطبق نفس هذه الروح العلمية علي كتابه القدر في ضوء الكتاب والسنة وإن كان ذلك يمتزج بالروح الوجدانية التي يكتب بها كولان جميع كتبه غالباً . أما كتب مثل ترانيم روح - أشجان قلب ونحن نقيم صرح الروح - التلال الرمزية فهي تتحدث عن الحياة الروحية في الإسلام ويتميز في هذا الموضوع كولان تميزاً واضحاً حتى مع الاختلاف معه في بعض الرؤى والأفكار . أما تميزه العقلاني المعبر عن استيعابه لفلسفات عصره وعلومه الإنسانية وقدرته علي نقاشها نقاشاً إسلامياً رصيناً فيتمثل في كتب له مثل : أسئلة العصر المحيرة – حقيقة الخلق ونظرية التطور .

ومع ذلك فإنه مما يمكن ملاحظته خلو هذه الكتب من الجانب الواقعي إلي حد كبير في بُعده الزماني المتمثل في تأثير واقع العصر علي فكره والمكاني التمثل في الواقع التركي علي الرغم من خطورة البعد الواقعي في فكر المفكر هذا علي الرغم من استيعابه النظري لأفكار عصره وقد يتناسب ذلك مع شخصية كولان الانعزالية .

هذه الكتب المترجمة والتي لا تمثل سوي عدد قليل من كتبه يكشف عن الجانب السياسي في فكر فتح الله كولن وقد يمثل ذلك تفسيراً لسبب اختصاصها بالترجمة .

والكتاب الوحيد بين أيدينا الذي يكشف بعض الشئ عن رؤية كولان السياسية والعملية هو كتاب تلميذه محمد أنس أركنه المشار إليه من قبل في إظهار خصوصية حركة كولن عن الحركات الأخرى يقول أركنه في هذا الكتاب.

" إن عصر النبوة والراشدين يمثل في حركة فتح الله كولن مثالاً أعلي من جهة، أو نموذجاً للحياة الواقعية الحالية من جهة أخري والدليل علي هذا أن العديد من الذين

وهبوا قلوبهم لهذه الحركة ، قاموا بتضحيات لم يشاهد مثلها في التاريخ الإسلامي إلا في عصر السعادة (عصر النبوة والراشدين) . أما الجماهير التى حملت قيم هذه الحركة ، فقد أبدوا إخلاصاً وتضحيات قريبة من إخلاص ذلك العصر وتضحياته . لذا فإن عصر السعادة لا يبقي مثالاً جامداً ، بل مثالاً حركياً . لأن هناك خطورة انقلاب مثل هذه المثل إلي مجرد حنين مشلول مرتبط بالماضي . وأي حركة تحولت إلي جماعة تتحدث باسم مجتمع لم يعد موجوداً ستدخل في مرحلة التفتت والاضمحلال .. بينما أثارت هذه الحركة في قلوب الشباب حماسة التمسك بهذه المثل وحالت بذلك دون انقلابها إلي حنين جاف إلي الماضي .

إن هذه الخصوصية والحساسية لهذه الحركة تختلف عن الحركات التي تدعو بالرجوع إلي الحياة الإسلامية السابقة وترفع هذه الدعوة كشعارات وكقوالب لتصرفات معينة ، لأن مثل هذه الشعارات تتبني برنامجاً سياسياً يريد البدء من القمة إلي القاعدة وبتعبير آخر ، تتطابق مع نماذج الحركات الإسلامية الكلاسيكية التي تري أنه إن لم يتم تحول سياسي من القمة إلي القاعدة ، فلا يمكن الرجوع إلي أنموذج الحياة الإسلامية . بينما لا تنظر حركة فتح الله كولن إلي عصر السعادة بهذه المنظار . بل تري البدء بالأفراد وبالقاعدة الشعبية . فمن ثم لا يوجد هناك شئ يسمي بـ " العودة إلي الإسلام". أو بتعبير آخر ، إن الفرد – أينما كان وكيفما وجد – إذا كان مؤمناً فهو مسلم ، وعليه أن يتصرف كمسلم في أعماقه ويعيش في حبه ووجده . وأفضل مثال علي هذا هو عصر السعادة والتطبيق العملي للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . فالصحابة كانوا يعيشون الإسلام ويرتبطون به ارتباطاً وثيقاً وافيا . ولم يكونوا مرتبطين في عيشهم هذا بأي أيدولوجية أو بأي برنامج سياسي . وقد حاولوا أن يبلغوا هذا الإسلام – الذي يعيشونه ويحبونه – بكل صفائه ونقائه إلي الآخرين . وعلي الرغم من الظروف الاجتماعية الصعبة التي كانت تحيط بهم فإنهم لم يؤجلوا القيام بدعوتهم ، والعيش بخلقهم الإسلامي إلي أن يحل ظرف سياسي أو أيديولوجي مناسب . ولا يوجد مثل هذا الادعاء في الحياة الإسلامية النقية في الأصل .

إذن فإن اتخاذ عصر السعادة قدوة في حركة فتح الله كــولن لا يعنـــي إن هـــذه الحركة ليست حركة منظمة أيديولوجية ، فهي لا تبتغي تطبيق أي ضغط أو إكـــراه ، لا علي المجتمع ككل ، ولا علي أفكار منتسبيها وقراراتهم الوجدانيـــة والاجتماعيـــة ، ولا علي سلوكهم وتصرفاتهم . بل هي تعد كل نـــوع مـــن أنـــواع الـــضغط الاجتمـــاعي والأيديولوجي مناقضاً لروح الدعوة الدينية . فالدعوة الدينيـــة تخاطـــب الإرادة الحـــرة والوجدان الحر وحرية الاختيار بشكل مباشر ، وتتوجه إلي الآليات الطبيعية الموجـــودة في فطرة الإنسان . لأن الخالق عز وجل وضع في فطرة كل إنسان وفي وجدان كل فرد آليات يعرف بها نفسه له ، ولكي يعرف بها الإنسان ربه إلي الآخرين . فهذه هي الساحة التي تخاطبها الجماعة الدينية "الشعور السليم ، والوجدان والفطرة السليمة " .

ثم يعود أركنه فيقول : " ولا مكان لمثل هذه الميول والاتجاهات الهامشية فـــي حركة فتح الله كولن ، فهي – قبل كل شئ – لا تهدف إلي أي انفصام نفسي واجتماعي عن المجتمع . بل علي العكس تماماً ، فهي تهدف إلي التلاؤم مع هذا المجتمـــع وإلـــي الإسهام فيه ، وتدعو إلي الأخوة الأبدية . ولا تتصرف في صدد العلاقات الاجتماعيـــة بشكل انتقائي مثلما تتصرف الحركات الأيدلوجية بل تخاطب كـــل الكتـــل الجماهيريـــة وتخاطب كل عائلة وكل فرد . ولا تسعي إلي تطوير أية حركات انعزالية في الشارع أو في السوق أو في النوادي أو الجمعيات ... إلخ . وتعارض أي حركة اجتماعية انعزالية تصادم روح الحياة الاجتماعية " .

ويقول في موضع آخر "توجد هنا ناحية مهمة كثيراً ما يهملها المحللون الغربيون ويتغاضون عنها ، وهي إهمالهم لدور مثقفي عهد التنظيمات في تطوير الحركة السياسية الإسلامية ، والحال أن هذه الحركة كانت موجودة في أذهان هؤلاء لمثقفين بشكل ثقافي وأيدلوجي قبل جمال الدين الأفغاني .

ونحب أن ننوه إلي أن فهم الإسلام السياسي لدي المثقف العثماني يختلف عن فهم العربي والهندي بشكل بارز ، ففي المنطقة العربية والهندية تأسست الحركات الإسلامية

علي أساس فكرة " الجهاد " والتعبئة ضد الاستعمار كرد فعل للاستعمار الغربي الدولي ، بينما كانت هذه الحركة عند المثقفين العثمانيين متوجهة إلي استيعاب الحركة التقدمية في أوروبا وإلي القيم العربية ، وتفسير الإسلام ضمن هذا الإطار . وهذا كان يعني تفسير المعطيات العصرية في انسجام مع الأصول الإسلامية ، بينما كانت الحركات الإسلامية الأخرى ترد جميع القيم العصرية وتدعو للرجوع إلي العهد الإسلامي الأول ، والتي وجدت رموزها في الحركة السلفية وفي قيمها ، وذلك كرد فعل ضد الغرب وقيمه .

الحركة السياسية الإسلامية التي أنتجها المثقفون العثمانيون لم تكن ككل حركة رد فعل ، ولم تكن تشترط الانفصال عن المعاصرة تماماً . ولعل السبب في هذا يعود إلي أن مركز الدولة العثمانية (أي تركيا الحالية) ، كان البلد الوحيد في العالم الإسلامي الذي لم يتعرض للاحتلال . أي إن المثقف العثماني كان يتقبل تفوق الغربي في ساحة العلم والتكنولوجيا ، ولكنه لم يكن من الناحية النفسية يتعامل مع الغربي ولا ينظر إليه كمحتل لبلده .. ولكن الذين وضعوا ردود الفعل في مركز هذه الحركات السياسية الإسلامية فهم الإسلاميون المتأخرون كـ " المودودي " وسيد قطب " .

وعلي أية حال فإن جميع أشكال الحركات السياسية الإسلامية عبارة عن إيديولوجية ، وتعمل محاولاتها – وإن كانت بنسب مختلفة – في الساحة السياسية . لذا فهي لا تمثل – بأي شكل من الأشكال – الإسلام كدين ".

خلاصة هذه الأفكار

* أنه بينما تري الحركات الإسلامية التقليدية أنه إذا لم يتم تحول سياسي من القمة إلي القاعدة فلا يمكن الرجوع إلي أنموذج الحياة الإسلامية فإن حركة كولن تري البدء بالأفراد وبالقاعدة الشعبية للوصول إلي هذا الأنموذج .

* أن مثقفي تركيا يختلفون من مثقفي باقي العالم الإسلامي في أن تركيا لم تتعرض للاحتلال مثل الآخرين ومن ذلك كانت نظرة مثقفيها إلي القيم الغربية نظرة استيعاب وانسجام وليس علي الخلاف من مثقفي دول العالم الإسلامي الأخرى الذين جاء موقفهم من هذه القيم انعكاساً لنظرتهم للعالم الغربي كمحتل.

* حركة كولن تخاطب الإرادة الحرة والوجدان الحر وحرية الاختيار بشكل مباشر ولا تبتغي تطبيق أي ضغط أو إكراه لا علي المجتمع ككل ولا علي أفكار منتسبيها وتعتبر كل نوع من أنواع الضغط الاجتماعي مناقضاً لروح الدعوة الدينية وهي تفترق بذلك عن الحركات الإسلامية الأخرى التي تهدف بلوغ السلطة للضغط علي المجتمع وتوجيهه من موقعها السياسي .

* وحركة كولن ترفض الانفصام النفسي أو الاجتماعي عن المجتمع بل علي العكس من ذلك تهدف إلي التلاؤم مع هذا المجتمع وإلي الإسهام فيه .

* تعتبر حركة كولن كل الحركات الإسلامية التي تسعي إلي التغيير السياسي حركات أيديولوجية ومن ثم فهي لا تمثل الإسلام بأي شكل من الأشكال كدين .

ونستطيع أن نقول :

أنه من المهم حقاً أن توجه الدعوة إلي الأفراد والقاعدة الشعبية وليس لمجرد المنتمين للجماعة أو التنظيم ، وكذلك فإن تحقق الأنموذج الإسلامي منذ اللحظة الأولي في كل فرد من أفراد الإنسانية هو الهدف الأساسي للدعوة الإسلامية ولقد كتبت أنا نفسي في هذا السياق كتابي (كن قوياً بالإيمان) ولكن لكي لا نكون مفارقين تماماً لحقائق الواقع فلا

بد أن نعي أن هذا لن يكون إلا علي قدر المستطاع علي مستوي الهدف.. بله تحقيقه واقعياً لأننا لا نتحرك في الهواء الطلق وإنما نتحرك في إطار واقع كل مقوماته في الداخل والخارج هي ضد دعوتنا ، ليس لأن دعوتنا تناقض تلك المقومات أو لا تتناقض معها فقط ولكن لأن من هو وراء تلك المقومات يعلم جيداً أنه ضد دعوتنا ويعمل قدر جهده لإجهاضها ومن ثم يغدو الحديث عن التغيير من أسفل إلي أعلي هو نوع من الترف الذهني غير قابل للتحقيق واقعيا.

ومع ما سبق فلابد أن تتنبه كل الجماعات العاملة في حقل الدعوة أنه مهما كان استغراقها في العمل السياسي فإن الهدف الاسمي للدعوة الإسلامية هو هداية الناس جميعاً .

أما البناء الفكري علي أن تركيا لم تحتل بخلاف دول العالم الإسلامي الأخرى هو بناء علي أساس زائف تماماً لأن تركيا الوطن القائم الآن قد احتل من عدة دول لبضع سنوات في نهاية الحرب العالمية الأولي وإلا فلماذا كانت حرب الاستقلال إذن. لكن الأهم من ذلك كثيراً أن تركيا الحقيقية في عقل ووجدان الأتراك وخصوصاً أتراك الفترة السابقة لسقوط الخلافة عام ١٩٢٤م في الدولة العثمانية بكل دولها – وفي القلب منها الدول العربية علي وجه الخصوص- والمرارة التي يجدها القارئ في نفوس الأتراك علي امتداد القرن التاسع عشر الاستعماري لربما تفوق كثيراً المرارة التي تجدها في نفوس سكان هذه الدول من العرب . والذي يقرأ علي سبيل المثال تاريخ الحملة الفرنسية علي مصر سيدرك كيف كان عشرات الآلاف يتوافدون للدفاع عن مصر والشام ليتم إفناؤهم جميعاً ليتدافع عشرات الآلاف غيرهم ليلقوا نفس المصير. حتى أن الخطة الإنجليزية للقضاء علي الحملة كانت تقوم علي فكرة مؤداها : أنه في مقابل كل عشرة آلاف تركي يقتلون يتم قتل ألف جندي من الفرنسيين نظراً لتفوق التكتيك الحربي للجيش الفرنسي علي جيوش العالم أجمع في ذلك الوقت . إذن سيتم القضاء علي الحملة الفرنسية لا محالة لأن الأتراك لن يتوانوا عن التضحية بربع مليون تركي يتم القضاء في مقابلهم علي خمس وعشرين ألف من الجنود الفرنسيين فيتم القضاء علي الحملة التي كان

قوام جنودها حوالي خمس وثلاثون ألف . ثم يأتي بعد ذلك أناس يقولون أن تركيا لم يتم احتلالها ولم تعان من الشعور بالعداء للغرب فتدهش لامتلاكهم كل هـذه القـدرة علـي الزيف وتدهش من الجهلاء عندنا الذين ينقلون مثل هذا الكـلام وكأنــه مـسلمة مــن المسلمات.

أما مسألة الاتفاق أو الاختلاف مع القيم الغربية فهي مسألة تتعلــق بالمرجعيــة الذاتية لكل من النسقين من القيم ولا تتعلق بالتطور الموضوعي لارتباطاتها التاريخيــة والواقعية وادعاء ذلك يعني تفريغ الإسلام من محتواه المقدس. كمــا أن الحـديث عــن الانسجام مع القيم الغربية بفرضية مسبقة علي أنه منحى إيجابي يعني الانفـصال عــن القواعد والأحكام الإسلامية واستبطان المركزية القيمية للنسق الغربي .

ومسألة مخاطبة الإرادة الحرة للأفراد لا خلاف نظري فيها بين حركــة كــون والحركات الإسلامية الأخرى وإن كان التأكيد عليها في حركه كولن أوضح (وأن كانت المخاطبة يشوبها قدر من الاستعلاء الكهنوتي الممارسة العملية علي تفاوت بين الحركات الإسلامية المعاصرة بما في ذلك حركة كولن ذاتها .

أما الإكراه المجتمعي فهو يرتبط بامتلاك السلطة أو عدم امتلاكها فمــن غيــر السلطة تغدو الحديث عن الإكراه المجتمعي لغو فارغ ويبدو أن العكس أيــضا صــحيح بمعني إمكان وجود السلطة دون أن تصطحب معها درجة ما مــن درجــات الإكــراه المجتمعي وإلا كان الافتراض تكون المجتمع من كائنات ملائكية أو من آليات مصطنعه فهذا أمر يناقض الواقع ويناقض قبل ذلك الكثير من الأحكام التي جاءت في دولة المدينة ويناقض الكثير من العبارات التي ذكرناها كولن نفسه في كتابه عن الـسيرة وفـصل الخطاب في هذا الموضوع هو قول عثمان بن عفان رضي الله عنــه : " إن الله ليــذع بالسلطان ما لا يذع بالقرآن " .

واستهداف السلطة في ذاته لا يعني تحول حركة إسلامية ما إلي أيديولوجيا ولكن المسألة ترتبط بمفهوم النظرة المتعلقة بهذا الاستهداف هل هو متضمن داخــل فعاليــات

الحركة كعنصر من العناصر أم هو محور الحركة وهو الوحيد فيهـا وهـل اسـتهداف السلطة هذا هو غاية في ذاته أم وسيلة لسهولة نفاذ الدعوة ومن ثم لا يمكن وصم حركة إسلامية بأنها حولت الدين إلي أيديولوجية (وهي فزاعة تستخدمها المخابرات الأمريكية والكثير من العلمانيين) إلا إذا أدى استهدافها للسلطة إلي استغراقها بالكامل نظريـاً أو عملياً في هذا الاتجاه . أما السعي إلي السلطة كوسيلة لإذاعة الدعوة ونفاذها فهو جزء لا يتجزأ من الواجب الدعوى ذاته .

وعدم الانفصال عن المجتمع هو من مقتضيات فاعلية الدعوة ذاتها وكما يقـول الرسول صلي الله عليه وسلم فيما معناه : " المسلم الذي يعاشر الناس ويتحمل أذاهم خير من المسلم الذي لا يعاشر الناس ولا يتحمل أذاهم " .

أما الحديث عن التلاؤم مع المجتمع (وهو مفهوم ينسق مع منهج الحركة فـي الانسجام مع القيم الغربية) فهو أمر خطير للغاية فهو يعني تكييف الإسلام مـع الواقـع المجتمعي القائم وليس تطوير المجتمع للتوافق مع القيم الإسلامية والمعني الأول يـؤدي إلي التعامل مع الإسلام نفسها تعاملاً براجماتياً يشترط عدم التناقض مع الواقع المجتمعي أو إزعاجه، وعلي المستوى العملي يعني الاكتفاء ببعض الجوانب في الأمر بـالمعروف والتخلي عن النهي عن المنكر .

وبوجه عام فالمفاهيم العملية لحركة كولن تشابهها كثيراً حركة عمرو خالد فـي مصر وهو الأمر الذي يفسر لنا القبول والتعاون المشترك بين هذه الحركات ولماذا لهـا كل هذا القبول والترحيب من العالم الغربي وكيف أن الجائزة التي أخذ فيها عمرو خالد المركز السادس علي العالم تقريباً كان صاحب المركز الأول فيها هو كولن نفسه .

البروفسور نجم الدين أربكان

البروفسور نجم الدين أربكان

ولد البروفسور نجم الدين أربكان في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٦م بمدينة سينوب بأقصى الشمال علي ساحل البحر الأسود . والده (محمد صبري أربكان) من الأمراء السلاجقة المعروفين (ببني أوغوللري) ، وكان جده آخر وزراء ماليتهم . ولهذا فقد كانت أسرته تلقب لناظر زاده (أي أبن الوزير) ثم تحول اللقب إلي أربكان عندما صدر قانون الألقاب في تركيا .

درس والده (محمد صبري بك) الشريعة والقانون في استانبول ، وتولي منصب القضاء الشرعي والمدني أربعين عاماً في مختلف مدن الأناضول .

تخرج عام ١٩٤٨ من كلية الهندسة الميكانيكية وكان ترتيبه الأول بين المتخرجين ، ونظراً لتفوقه فقد عين مدرساً في الجامعة نفسها . وقد قام بتدريس مادة المحركات ومحركات الديزل لطلاب السنة النهائية في الجامعة خلال الفترة من عام ١٩٤٨م وحتى ١٩٥١م . وفي هذه الأثناء نشر عدداً من البحوث والدراسات والكتب ، وتقدم برسالة الدكتوراه وكانت بعنوان (توصيل الحرارة في المحركات . وتقديراً لذكائه وتفوقه أوفدته الجامعة للتخصص في ألمانيا .

مكث في ألمانيا سنتين من عام ١٩٥١م حتى ١٩٥٣م نال فيهما شهادة الدكتوراه من جامعة آخن في ألمانيا الغربية في هندسة (المحركات والترموديناميك).

حصل عام ١٩٥٣م علي درجة مساعد بروفسور في جامعة الهندسة في استانبول . في المدة من ١٩٥٣م إلي ١٩٥٤ عمل رئيساً لمهندسي الأبحاث ي مصانع محركات (كلوخز – هومبولدت – دوتز) بمدينة كولن الألمانية ، وتوصل إلي اكتشافات عديدة في مجال إنتاج محرك للدبابات يعمل بكل أنواع الوقود .

عام ١٩٥٤ – ١٩٥٥ أدي واجب الخدمة العسكرية وقام خلالها بالتدريس في مدرسة الاستحكام العسكرية وبمهمة المدير الفني لمركز الصيانة في (هاليجي أوغلو).

عام ١٩٥٦م عمل ثانية في مصانع محركات دويتز وقام بأبحاث جديدة في مجال المحركات . خلال الفترة من عام ١٩٥٦ وحتى ١٩٦٥م عمل أستاذاً مساعداً في جامعة الهندسة في استانبول ورفع عام ١٩٦٥م إلي درجة بروفسور بقسم المحركات .

ومن عام ١٩٦٥ وحتى ١٩٦٩م عمل أستاذاً للمحركات في جامعة الهندسة في استانبول وقد نشر خلال هذه الفترة العديد من الكتب والمقالات العلمية وألقي كثيراً من المحاضرات والدروس وشارك في العديد من المؤتمرات المحلية والدولية .

أسس أربكان في عام ١٩٥٦م مصنعاً لإنتاج محركات الديزل تحت أسم (المحرك الفضي) ، واستمر حتى عام ١٩٦٣ رئيساً لمجلس إدارة المصنع .

حدثني الأستاذ أربكان ... أن أحد أصدقائه زاره في المصنع الذي أقامه ... وأبدي إعجابه بما رأي ... ولكنه سأل الأستاذ : وهل تعتقد أن مثل هذا العمل يصحح الأوضاع في تركيا ... ؟ وتلاقت النظرات ... وأدرك الأستاذ أنه لابد من دخول عالم السياسة [١].

تولي أربكان عام ١٩٦٦م منصب رئيس دائرة الصناعة التابعة لإتحاد غرف التجارة والصناعة التركية . وفي عام ١٩٦٨م أصبح عضواً في اللجنة التنفيذية للإتحاد، وفي عام ١٩٦٨م أنتخب رئيساً له .

وللإتحاد أهمية خاصة في السياسة التركية ، فهو الذي يوجه الفعاليات الصناعية والتجارية في البلاد . ولأمر طبيعي أن تحرص القوي الرأسمالية والغربية والعلمانية علي السيطرة علي مثل هذا الجهاز .

---

(١) راجع مصطفي الطحان . مرجع سابق : ص ٢٥٧ – ٢٥٩ .

وإعمالاً لدورها الطبيعي في إيغار الدور ضد الإسلاميين كتبت الصحف العلمانية تقريراً ضخماً عن خطورة هذا المنصب وإمكانية تأثيره في جذب الاقتصاديين إلى التوجه الإسلامي وتجييشهم ضد القوي لعلمانية وهو الأمر الذي كان يخشاه سليمان ديميرال حين تحدي أربكان وتمكن من عزله وإبعاده عن رئاسة إتحاد الغرف التجارية والصناعية .

إن دراسة هذا التقرير وأمثاله من التقارير التي صدرت بكثرة في أواخر الستينيات تدل علي إدراك القوي المختلفة لحقيقة المعركة ... وليس أدل علي دقتها من تسمية أربكان رئيساً للوزراء قبل أن يدخل هو وحزبه الحكومة بست سنوات علي الأقل.

أن حادث عزل نجم الدين أربكان من منصبه كرئيس لإتحاد الغرف الصناعية والتجارية أوجد نقمة كبيرة في أوساط الإسلاميين ضد حزب العدالة اليميني الحاكم ، ونبه الإسلاميين إلي أن أهداف هذه الأحزاب وموقفها من الإسلام واحد وإن تباينت شعاراتها أو اختلفت قادتها .

حزب النظام الوطني

في انتخابات عام ١٩٦٩م خاض نجم الدين أربكان المعركة الانتخابية مستقلاً عن مدينة قونية ... ووقفت قونية – المدينة المحافظة – إلي جانب أربكان وأعطته أوات أبنائها شيوخاً وشباباً ... وكان نجاحه المتفوق مفاجأة أذهلت الحزبين الرئيسيين .

وأسس أربكان أول حزب إسلامي في تركيا ، وهو حزب النظام الوطني في يناير ١٩٧٠م ، ومثل الحزب في البرلمان من خلال أربكان ونائبين آخرين هما حسن أقصاي ، وعارف حكمت غونه

أيديولوجية حزب الرفاه وبرنامجه السياسي

في حوار صحفي له قال نجم الدين أربكان : " نحن لسنا حزباً سياسـياً ولكننـا حركة "[1] ومفهوم الحركة يعني أيديولوجية ومنطلقات فكرية أشمل من مجرد العمـل السياسي وأبقي منه والحركة التي يقصدها هنا " أربكان " هي حركة " الملي جورش" .

وحركة الملي جورش كم يقول أربكان : "هي تحويل المجتمـع التركـي إلـي الإسلام ، مكان واحد يرتبط بشئ واحد ... فتركيا خدمت الإسلام ألف سنة بكل جهـدها حتى دقت أبواب " فيينا " و " والاشيا " والنبي صلي الله عليه وسلم يقـول : " لتفـتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها " ما هي الخصوصية التركية هنا؟ الجيش للحق والإسلام وهذا عز وشرف لتركيا ، عزتنا في الإسلام".

الملي جورش " مرتب علي تاريخ هذا الشعب الذي تاريخه ألف سنة مرتب علي احترام الدستور والقانون داخل البلد نتيجة لذلك " الملي جـورش " تطالـب بالدسـتور والقانون وفي الجهة الأخرى السيناريو الصهيوني في التطبيق ونحن نقول لهم " اتركوا ما تطبقون واحترموا الدستور ، فحركة " الملي جورش " هي الحزب السياسي الوحيـد الذي يريد تطبيق الدستور والقانون كاملاً ، وغاية "المـلي

جورش " ليس تغيير الدستور وإنما تطبيقه ، نحن كالشرطة نمـسك الأذن الـصهيونية ونقاوم السيناريو الصهيوني .. الملي جورش " تريد حفظ تركيا وحمايتها وهـي وفـق عقيدة وتاريخ الشعب ووفق القانون والدستور وعملها واحد هو رفع ما هو ضد القانون، الملي جورش " كالشرطة تحافظ علي الشعب".

ويذهب " شوكت قازان إلي أن الملي جورش "[2] دولة مستقلة غير تابعة للدول الكبرى وأن يكتفي داخلياً بنفـسه وأن تحفـظ لهـا أخلاقهـا المعنويـة والديمقراطيـة

---

(١) نقلاً عن د . كمال حبيب . مرجع سابق : ص ٢٣٣

(٢) نقلاً عن المرجع السابق : ص ٢٣٣ - ٢٣٤

الكاملة وحرية الاستقلال وحقوق الإنسان وأن تكون تركيا نامية في كل المجالات الثقافية والاجتماعية ونحن بقايا الدولة العثمانية ولابد أن تكون تركيا قوية ، والمسلمون متساوون أمام القانون لئلا يكون فساد من جهة الأكراد فهم إخواننا ونحن نعيش معاً ولكن لا تمزق وحدتنا (**إنما المؤمنون إخوة**) (**الحجرات** : ١٠) ونحن المسلمين أمة واحدة لا فرق بيننا عند الله عرب وكرد كلهم متساوون وأمريكا وإسرائيل تريد أن تمزق وحدتنا .

نحن نقول تركيا أولاً ثم العالم العربي والإسلامي ثم العالم كله ، ونقول " خير الناس من ينفع الناس " ، نحن مرتبطون بدستور تركيا ونتحرك علي قواعد السياسة التركية وفقاً للقوانين السياسية ومنطلقاتنا هي : أن تكون مفيداً للناس ، وطريقنا هو الإقناع والحوار ، ونحن موجودون لليسر وليس للعسر ، ونريد الاستفادة من كل مجالات العلم والفن والتكنولوجيا في عصرنا الراهن وهدفنا التنمية في جميع المجالات.

اهتمامنا بالإسلام أعلي من كل شئ والأديان الأخرى في نفس المستوي (**لا إكراه في الدين**) (**البقرة** : ٢٥٦) ونحن نحب الخلق للحق ، نحن نحب الخلق بسبب خلق الله لهم ، وأربكان يقول " حق غنمة واحدة إلي جانب حق ٩٩ غنمة من أصل مئة " . وهو يري أن الانتخابات صيغة متطورة لسيطرة القوي الغني الذي تخافه الناس فتنتخبه ، فالديمقراطية واسطة وليست غاية والغاية هي إقامة نظام السعادة " إننا لسنا حزب الممنوعات ولكننا نريد سعادة ٦٦ مليوناً و٦ مليارات إنسان .. وهو يري أن الكمالية " كأيديولوجية لم تكن في عهد " أتاتورك " وإنما بعده" [١] .

ويقول ياسين خطيب أغلو: " برنامجنا يختلف تماماً عن الحركات الإسلامية كلها ، النظام يختلف ولنا قانون خاص كحزب سياسي ، أربكان " وشوري الحزب

---

(١) نقلا عن د . كمال حبيب . مرجع سابق : ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .

نعمل علي كيف نأتي أولاً للشعب بتحقيق " الرفاه " الاقتصادي وبعد ذلك الشعور الإسلامي" [1].

ولم يكن الأمر بالهين علي العلمانيين في تركيا ولا علي المؤسسة العسكرية التي ورائهم فتقدم مجلس الأمن القومي في ٢٨ فبراير ١٩٩٧ إلي أربكان طالبه فيها بالاستجابة لمطالب الجيش التي بلغت ١٨ مطلباً تؤكد جميعاً علي حماية العمانيين الأتاتوركية وتأمره بالتراجع عن كل الخطوات التي تهددها فيما أطلق عليه (الانقلاب الرابع) والذي اكتملت خطواته برفع رئيس الادعاء العام دعوي أمام المحكمة الدستورية طالب فيها بحظر نشاطات حزب "الرفاه" في ٢١ مايو ١٩٩٧م فتقدم " أربكان " باستقالته في ١٨ يونيه ١٩٩٧م إلي رئيس الجمهورية " سليمان ديميريل فقبلها وكلف " مسعود يلماظ " بتشكيل الحكومة .

---

(١) نقلا عن د . كمال حبيب . مرجع سابق : ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .

سليمان ديميريل وحزب العدالة

تعهدت الحكومة العسكرية بالعودة إلي مبدأ الإشراف الحكومي علي الاقتصاد كما نادت بعزمها علي ضم تركيا إلي السوق الأوروبية المشتركة، ومع أن السلطة العسكرية الجديدة عملت علي إحياء وتثبيت النظام السابق إلا أنها فشلت في إعادة عقارب الزمن إلي الوراء ، بل اضطرت إلي تقديم تنازلات جديدة علي الصعيد الإسلامي .

أعاد الجيش السلطة للمدنيين في ١٩٦١ ، فانخرط أصحاب التوجهات المحافظة من أتباع مندريس في عضوية حزب جديد باسم " حزب العدالة " ، اعتبر نفسه امتداداً للحزب الديمقراطي ، وصار زعيمه (الثاني) سليمان ديميريل رئيساً للوزراء عام ١٩٦٥م .. وأصبح منذ هذا التاريخ رمزاً من رموز النظام الحزبي والسياسة التركية ، وظلت التوجهات المحافظة طيلة الستينيات تحفظ لنفسها مكاناً لقد أضحي الإسلام المحور الثابت للحياة السياسية التركية من جديد .

وكان حزب العدالة هو أول حزب سياسي يتشكل بعد انقلاب ١٩٦٠ بزعامة سليمان ديميريل وكان يعد امتداداً للحزب الديمقراطي ومن ثم فقد أشار بوضوح في نظامه الداخلي إلي أن الدولة العلمانية لا تطلب من المواطنين قطع علاقتهم مع الدين وكل مواطن حر في أداء عبادته وفق معتقداته الدينية .

وفي أول انتخابات جديدة جرت بعد الانقلاب في ١٥ أكتوبر ١٩٦١م ، نال حزب الشعب ١٧٣ مقعداً بينما حصل حزب العدالة (وهو وريث الحزب الديمقراطي) علي ١٥٨ مقعداً من مجموع ٤٥٠ مقعداً ، وانتخب جمال جورسيل (قائد الانقلاب علي مندريس) رئيساً للجمهورية . وكلف عصمت أنينو بتشكيل الوزارة .

بعد الانقلاب احتفظ حزب الشعب الجمهوري باسمه ، وكذلك حـزب الفلاحـين القومي الجمهوري بزعامة عثمان بولوك باشي ... وفي عام ١٩٦١م ضـعف الحـزب وغير أسمه إلي الحزب القومي .

أما الأحزاب الجديد فهي حزب العدالة ، وحزب العمل التركي ، وحزب تركيا الجديدة ، وفي أواخر الستينيات ظهرت أحزاب أخري مثل حزب الوحدة برئاسة حسن تحسين بركمان وهو حزب مدعوم من الأقلية الشيعة في شرق الأناضول ، وحزب الثقة برئاسة تورهان قيزي أوغلو وهو حزب علماني كمالي .

وفي انتخابات عام ١٩٦٥م نال حزب العدالة الأغلبية (٥٣%) بينما لم يحصل حزب الشعب علي أكثر من (٢٨%) ... وبالتالي شكل سليمان ديميرال الحكومـة ... ونظراً لسوء حالة رئيس الجمهورية الصحية ، فقد انتخـب جـودت صـوناي رئيسـاً للجمهورية ... كان هناك تشابه بين حكم حزب العدالة وحكم الحزب الديمقراطي ... في السياسة الاقتصادية ، وفي تطبيق العلمانية ، وإطلاق يد المـلاك، والعلاقـة العـضوية بالغرب ، وإطلاق يد الإسلاميين علي حذر .

وعلي الرغم مما سبق فقد كانت الساحة مناسبة أيضا لقيـام عـدد كبيـر مـن الحركات اليسارية المتطرفة ... بالرغم من أن الدستور يحظر تأليف الأحزاب الشيوعية والأحزاب الدينية .

وفي أواخر الستينيات ، رفض سليمان ديميريل زعيم حزب العدالة إدراج نجـم الدين أربكان علي قائمة مرشحي الحزب في الانتخابات، فخاضها هذا الأخير مستقلاً عن مدينة قونية ، وفاز بعضوية البرلمان مما شجعه علي التفكير في تأسيس حـزب يجمـع ويعبر عن الاتجاهات الإسلامية بصورة مباشرة ، دونما التداخل مـع اتجاهـات يمـين الوسط ، التي كان يمثلها حزب العدالة ومن قبله الحزب الديمقراطي .

وبالفعل تأسس عام ١٩٧٠ " حزب النظام الوطني " بزعامة أربكان ، وسيتضح بعد فترة أن الحدث رغم بساطته سيعد أحد أهم التطورات في السياسة التركية منذ نشأة

الجمهورية . وسيمضي أربكان بحزبه هذا متخطياً كافة العقبات والصعوبات التي وضعتها الدولة العلمانية ومؤسساتها أمامه . كان تأسيس الحزب مؤثراً فيمن عرفوا بأعضاء " الجناح الديني " في حزب العدالة ، الذين رأوا الانسلاخ عن ديميريل والانضمام لأربكان ، باعتباره المعبر الحقيقي عنهم وعن أفكارهم ، وحذا حذوهم في ذلك إلي حد ما قسم من المتعاطفين من قوي اليمين القويم في تركيا وقبل ذلك كانت العناصر المحافظة (والإسلامية) في تركيا تنخرط، إما في مجموعات داخل أحزاب أو تتحرك خارج النظام السياسي بأكمله وبشكل غير علني . من الآن فصاعداً لن يكون " الإسلام السياسي " مجرد ظاهرة مجتمعية أو جناح في حزب بل سيكون له حزبه المنفصل ، وسيظل حاضراً بشكل دائم في السياسة التركية حيث أصبح للحزب الجديد ثلاثة نواب في البرلمان،هم : أربكان ونائبان من المستقلين ، انضما له بعد تأسيس الحزب.

وفي واقع الأمر لم يستمر ذلك الوضع طويلاً ، حيث جاء الانقلاب العسكري الثاني في ١٩٧١م ، الذي جري بعده وبضغوط منه حظر حزب النظام الوطني عبر حكم من المحكمة الدستورية ، استندت فيه إلي انتهاكه لمبادئ العلمانية الواردة بالدستور.

بعودة الحياة البرلمانية ، أسس أربكان حزب الخلاص الوطني في أكتوبر ١٩٧٢م ، وخاض به انتخابات العام التالي فحصل علي ١١,٨ % من الأصوات ، أتاحت له ٤٨ مقعداً بالبرلمان من إجمالي ٤٥٠ مقعداً . ساهم في هذه النتيجة إلي حد كبير حجم الدعم الذي تلقاه من جماعتين محافظتين (غير رسميتين بالقطع) هما النقشبندية والنورسية ، اللتين اعتبرتا النتيجة انتصاراً لهما لم يحدث في الجمهورية من قبل .

علي أن الأهم هو أن أيا من الحزبين الكبيرين الآخرين : حزب الشعب الجمهوري (اليساري) وحزب العدالة (يمين الوسط) ، استطاع الحصول في هذه الانتخابات علي نسبة تمكنه من تشكيل الحكومة بمفردهما ، ومن ثم أصبح اربكان بمثابة

الشريك المفروض علي أي منهما إذا أراد تشكيل الحكومة دون غريمه الآخر ، وبالفعل ضم ائتلاف ١٩٧٣ حزبا الشعب الجمهوري بزعيمه الجديد بولنت إيجيفيت ، والخلاص الوطني بزعامة أربكان .

وفي حقيقة الأمر ، فقد رأى إيجيفيت في تحالفه مع أربكان السبيل الوحيد لعودة الحزب للسلطة بعد خروجه منها عام ١٩٥٠م فأصبح أربكان نائباً لـرئيس الـوزراء ، واحتفظ لحزبه بعدد من " الوزارات الأساسية " ، التي كان من أهمها الداخليـة والعـدل والصناعة .

من المنظور العام أصبح واضحاً أن لشراكة أربكان وحزبه في الحكومة مردوداً إيجابياً علي " الإسلام السياسي " في تركيا ، انعكس في تعزيز مساحة التأييد التي يحظي بها في الرأي العام ، وعندما سقطت حكومة إيجيفيت في عام ١٩٧٤م وجـري تكليـف حزب العدالة اليميني (بزعامة سليمان ديميريل) بتشكيل حكومة جديدة، فإنه لم يستطع ذلك دون الائتلاف مع أربكان ، للحصول علي ثقة البرلمان ، وتولي أربكـان منـصب نائب رئيس الوزراء كذلك ، واحتفظ لحزبه ببعض الوزارات المهمة .

بعد انهيار تلك الحكومة ، دخل أربكان في ائتلاف جديد بزعامة ديميريل أيـضاً بناء علي نتائج انتخابات يونيو ١٩٧٧ ، ثم تولي حزب الشعب الجمهوري تشكيل حكومة في يناير١٩٧٨ ، انهارت بعد فقدان الأغلبية في البرلمان بسبب نتائج انتخابات تكميليـة جرت في أكتوبر ١٩٧٩م، نجح فيها حزب العدالة من جديد، فقام ديميريل بتشكيل آخر حكومة خلت من أربكان قبل الانقلاب العسكري الثالث ، الذي وقـع فـي ١٢ سـبتمبر ١٩٨٠م .

هكذا مضت السبعينيات تصنف إلي رصيد ومساحة التيار المحافظ في الـسياسة التركية لعدة أسباب ، منها : تأثر المناخ الداخلي في تركيا خلال هذا العقد بانعكاسـات المد اليساري العام في الغرب والعالم بشكل أتاح الفرصة لاستمرار وتمدد نجـم الـذين أربكان وحزبه في المجتمع برضاء الدولة ، لكن الأمر ما لبث بنهاية العقد أن وصل إلي

حالة استقطاب سياسي حادة بين الجماعات اليسارية واليمينيـة القوميـة علـي وجـه الخصوص ، تفجرت بشكل مؤلم في مواجهات دموية يومية ، كانت تجري في الجامعات والمدارس والطرقات العامة ووسائل المواصلات، بين أنصار الـشيوعية ومجموعـات اليمين القومي المتطرفة ، وهو الوضع الذي استدعي تدخل الجيش (١) .

(١) راجع ياسر أحمد حسن . تركيا البحث عن مستقبل : ص ٧٧ : ٨٠ .

تورجوت أوزال

في الرابعة فجر ١٢ سبتمبر ١٩٨٠ تحركت الآليات العسكرية للتحكم والسيطرة علي المواقع الرئيسية في البلاد لإنهاء الفوضى. كان رئيس الأركان الجنرال ، كنعان إفرين ، زعيم الانقلاب يتصور أنه سيتعين علي الوحدات المنفذة قتال الجماعات اليسارية علي وجه الخصوص ، ولكن ذلك لم يحدث .

استسلم رئيس الوزراء سليمان ديميريل زعيم حزب العدالة ، وكذلك نجم الدين أربكان زعيم حزب الرفاه ، وبولنت إيجيفيت زعيم حزب اليسار الديمقراطي، ولم يتم العثور علي ألب أصلان توركيش ، زعيم حزب الحركة القومية ، الذي اختبأ لفترة ثم استسلم طواعية بعد يومين استجابة لتحذير ، وجهه له رئيس الأركان شخصياً عبر الإذاعة .

حسبما يقول الأتراك الذين عاصروا تلك الأيام :" تنفس معظم الناس الصعداء بوقوع الانقلاب قائلين " أخيراً تدخل الجيش " . استقبل مدير أمن أنقرة وقيادات الشرطة ضباط الجيش ، الذين حضروا إليه قائلاً " ليحم الله الأمة "وانخفضت إن لم يكن توقفت عمليات القتل المتبادل في الشوارع بين الجماعات اليمينية واليسارية " [١].

شكل إيفرين مجلساً للأمن القومي ، كان جميع أعضائه من العسكر ، وأعاد العمل بدستور ١٩٦١م ذي القيم الديمقراطية ، ولكن بعد إضافة مادة ، تقول أنه لا يمكن اعتبار أي من قرارات مجلس الأمن القومي ، الذي يترأسه ، غير دستورية.

كان إيفرين ضابطاً في الثالثة والستين من عمره لدي وقوع الانقلاب ، ابناً لأسرة تركية رحلت من البلقان قبيل نهاية الدولة العثمانية .. كان أبوه مفتشاً بدائرة

---

(١) المرجع السابق : ص ٨١ .

الديون العثمانية ، هاجر من مقدونيا إلي الأناضول ، وكانت والدته من أتـراك بلغاريـا المهاجرين للجمهورية الجديدة بعد ١٩٢٣ . انضم للكلية العسكرية بعد طفولة يتذكر منها قصص حرب تحرير البلاد من المحتلين اليونانيين في أزمير ، وما حولها حيث أقامـت عائلته لفترة .... كان يؤمن كعسكرى محترف بأقصى درجات الانضباط اللازمة لتحقيق أي إنجاز .

واعتبر إيفرين أن فرص تنفيذ عقوبة الإعدام بعد الانقلاب كـان هـو الـسلاح الوحيد الذي قضي علي عمليات القتل السياسي الفوضوية في الشوارع التركيـة . قـال للمجموعة العسكرية المنفذة للانقلاب قبل تحركها إنه لو حدث أن مات أحدهم، فإن جميع أعضاء الجماعة السياسية أو الحزب المسئول عن ذلك سيقتادون لإطلاق النار عليهم في ميدان عام ، وخلال عهد سلطة الانقلاب (١٩٨٠ – ١٩٨٢) وقع علي ٢٥ مرسـوماً بتنفيذ أحكام للإعدام ، جري تنفيذ آخرها في ١٩٨٤.

شكل إيفرين حزبين أحدهما علي اليمين والآخر علي اليسار ، تزعم كل منهمـا جنرال سابق ، وسمح بتشكيل حزب ثالث تزعمه تورجوت أوزال نائب رئيس الوزراء المدني في حكومة الانقلاب ، ولم يتصور أن هذا الأخير هو الذي سيلقي تأييد النـاخبين في انتخابات ١٩٨٣م ، التي كانت نتيجتها تعني رفض ما قام به العسكر برغم كل شئ .

وفق الدستور الجديد " جري إنشاء مجلس الأمن القـومي التركـي يـضم فـي عضويته رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ووزراء الداخلية والدفاع والخارجيـة إلـي جانب رئيس الأركان ونوابه وقادة الأسلحة . كانت صلاحيات المجلس أساسية من وجهة نظر العسكر لحماية العلمانية والجمهورية ، أو بالأدق لتجنب تدهور الأمور علـي يـد الحكومات بما قد يضطر الجيش في النهاية إلي التدخل . يجتمع المجلس مرة كل شـهر برئاسة رئيس الجمهورية لمناقشة مختلف القضايا الداخلية والخارجية . ويصدر بشأنها " توصيات " لأجهزة الدولة هي في حقيقتها أوامر واجبة التنفيذ " [١].

---

(١) المرجع السابق : ص ٨٥ – ٨٦ .

ويري الأستاذ ياسر أحمد حسن أنه " وعلي الرغم بما قامت به سلطة الانقلاب العسكري فيما يتعلق بكبت الحريات والممارسات الديمقراطية ، فإنها ساهمت – ربما دون أن تدري – في تدشين أسس مرحلة جديدة تماماً في السياسة التركية . رأي العسكر ملامح تفكك المجتمع التركي من ناحية القيم الروحية والأخلاقية ، ولم يجدوا أمامهم إلا الدين وسيلة لاسترجاع تماسك البناء القيمي في المجتمع ، فجري التركيز علي دور الدين في الحياة الشخصية والعامة علي السواء . وعندما بدا ذلك في جوهره موحياً بالتعارض مع الأسس الكمالية للجمهورية التي يفترض أنهم يحمونها رأوا إعادة تقديم الكمالية للمواطنين بشكل جديد به قدر كبير من التصالح مع الدين " [1].

قررت سلطة الانقلاب تدريس الدين كمادة إجبارية في المدارس الأمر الذي كان يكفل تقديم مفاهيم دينية ترتضيها الدولة للتلاميذ ، لاسيما وأنها اعتقدت في أن تصاعد نشاط وتطرف الجماعات اليسارية في تركيا خلال السبعينيات يرتبط بالشيوعية والإلحاد والاتحاد السوفيتي وأن زيادة " الجرعة الدينية " للشباب لتنشئته بشكل رافض للفكر الشيوعي من شأنه تجنيب البلاد الخوض مجدداً في حلقة مد يساري مماثلة . أصبح شعار المرحلة هو أنه ليس هناك تناقضاً بين أن يكون المواطن التركي علمانياً يفخر بانتمائه للأمة التركية ، ويؤمن بالجمهورية ، وينظر للغرب كنموذج ، ويثق في الدولة الكمالية ، وبين أن يكون مسلماً صالحاً في الوقت ذاته أي التأكيد علي الإسلام التركي والعثماني الجديدة واستمراراً لتيار نامق كمال – عدنان مندريس – سليمان ديميرل – تورجوت أوزال ... ثم يأتي بعد ذلك رجب طيب أردوغان فيتحدث العلمانيون عندنا علي أنه قد أتي بإبداع جديد وتطوير عظيم للفكر السياسي الإسلامي .

في عام ١٩٨٣م أعيدت بناء علي الدستور الحياة الحزبية ، فسمح بتكوين الأحزاب السياسية لكن وجود الزعامات السياسية المخضرمة في الحظر ، الذي فرضته

---

(١) المرجع السابق : ص ٨٦ .

سلطة الانقلاب أدي إلي نجاح الحزب ، الذي تأسس علي يد مدني ... تورجـوت أوزال زعيم حزب " الوطن الأم ".

أصبح أوزال رئيساً للوزراء بأصوات غالبية الناخبين ، الذين رأوا فيه المخرج الوحيد من قبضة العسكر " وخرج الرجل في ظل المناخ المتسامح مع الدين ليتحـدي " المقدسات العلمانية " التي سار عليها أسلافه فذهب لأداء صلاة الجمعة في المسجد علنـاً وأمام عدسات التليفزيون والمصورين ، كما ذهب لأداء مناسـك الحـج ، ودأب علـي استضافة سفـراء الدول الإسلامية بأنقرة علي مائدة إفطار في شهر رمضان مـن كـل عام ، وطرح علي رئيس الجمهورية رفع أسبقية رئيس هيئة الشئون الدينية في مراسـم الدولة" [١] .

ويمكن تقييم صورة مختصرة عن أوزال كتالي :

بعد سقوط حكومة ديميريل بوقوع الانقلاب العسكري الثاني في ١٩٧١م ، عاد أوزال للولايات المتحدة ليعمـل خبيـراً بالبنـك الـدولي لحـساب أحـد مـشروعات التعدين والصناعة . قال أحد زملائه الغربيين الذي شاركه غرفة العمل أنه كان ينسحب من الاجتماعات للذهاب إلي الصلاة ، التي كان يلتزم بأدائها في أوقاتها كل يوم ، عـن هذه الفترة من حياته يقول شقيقة كوركوت أوزال " أن الحياة في الغرب أكدت لتورجوت أن شيئاً ما من الخطأ يعيش فيه الأتراك ، وأن الإيمان لا يمكن أن يكون معوقاً للتقدم . قال تورجوت في سخرية لكاتب سيرته لاحقاً أنه لم يتعلم في نشأته كيف يمارس الصلاة، وأن كبار الموظفين المدنيين كانوا يهتمون في بداية عهد الجمهورية بإحيـاء مناسـباتها المختلفة بالاحتفال الراقص علـي الطريقـة الغربيـة ، لأنهـا " الطريقـة العـصرية للاحتفال"!!!.

---

(١)المرجع السابق : ص ٨٧ .

عاد أوزال لتركيا "[1] في ١٩٧٣م وعمل في القطاع الخاص كمنسق عام لأحدي المؤسسات الاقتصادية البازغة ثم حاول تجربة حظه في السياسة بخوض انتخابات عام ١٩٧٧م علي قائمة حزب الخلاص الوطني (تحت زعامة نجم الدين أربكان !!) لكنه فشل . مع نهاية السبعينيات عينه سليمان ديميريل رئيس الوزراء وقتئذ مستشاراً اقتصادياً للحكومة ، وكلفه بإيجاد حل لمشكلات الاقتصاد التركي التي كانت بالغة التفاقم حينها ، فكان وراء ما عرف بقرارات ٢٤ يناير ١٩٨٠م التقشفية . طلبت المؤسسة العسكرية من الحكومة من يشرح لها مضمون القرارات وأهدافها لارتباط آثارها علي الأمن الداخلي ، فأوفده ديميريل للتحدث إلي العسكر فلفت أنظار الجنرالات إليه الذين كان من بينهم رئيس الأركان إيفرين. بعد عام من الانقلاب العسكري في ١٩٨٠م ، دعاه هذا الأخير للعمل في حكومة الانقلاب ب الأولي مسئولاً عن الاقتصاد .

خاض أوزال انتخابات ١٩٨٣م ، ونجح فيها بشكل لم يتوقعه أصدقاؤه ولا أعداؤه علي السواء ، فحصل علي ٤٥,١ % من الأصوات ، وقد خاضها في واقع الأمر دون منافسه حقيقية لوجود زعماء السياسة التركية المخضرمين في الحظر . ومن ثم لم يجد الناخب التركي ، الذي كان متعطشاً لعودة المدنيين للسلطة غير أوزال لانتخابه ، لاسيما وأن الحزبين المنافسين له فيها كانا من صنيع سلطة الانقلاب العسكري [2].

وفي عهد أوزال الذي كان رجل اقتصاد قبل كل شئ " ظهرت المؤسسات الإسلامية في ميدان الاقتصاد والمصارف فافتتحت ثلاث بنوك إسلامية هي بنك فيصل الإسلامي ودار البركة وبيت التمويل الكويتي وبلغ عدد المؤسسات الإسلامية حوالي ٧٤٥ مؤسسة . وفي عهد أوزال فرض الإسلام وجودة في الجامعات وأوساط المثقفين

---

(١) المرجع السابق : ص ٨٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ٨٨ – ٩٠ .

والصحفيين والنخب المدنية الحديثة وبرزت وسائل إعلام مقروءة ومسموعة ذات طابع إسلامي كما ظهرت بعض الإذاعات ومحطات التلفاز الخاصة " [١].

في ١٩ يوليو ١٩٨٣ تأسس حزب الرفاه بتوجيه من نجم الدين أربكان ، الذي كان يقضي فترة الحظر السياسي ، وخاض انتخابات عام ١٩٨٧ فلم يحصل إلا علي نسبة ٧,٢ % ، ثم خاض انتخابات ١٩٨٩ فارتفعت النسبة إلي ٩,٨ % ، ثم زادت في انتخابات عام ١٩٩١م التي خاضها بالتحالف مع حزب الحركة القومية فحصلا معاً علي ١٦,٧ % . كان الاتجاه ظاهراً يشير إلي صعود تأييد الرفاه لكن ما كان لافتاً للنظر هو ارتفاع نسبة التأييد في اسطنبول علي وجه الخصوص ، دون غيرها من المدن والبلدات والقرى ، الأمر الذي دعا الحزب وقيادته إلي محاولة فهمه حيث لم يكن عادياً أن يلقي أربكان تأييداً في اسطنبول التي هي المركز الحضاري الأهم والأقدم والأعرق في البلاد سواء في العهد العثماني أو في عهد الجمهورية ، ومعقل الاتجاهات والحياة " العلمانية " وهنا يبرز شكل واضح تأثير الزعيم الشاب الجديد أوردغان الذي كان عمدة اسطنبول في ذلك الحين .

مع عودة الزعامات المخضرمة لممارسة العمل السياسي اعتباراً من عام ١٩٨٧م وتأسيس بعضهم أحزاباً جديدة مثل الطريق القويم بزعامة ديميريل ، وتزعم الزعامات البعض أحزاباً قائمة بالفعل مثل الرفاه الذي تزعمه نجم الدين أربكان ، بدا انفراد أوزال بالساحة يتزعزع إلي حد ما ، ولكن أسطورته مع ذلك ظلت تحفظ له مكانته في موقع رئيس الجمهورية في حين ترك الحزب والحكومة لقيادة متواضعة سرعان ما تهاوت بضربات سليمان ديميريل العائد من الحظر .

---

(١) مصطفي الطحان . مرجع سابق : ص ٣٠٩ .

علي أن وفاة أوزال في ١٩٩٣م وانتهاء قيادة حزبه إلي يد مسعود يلمظ كان نقطة تحول في حياة الحزب ومسيرة يمين الوسط ، بل ومسيرة الديمقراطية التركيـــة. قـــدم بعض كبار الأعضاء استقالاتهم ، فأضعفوا شوكة الحزب وخرج منهم من ذهـــب إلـــي أحزاب أخري .

خرج من عباءة الوطن الأم بعض المنتمين لجناح يمين الوسط فيه ، فانـــضموا لحزب يمين الوسط الآخر ... الطريق القويم بزعامة تشيللر .

وخرج من عباءته المنتمون للجناح المحافظ (الإسلامي) ، فانـــضموا لحـــزب الرفاه بزعامة أربكان [١].

---

(١) راجع ياسر أحمد حسن . مرجع سابق : ص ٩٤ : ٩٦ .

أردوغان



رجب طيب أردوغان

ولد أردوغان في عام ١٩٥٤م لعائلة بسيطة تعيش في حي " بيوغلو " باسطنبول وبعد تلقيه تعليماً في مدارس " إمام – خطيب " الدينية ، التحق بجامعة مرمرة ، وحصل علي شهادة جامعية في الإدارة والمحاسبة عمل بها في إحدي شركات القطاع الخاص .

دخل منذ الصبا في العمل السياسي وانضم لحزب الخلاص الوطني ، وتنافس في ١٩٧٥م علي موقع رئيس وحدة الشباب بفرع الحزب في إسطنبول ، ثم عضواً في لجنة الشباب بالحزب علي مستوي تركيا كلها . وفي ١٩٨٤م أصبح رئيساً لفرع الحزب بحي بيوغلو، ثم رئيساً لفرع الحزب بأسطنبول، ثم رئيساً لبلدية اسطنبول عام١٩٩٤م [(١)]

أردوغان والأمريكان

يقول الكاتب السياسي التركي ناصوحي جورجنور :" آن الكثيرين من الكتاب والمؤرخين والسفراء والبيروقراطيين الأمريكيين بدءوا يشيرون إلي اسم واحد لقيادة الإسلاميين في تركيا هو أردوغان " .

حيث اعتبروه شخصية معاصرة ، وبإمكانه قيادة تركيا منذ أن كان رئيساً لبلدية أسطنبول في الفترة ما بين عامي ١٩٩٤ و ١٩٩٨م وأن الولايات المتحدة كانت قد تنبهت إلي صعود نجم أردوغان منذ الثمانينات في إطار اهتمامها بتركيا ومستقبلها السياسي عندما كانت تعتبرها خط الدفاع الأول ضد الاتحاد السوفيتي والشيوعية في جنوب أوروبا والشرق الأوسط ويشير جوجنور إلي أن العلاقات الحقيقية بدأت بلقاء بين أردوغان والسفير الأمريكي الأسبق مورتن أبرام أوينز في أواخر الثمانينات عندما كان أردوغان رئيساً لفرع الرفاه في منطقة " أوغلو " في اسطنبول حيث نقل له رسائل

---

(١) راجع ياسر أحمد حسن . تركيا ، البحث عن مستقبل ص ١٩٠ – ١٩١.

إيجابية من واشنطن وكانت الزيارات تستغرق ساعات عدة ، وتتم من خلال مترجم لعدم إجادة أردوغان أيه لغة أخري غير التركية وحسب الكاتب فإن جوهر الرسائل التي تلقاها أردوغان هو :" أنت مهم لمستقبل تركيا في الأعوام المقبلة " .

وتجنب الحرج فإن أردوغان كان يردد أن اللقاءات والرسائل هي باسم الحزب، ومن بعدها ظهرت ادعاءات بأن أرودغان هو ولي عهد نجم الدين أربكان أبي الأحزاب الإسلامية التركية " .

ويضيف جوجنور أنه بعد نيوع أمر الاتصالات بين أردوغان وواشنطن بدأ الصراع يتفجر بين الأستاذ وتلميذه ، وأخذ أردوغان يستعد لقيادة الإصلاحيين في الرفاه، بعد أن اتضح لهم بعد تجربة الانقلاب الأبيض الذي نفذه الجيش ضد إربكان في ٢٨ فبراير ١٩٩٨ أنه لا مستقبل في تركيا للأحزاب الإسلامية التي تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية وتحاول أسلمه كل مظاهر الحياة ، ليس فقط بسبب موقف الجيش الذي يعتبر نفسه حارساً أبدياً للمبادئ العلمانية للجمهورية حسبما أطلقها مؤسسها الزعيم مصطفي كمال أتاتورك في حقبة العشرينيات من القرن الماضي ، ولكن لأن النظام العالمي الجديد الذي بدأ يظهر بعد انهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١م والذي تقوده الولايات المتحدة لن يسمح بتحول تركيا إلي " إيران أخري ".

ويتابع جوجنور قائلاً : " إن الخطوة التالية لاردوغان كانت عقد لقاءات مع زعماء الأحزاب السياسية للتشاور بشأن الحركة الإصلاحية ، وقبل حوالي عام تقريباً من تأسس الحزب زار أردوغان الولايات المتحدة ، والتقي الشيخ فتح الله جولن زعيم الطريقة النورسية الذي يعيش في المنفي ، وكان معارضاً لإربكان وسياساته التي قادت إلي إبعاده من السلطة بعد تحالف مع تانسو تشسللر زعيمة حزب الطريق القويم ، وقد حصل أردوغان علي دعم و سائل الإعلام التي يمتلكها جولن ، وتشمل صحيفة " زمان " واسعة الانتشار و " القناة الثامنة "

ويقول الكاتب : " إن تشكيل حزب العدالة والتنمية تم في إطار توافــق إرادات متعددة ، منها مؤسسوه ، بالإضافة إلي بعض الأجنحة في الجيش من الجنرالات غيــر الراغبين في استمرار الصدام السياسي مع التيار الإسلامي المعطل للتقدم ، والعائق أمام تحقيق الاستمرار ، بالإضافة إلي الإدارة الأمريكية، وأطراف أخري أقل تــأثيراً مثــل بريطانيا وإسرائيل"[١] .

وعندما حقق حزب العدالة والتنمية انتصاره الكبير في الانتخابات البرلمانية التي جرت في الثاني من نوفمبر عام ٢٠٠٢م وحصل علي ما يقرب من ثلثي مقاعد البرلمان التركي البالغ عددها ٥٥٠ مقعداً ، استقبلت واشنطن الحدث التاريخي بترحاب كبيــر ، وأبدي دبلوماسيوها في أنقرة تفاؤلاً كبيراً بهذه النتائج ، واعتبرت واشنطن أن الــشعب التركي أزاح النخبة السياسية التقليدية وأتي بأخرى جديدة بعيدة عن الاتهامات بالفساد ، كما نظر للحزب الحاكم الجديد علي أن الحل الوسط بين الإسلام والديمقراطية.

والملفت أن أردوغان حاول الاستفادة من قرار البرلمــان بإظهــار مزايــا الممارســة الديمقراطية ، وعدم تجاهل رغبات الشعب ، والحق أن الرجل – كما سبق أن أشرنا – لديه قدرة هائلة علي القفز بين المواقف المتناقضة بدرجة تذهل من معه ومن ضده في آن واحد ، حسب آراء بعض المراقبين .

أردوغان وإسرائيل

إذا كنا لا ننظر إلي ترك أردوغان للقاعة في دافوس لعدم إعطائه الكلمة كاملــة أو مجدداً بعد اعتراضه علي كلمة شيمون بريز ووصفه للإسرائيليين بالقتلــة مناقــضاً لوصف الأخير للفلسطينيين بذلك علي أنه عمل بطولي كما روج لذلك الإعلام العلماني. فإن ذلك لا يعني التقليل من قيمة هذا السلوك كسلوك إيجابي متحدياً لإسرائيل فإذا أضفنا

---

(١) نقلاً عن عبد الحليم غزالي ، الإسلاميون الجدد والعلمانية الأصولية في تركيا ، ص ٨٤ : ٨٧

إلي ذلك إرساله لسفينة الحرية لمساندة الفلسطينيين وفك الحصار عن قطاع غـزة ثـم سحب السفير التركي من إسرائيل ورفضه عودة العلاقات قبل تقديم إسـرائيل اعتـذار رسمي لتركيا وكذلك تقليص التعاون العسكري بين البلدين . فإن كل ذلك يمثـل قيمـة إيجابية كبيرة في الانحياز إلي مساندة القضية الفلسطينية .

غاية الأمر أن كل ذلك يجب أن يوضع في مكانه وحجمه الطبيعي .

فالكثيرون لا ينتبهون حتى لاسم " العثمانية الجديدة " التي ينتمي إليها أردوغان فهي وإن كانت قد أقصت الخلافة وأبعادها الدينية فهيم لم تتخل أبداً عن فضائها الحيوي والمصالح وهو ما عبر عنه وزير الخارجية التركي أحمد أوغلو بالعمق الاسـتراتيجي لتركيا [١] .

وهذه الرؤيا تقتضي النظر إلي إسرائيل علي أنها تقتص جزء خطيـر للغايـة لأبعاده الدينية والحضارية من هذا المجال الحيوي التركي حتى إذا اقتضت الضرورات الحيوية التعامل معها علي أساس المصلحة .

والتقدم الأردوغاني في تعميق الإرتبط التركي الأمريكي مـع انفتـاح المجـال العربي مع كل خطوة يخطوها أردوغان في الابتعاد عن إسرائيل هذا بالإضـافة إلـي تعاظم أهمية الدور التركي بالنسبة للأمريكيين بعد اندلاع ثورات الربيع العربي كل ذلك مما لا شك فيه يجعل حافزاً كبيراً لأردوغان في المضي قدماً في أخـذ المزيـد مـن المواقف الإيجابية من إسرائيل .

ومع ذلك تظل هذه بعيدة كل البعد عن معاني البطولة والاضطلاع بمسئولية قيادة العالم الإسلامي التي يضفها البعض علي أردوغان .

فرد الفعل الاردوغاني لتقل إسرائيل لتسعة ناشطين أتراك علي سـفينة الحريـة التركية المغيثة للفلسطينيين أقل كثيراً مما يجب .

---

(١) راجع كتاب أحمد أوغلو (العمق الاستراتيجي لتركيا) .

وسحب السفير التركي من إسرائيل الذي هلل له الكثيرون عندنا قد تم بعد سـنة من العدوان .

والتعاون العسكري بين الإسرائيليين والأتراك لم يتم إنهاؤه بالكامل فـإلي أيـام قريبة استطاعت إسرائيل أن تستخدم أنظمة الدفاع الصاروخية المضادة للصواريخ التابعة لأمريكا والموجودة في الأراضي التركية .

السياسة الخارجية لاردوغان

الصورة التي يحاول البعض ترويجها لاردوغان في أنه البطل الإسلامي الجديد بمنصب الخلافة الإسلامية ، أما المقومات التي يوردونها لذلك فإنك تبحث عنها فلا تجد سوي ما يقال عن كونه المناضل الثائر الذي يواجه النظرسية الإسرائيلية والهيمنة الأمريكية بدليل الكلمة التي ألقاها في دافوس رداً علي الرئيس الإسرائيلي شيمون بيريز وتركه قاعة المؤتمر في تحدي وشموخ .

تري ما هي حقيقة ذلك ؟

تتحدد الإجابة من خلال المواقف الفعلية للرجل وحزبه ونبدأ بالموقف من الحرب علي العراق ٢٠٠٣م وأذكر أنني كنت أبحث عن حقيقة هذا الموضوع في تلك الفترة وكانت وسائل الإعلام تردد أثناء ذلك كيف قامت تركيا العدالة والتنمية الضغوط الأمريكية علي تركيا للمشاركة في تلك الحرب ورفض العدالة والتنمية ذلك ، فإذا بي أفاجأ بأن الذي روض الحرب هو الشعب التركي وأن أردوغان والحزب كانا يمهدان للمشاركة في الحرب فإذا بهما يواجهان بضغط شعبي كاسح يضطر البرلمان الذي يشكل الحزب أغلبيته إلي الاستجابة لمطالبه برفض المشاركة في الحرب .

وبتفصيل أكثر يشرح الأستاذ عبد الحليم الغزالي الموضوع فيقول:" بالقطع كانت واشنطن تضع عينها علي ما يمكن أن يقدمه الحزب وحكومته في الحرب علي العراق التي كانت واشنطن قد أطلقت إشارات التمهيد لها في تركيا بالزيارة التي قام بها أحد مهندسيها الكبار وهو بول وولفيويتز إليها في يونيو عام ٢٠٠٢م ، حيث كان الرجل الثاني في البنتاجون آنذاك ، وقد أعطي أردوغان إشارات واضحة لواشنطن بدعمها في الحرب ، وتقديم التسهيلات العسكرية اللازمة لها بعد أن أبدي الجيش التركي موافقته علي ذلك في أواخر ٢٠٠٢ وأوائل ٢٠٠٣م ، وعلي هذا الأساس استقبل الرئيس الأمريكي جورج ووكر بوش أردوغان في مكتبه البيضاوي في البيت الأبيض في ديسمبر عام ٢٠٠٢رغم أنه لم يكن يحمل أي منصب رسمي بعد حرمانه من الترشيح

لعضوية البرلمان بسبب سجنه في قضية سياسية أتهم فيها بالتحريض علي النظام العلماني عام ١٩٩٩م ، وقد كان رئيس الوزراء آنذاك عبد الله جول الرجل الثاني في الحزب ورفيق أردوغان في الكفاح السياسي ، وزاد بوش علي ذلك بالاتصال بالزعماء الأوروبيين خلال قمتهم في بروكسل في نهاية ديسمبر عام ٢٠٠٢م لحثهم علي منح تركيا موعداً لبدء انضمامها للاتحاد الأوربي ، وهو ما لم يثمر لكنه كان رسالة صداقة أخري من بوش لأردوغان ، وخلال الأسابيع التي سبقت بدء الحرب الأمريكية علي العراق ، بدا أن تركيا قد قبلت مبدأ السماح لعشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين باستخدام أراضيها في غزو العراق ، وأنها تساوم واشنطن من أجل الحصول علي أكبر ثمن مادي ممكن .

غير أن تصويت البرلمان التركي ضد مشروع قرار بالسماح لهذه القوات بالمرور في الأراضي التركية لغزو العراق ، وانضمام حوالي ١٠٠ عضو من الحزب الحاكم إلي المعارضة في هذا الموقف قد أصاب واشنطن بمرارة لازالت في الحلوق حتى الآن ، رغم أن أردوغان نفسه أيد بقوة الانضمام لواشنطن في الحرب ، لكن الجناح المحافظ في الحزب بزعامة رئيس البرلمان بولنت أرنج عاد إلي جذوره الإسلامية بتبني الرفض.

ومن المثير أن إربكان قد بعث إلي نواب حزب العدالة – والكثير منهم كان من أتباعه في الرفاه – برسائل علي أجهزة الهاتف المحمول تحذرهم من العقاب الإلهي إذا قبلوا ما وصفه " بدعم الكفار في قتال المسلمين " ، وأخذت واشنطن علي أردوغان عدم ممارسته للضغوط الكافية علي النواب لتمرير ما تريده ، غير أن الرجل كان يدرك حساسية الوضع ، خاصة أن الرأي العام في تركيا كله كان معبأ ضد الولايات المتحدة.

أردوغان والدستور الجديد

يثار الحديث الآن في تركيا عن إعداد العدالة والتنمية لدستور جديد للبلاد وربما يكون هذا الدستور قد صدر بالفعل قبل وصول هذا الكتاب إلي يدي القارئ ولكن نظراً للأهمية

البالغة لدلاله هذا الدستور علي توجهات أردوغان والعدالة والتنمية فإننا سنعمل علي مناقشة ذلك اعتماداً علي بعض مما تنشره الجرائد التركية عن مسودة هذا الدستور أو عن توقعات المراقبين لما سيأتي فيه .

فحسب ما قاله أردوغان نفسه فإن الدستور الجديد : " سيكون قصيراً وواضحاً ويستند إلي خدمة المواطن وتحصيل حقوقه وليس إلي مصلحة الدولة علي حساب المواطن " كما وعد بتسوية جميع المشاكل السياسية وفي صدرها قضيتي الأكراد والعلويين قائلاً:" لن يكون هناك أي خوف من تناول هذه القضايا السياسية الشائكة" .

ويذكر ايضا أن من بين التعديلات الأساسية الموجودة في مسودة الدستور الجديد قضية رفع الحظر عن ارتداء الحجاب في الجامعات حيث كشف أرجون أوزيدون رئيس لجنة صياغة الدستور الجديد أن المشروع يتضمن تغييرات جذرية بينها السماح لطالبات الجامعات بارتداء الحجاب ، حيث تنص المادة الجديدة علي أنه " لا يجوز حرمان أحد من حق التعليم العالي بسبب الملابس التي يرتديها أو ليس هناك أي قيود علي أي نوع من الملابس في مؤسسات التعليم العالي " .

يشار إلي أن المادة الموجودة في الدستور الحالي فيما يخص الحجاب تنص علي أنه"لا يحق للنساء اللواتي يرتدين الحجاب دخول مؤسسات التعليم العالي ".

ولان الانضمام إلي الاتحاد الأوروبي هو حصان طروادة الذي يحقق به أردوغان أهدافه – وقد اشترط هذا الاتحاد ذاته تعديل الدستور التركي كشرط لانضمام تركيا إليه – عندما أبدي حزب العدالة والتنمية منذ مدة نيته علي إطلاق دستور مدني جديد صرح نائب رئيس الوزراء جميل تشيتشك إن مصادر الدستور المدني التركي الجديد ستكون :

- الاقتراحات القانونية للأحزاب السياسية .
- مسودة الدستور الأوربي .

- قرارات المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان .

ومع كل ما سبق فإن معارضي أردوغان من العلمانيين يتهمونه بشيئين :

الأول : إنه يعمل علي إصدار دستور ذي بصمة إسلامية

الثاني : إنه يعمل علي إصدار دستور يخدم مصلحته الشخصية فقط مذكرين بمشاريع أرودغان لتغيير النظام البرلماني في البلاد إلي نظام رئاسي ليتمكن هو نفسه من الترشح للانتخابات الرئاسية في ٢٠١٤م

فإذا أخذنا بظاهر الأمور فليس للمشروع الإسلامي شأن فيما يهدف إليه أردوغان وحزبه من تعديلات فإذا كان الدخول في الاتحاد الأوربي هو المبرر الأكبر – ولا يستطيع أحد أن ينفي جدية أردوغان في استهداف ذلك – فإن للتغييرات الدستورية المزمع حدوثها ترتبط بمعيارية هذا المبرر وهذا ما عبر عنه نائب رئيس وزرائه عندما حدد مصادر الدستور الجديد في اقتراحات الأحزاب العلمانية ومسودة الدستور الأوربي وقرارات المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان .

وحتى لو افترضنا صحة ما يتهم به أردوغان من بعض العلمانيين من كون أنه يريد أن يضع دستوراً ذو بصمة إسلامية وقد يكون لذلك شاهد وحيد في إباحة لبس الحجاب في الجامعات فإن الأمر لا يعدو ما ذكر تحديداً وهو وضع بصمة إسلامية لا أكثر تساعد علي تلبيس الأمر علي المسلمين وترويج مفهوم الإسلام الليبرالي مع الأخذ في الاعتبار إن إباحة ارتداء الحجاب وليس منعه هو الأمر الذي يتوافق مع الليبرالية الغربية نفسها التي يدور في فلكها الاتحاد الأوروبي .

قد يقول البعض : إنها خطوة في اتجاه الإسلام قد يأتي بعدها بخطوات.

أقول أنها خطوة يجب أن يفهم أن السماح بها مرهون بالرضي الأوربي الأمريكي ومن ثم فإن الخطوات التي تنتظرونها لن يسمح بها أبداً لأنها لن تحظي أبداً بهذا الرضي .

وهب أننا لغينا العقل والمنطق وقواعد السياسة والصراعات بين الأمم بل وبين الأفراد أيضا هب إننا لغينا كل ذلك وصدقنا أن هذه خطوات تكتيكيــة مــن أردوغــان وحزبه (وربما من ورائهم فتح أوغلان منظراً) فإن المفاسد المقابلة لذلك الناجمة عــن إرضاء الغرب لإتمام هذه الخطوات بالادعاء بأن الإسلام لا يتنــاقض مــع العلمــانيين وترويج ذلك في العالم الإسلامي وفي تركيا نفسها لهي أعظم آلاف المرات من المصالح المزعومة الناتجة عن هذه الخطوات . هذا مع الأخذ في الاعتبــار أن هــذه المــسائل الاعتقادية (لأن عدم الفصل بين الإيمان بالله ووجوب تطبيق أحكامه هو جزء لا يتجزأ من الإيمان بألوهيته) لا يمكن أن يتصور التعامل معها علي أســاس المفاضــلة بــين المصالح والمفاسد .

الموقف من المؤسسة العسكرية

يهدف الدستور التركي الجديد إلي عدم خضوع المــدنيين للمحــاكم العــسكرية وتقليص سلطة الجيش بل ونقل الكثير من سلطاته السيادية لصالح السلطة المدنية وهــو الأمر الذي أثار حفيظة العلمانيين حيث دعا رئيس نقابة المحامين في اسطانبول " أميــد كوجا " القادة العسكريين إلي تنفيذ انقلاب عسكري في البلاد والنهوض بمهمة حمــايتهم (العلمانيين) قائلاً : أن الجيش التركي لم يعد قوات مــسلحه وإنمــا أصــبح " قــوات محرومة من الأسلحة " .

وتتحدث الصحف التركية عن صفقة تمت بين المدنيين والعسكر علــي خلفيــه مؤامرة أرغيناكون ومؤامرة المطرقة ... صفقه تسمح للأردوغانين في السيطرة التامــة علي المخابرات ، ورئاسة الأركان أي ما تبقي خارج سيطرتهم . الرئيس التركي عبــد الله غول ومعه وزير الدفاع وسيدي غونئيل قد عقدا اجتماعا مطولاً مع قــادة المؤســسة العسكرية التركية ، وتحديداً الجنرال الكير باشبوق رئيس هيئة الأركان العامة ، وبعــد انتهاء الاجتماع ، نجح الطرفان في عقد صفقة مدنية عسكرية تضمنت الآتي :

- أن تصدر الحكومة التركية قراراً بإطلاق سراح العديد من كبار الضباط الأتراك المعتقلين علي خلفية التورط في مؤامرة أرغيناكون ، ومؤامرة المطرقة .
- أن يتنحي الجنرال الكير باشبوق رئيس هيئة الأركان العام
- أن يتم تعيين الجنرال إيزيك كوسانير في منصب رئيس هيئة الأركان العامة.
- أن يتم تعيين الجنرال إيردال سيلان أوغلو في منصب قائد القوات البرية التركية.

إن حركة التعيينات والتقاعدات تمثل انقلابا داخل المؤسسة العسكرية التركية ، بما سوف يؤدي إلي تعزيز قدرة حزب العدالة والتنمية في فرض السيطرة المدنية علي المؤسسة العسكرية التركية ، رئيس هيئة الأركان الجديد الجنرال إيزيك كوسيانير ينتمي إلي جناح الحمائم داخل المؤسسة العسكرية وقد شهد طوال حياته العسكرية الالتزام بجانب الحياد السلبي إزاء تحركات المؤسسة العسكرية في الانقلابات – تم تخطي عدد كبير من جنرالات المؤسسة العسكرية في هذه الترقيات، فالعديد من هؤلاء الجنرالات يتمتعون بالخبرة والكفاءة والأداء عن الذين تم تعيينهم . ويتهم صقور المؤسسة العسكرية حكومة حزب العدالة والتنمية ، بأنهم استغلوا فرصة إيقاف عدد كبير من الجنرالات في تحقيقات شبكة أرغيناكون ، وعملية المطرقة ، وقاموا بترقية الجنرالات الداعمين لتوجهات حكومة حزب العدالة والتنمية.

سعت هذه الترقيات المفاجئة إلي إفساح المجال أمام الجنرال نجدت عوزيل الذي تمت ترقيته من منصب قائد الجيش الثاني التركي إلي منصب قائد قوات الجندرمه ، وبعد عام سوف يتولي – كما جرت العادة منصب قائد القوات البرية التركية ، وذلك لأن القائد الجديد سوف تتم إحالته للتقاعد الإجباري في عام ٢٠١١م وبالتالي ، عندما يتولي الجنرال عوزيل منصب قائد القوات البرية، فإنه سيظل في المنصب لفترة عامين ، وبحلول العام ٢٠١٣ سوف يتقاعد رئيس الأركان الجديد إيزيل كوسانير

عن المنصب ، وحينها سوف يصعد قائد القوات البرية الجنرال عوزيل بكل سهولة ويسر لمنصب رئيس الأركان العامة التركي وبهذا الشكل تكـون مفـاتيح القـرار مجتمعة في يد حزب العدالة والتنمية .

تري كيف استسلم قادة هذا الجيش الجهنمي لهذا الاستحواذ الأرداغوني بكل هذه البساطة ؟ . الإجابة ببساطة أيضا لأنهم يدركون قواعد اللعبة وعمقها المخابراتي جيداً ، الأمر الذي يعني إدراكهم الكبير أن الرعاية الأمريكية للدور الأردوغاني أكبر كثيراً من الرعاية الأمريكية للدور المنوط بهم لأن ما يمثله أردوغان من تلك المنظومة المزعومة المتمثلة في الإسلام الليبرالي أو في التزاوج بين الإسلام والعلمانية أهم كثيراً في هـذه المرحلة من تلك العلمانية الوقحة التي يعملون علي حمايتها ، حتى أغلـب العلمـانيين أنفسهم في المجتمع التركي لن تجد هذه القيادات فيهم سنداً معيناً لهم لأنهم يفضلون تلك العلمانية الأردوغانية المتسامحة التي تمضي بهم نحو النمو والتقدم ومحاولة الالتحـاق بالاتحاد الأوربي حتى ولو كانت ذات بصمة إسلامية عن علمانية هـؤلاء الجنـرالات الهمجية التي تقوقع المجتمع التركي في الصراع والتخلف .

العدالة والتنمية

الموقف من العدالة والتنمية

إنجازات العدالة والتنمية :

عادة ما يتم الترويج لنموذج العدالة والتنمية في العالم العربي استناداً إلي ما حققه من إنجازات في العديد من المجالات في الفترة الوجيزة نسبيا التي اعتلى فيها الحياة السياسية في تركيا. ويلخص علي حسين بكير هذه الإنجازات في التالي:

١- على الصعيد السياسي: تعزيز قيم الحرية والعدالة والشفافية والنزاهة والاستقامة وحكم المؤسسات والقانون والاحتكام إلى الشعب وإلى صناديق الاقتراع والاستناد إلى برنامج سياسي متكامل هدفه أولاً وأخيراً خدمة الناس والنهوض بالدولة بدون تسرع في التنفيذ وببعد نظر ونفس طويل. ويكتسب هذا النموذج قوته من خلال ما أثبته عن قدرته في مزج مفاهيم ظل كثيرون يشككون طويلا في إمكانية التقائها في مكوِن واحد، مفاهيم "مثل الديمقراطية والإسلام"، " الانفتاح والاستقلال"، الإصلاح والاعتدال"، "التسامح والبراغماتية".

٢- على الصعيد الاقتصادي: توظيف كافة قدرات البلاد ومواردها الطبيعية والبشرية، والاعتماد على التصنيع والتصدير، والمزج بين الزراعي(اكتفاء ذاتي) والصناعي(ثاني أكبر منتج لصفائح الزجاج في العالم، وسادس أكبر منتج للأسمنت والألبسة الجاهزة على سبيل المثال) والخدماتي (دخل القطاع السياحي يزيد عن ٢٠مليون دولار) ومكافحة الفساد والرشاوى والتدهور المالي وزيادة القدرة الإنتاجية والتجارية ورفع الناتج المحلي الإجمالي من حوالي ٤٧٠مليار دولار عام ٢٠٠٣ إلى أكثر من تريليون ومئة مليار عام ٢٠١٠ ورفع مستوى دخل الفرد من حوالي ٣٣٠٠دولار عام ٢٠٠٢ إلى حوالي ١٣٣٠٠ ألف دولار

٢٠١٠، والنهوض بالبلاد من حالة الانهيار الاقتصادي إلى المرتبة ال١٥ عالمياً خلال٩ سنوات فقط.

٣- على صعيد السياسة الخارجية: تبني سياسة خارجية عقلانية مدروسة تقوم على رؤية واضحة وعميقة لمعطيات المنطقة ومتغيراتها وتأخذ بعين الاعتبار قدرات تركيا ومعطياتها الجيو-إستراتيجية والتزاماتها الخارجية بما يحقق مصالحها أولا وقبل كل شئ دون وجود عقدة التعاون مع القوى الكبرى على أساس من الندية والاحترام المتبادل. [1]

موقف إسلاميي الربيع العربي من العدالة والتنمية

١- موقف إسلاميي مصر

أ- موقف الإخوان المسلمين

لم يكن موقف خيرت الشاطر نائب مرشد الإخوان - الذي صدم به الإعلامية العلمانية الشهيرة منى الشاذلي في برنامجها العاشرة مساءً والذي أعلن فيه رفضه للنموذج التركي عندما ذكرت في سياق حوارها له قبول الإخوان لهذا النموذج كمسلمه .. أقول لن يكن موقفه هذا الأكثر إحباطاً لتطلعات العلمانيين بتمثل الإخوان المسلمين أو حزبها السياسي (الحرية والعدالة) المتفرع عنها لنموذج العدالة والتنمية التركي . فقد يمكن تفسير ذلك بأن الشاطر أحد أهم الذين يقعون علي قمة التيار المحافظ في الإخوان.

لكن الموقف الأكثر إحباطاً لهم جاء من أقصى الطرف المغاير الذي تم الرهان عليه منذ عشرات السنين ليكون الأكثر توافقاً مع المخططات العلمانية الأمريكية في المنطقة أقصد بذلك ما كان يعتاد أن يطلق عليه بالتيار الإصلاحي داخل الإخوان والذي تم تقليصه في المرحلة الأخيرة ومن قبل الإطاحة بالرئيس السابق في الانتخابات الداخلية

---

[1]- علي باكير، القوة الناعمة التركية في ميزان التحولات. مركز القاهرة للدراسات التركية www.karuilt.org/makalatmain?id_out=21

للإخوان عام ٢٠٠٩ وعلي وجه التحديد علي لسان الدكتور عصام العريان آخر قادة هذا التيار داخل الإخوان والذي يبدو من خلال كتاباته وتصريحاته الأخيرة أنه قد تمت مراجعة أفكاره هو نفسه.

حيث صرح العريان في اتصال مع جريدة "السفير ": "أن الاختلاف كبير بين تركيا والعالم العربي وفي مصر تحديداً فالدولة التركية لم تقع يوماً تحت نيران الاحتلال كما أن تركيا التي تحاول جاهدة العودة إلي الإسلام غرقت لوقت طويل في العلمانية وبقيت منفصلة تماماً عن ماضيها الإسلامي . في حين أن الدستور المصري ينص علي أن الإسلام هو دين الدولة وثقافته متجذرة في الوعي المصري" [2]. وشدد العريان علي أن الخطاب الإخواني لم يتغير قبل الثورة ولن يتغير بعدها ، والإعلام لعب دوراً غريباً، إن لم نقل مريباً في نقل موقف الإخوان المسلمين بصورة خاطئة "نحن لا نسعى وراء النموذج التركي نحن نحاول استنباط نموذج من صلب حضارتنا" [3]

ولكن هذا الموقف من النموذج التركي لدى العريان لا يعنى رفضه تماماً بل يمكن الاستفادة منه في بعض الجوانب حيث يشرح العريان ذلك في مقال له بعنوان (تركيا النموذج والدولة) فيذكر أن المروجين للنموذج العلماني يريدون تحقيق أهداف سياسة في مقدمتها :-

* فرض علمانية إقصائية بغيضة وربطها بالديمقراطية تعسفاً وجبراً وينسى هؤلاء أن الديمقراطية التركية تصحح أخطاءها وأن العلمانية التركية تتراجع بالتطبيق السليم للديمقراطية وأن الفطرة النفسية للشعب التركي ظهرت خلال العقد الأخير ولولا التراث الثقيل لعقود سبعة أو ثمانية لتخلصت تركيا من العبء العلماني.

---

[2] هيفاء زعيتر، هل يسقط شعار (الإسلام هو الحل) لصالح النموذج التركي؟ مجلة السفير العدد: ١١٨١٩ ٢٠١١/٠٢/٢١
http://www.assafir.com/MulhakArticle.aspx?EditionId=1778&MulhakArticleId=83439&MulhakId=1340

[3] المصدر السابق.

* إعطاء دور سياسي للجيش لحماية النظام السياسي الديمقراطي [4] في الواجهة وفي الحقيقة لحماية العلمانيين أو الأقليات أو المصالح الخارجية .

وإذا كان ذلك مرفوضاً من جانب الإسلاميين العرب فإنهم يرون بحسب تصورهم أنه من الجوانب المضيئة التي يمكن استفادتها من هذا النموذج.

* "أن الطريق السلمي للتطبيق الإسلامي هو النموذج الوحيد القابل للبقاء وأن الطرق الأخرى مسدودة".
* أن تحقيق حاجات الناس الاقتصادية أولوية ملحة وأن تمثيل كافة الشعب أمر ضروري.
* أن السياسة الداخلية مقدمة علي السياسات الخارجية وأن دولة قوية متماسكة ديمقراطية يمكن أن تلعب دوراً مؤثراً.
* أن الشعب لا يمكن أن يعطي لحزب ما مهما كانت نجاحاته تفويضاً علي بياض لفعل ما يريد "[5]

ب- موقف حزب الوسط

يري المحللون أن حزب الوسط هو أقرب الأحزاب المصرية إلي فكر العدالة والتنمية ومن ثم فهم يرون أنه أكثر الأحزاب احتمالاً في العمل علي تمثل هذا النموذج التركي في الحياة السياسية وقد يكون هذا هو الذي يفسر لماذا يحظي حزب الوسط برضي العلمانيين بوجه عام؟

وعلي ما سبق فإنه من الطبيعي أن يلقي حزب الوسط استحسان علماني مراوغ كالدكتور عمار على حسن حيث يذهبُ إلى أن "ظهور حزب الوسط هو خطوة متأخرة بعض الشئ خاصة أنه حزب بمثابة إحدى العربات القوية التي تجر الفكر السياسي الإسلامي وتحدثه بشكل عصري وذلك لأن الوسط يستند على ركيزتين هما فكره المدني

---

(4) عصام العريان، تركيا النموذج والدور، جريدة المصريون الإلكترونية: ٢٠١١/٦/٢٢، http://www.almesryoon.com/news.aspx?id=66097

(5) المرجع السابق.

ومقومات قيادته وأفكارهم وبالتالي فإن منهجهم لا يسمح بسيطرة جماعة إسلامية على الحزب إلا إذا كانت أفكارها تواكب هذا التطور" [6].

أما صلاح عيسي فيذهب إلى إنه "أحد المتحمسين لحزب الوسط باعتباره حلاً لإشكالية مهمة باعتباره حزباً مدنياً يستند للحضارة الإسلامية" [7].

ويري منيمنة "أن حزب الوسط الجديد الذي يمثل موقفاً وسطاً بين أيديولوجيتين متصارعتين علي الساحة السياسية المصرية، هي الإيديولوجية الليبرالية والإسلامية وقد اختار لنفسه موقفاً لستراتيجيا ليري ما ستسفر عنه الأحداث وما ستفضي إليه المرحلة الانتقالية ومن ثم فهذه الأطروحة التهجينية التي يقوم عليها الحزب هي أطروحة تسير في اتجاه الحدث ولا تصنعه وهي من ثم أقرب إلى الإستراتيجية النفعية منها إلى المبدئية الإيديولوجية".[8]

ومع ذلك يذهب حسن منيمنه إلى أن حزب الوسط "على الرغم من استحسانه نموذج العدالة والتنمية ولكن في مصر ما بعد مبارك قد تغريه بخطاب إسلامي أكثر أصولية وأقل ليبرالية، لا سيما أن الحزب في بداياته قد لجأ إلى "سياسة التنمية" في مواجهة نظام مبارك ، مثلما فعل العدالة والتنمية بحسب رؤية الإسلاميين العرب في مواجهة النظام العلماني التركي".[9].

---

[6] شيماء فتحي – أسامة رمضان. الوسط سير على خطي العدالة والتنمية التركي، جريدة روز اليوسف العدد ١٧٥٩ – الاثنين – ٢٨ مارس ٢٠١١،
http://www.rosaonline.net/Daily/News.asp?id=106669

[7] المرجع السابق.

[8] أحمد بركات جدلية النموذج التركي والحركات الإسلامية العربية (إسلام أون لاين).

[9] المرجع السابق.

ويؤكد الأستاذ علي عبد العال نفس الفكرة حيث يذهب إلي أنه "في إطار الجهود العلمية لاستنساخ نموذج فعلي على الأرض تنظر أوساط ثقافية وإعلامية إلى "حزب الوسط باعتباره النسخة المصرية من العدالة والتنمية حيث ينطلق الحزب المصري من استلهام الحزب التركي الحاكم ويربط مراقبون بين شخصية مؤسسه المهندس أبو العلا ماضي – القيادي السابق في الإخوان المسلمين – وبين شخصية رجب طيب أردوغان في الخلفية الإسلامية مع التطور الفكري الذي يواكب العصر بمفهوم إسلامي خاصة وأن ماض كان قد أشاد بأردوغان وجماعته في مواقف ومناسبات عديدة" [10].

أما مؤسس الوسط نفسه أبو العلا ماضي فإنه يري في العدالة والتنمية:

"نموذجا ممتازاً لظروف تركيا" خاصة في التحول الديمقراطي، وعلاقة الإسلاميين بالسلطة، وحجم الإيجابيات غير المسبوق، مشيراً إلي أنه "قدم نموذجاً حقيقياً للإسلام بدون رفع لافته صارخة .. والعبارة بالمضمون وليس باللافتات"، وفي حديثه لـ "الإسلاميون نت" لم يتنكر ماضي سلبية واحدة يأخذها على قيادات حزب العدالة والتنمية، خاصة أن خصومهم أنفسهم أقروا بنجاحاتهم، وإن أشار إلي أنه "لا توجد تجربة تخلو من الأخطاء".

وحول مدى إمكانية استنساخ التجربة في مصر، يري أبو العلا ماضي أنها تجربة "تستحق الاحترام، ويستفاد منها"، لكنها في الوقت نفسه تجربة "لها خصوصية، ولا نستطيع التعميم، لو نجح أي حزب له مشروع كهذا واستطاع الوصول إلى السلطة ويحقق نجاحات فما المانع من هذا؟".

---

(10) علي عبد العال، التجربة التركية.. في وعي الإسلاميين،
http://www.algeriatimes.net/algerianews4534.html

جـ - موقف السلفيين

السمة الأساسية للسلفيين هي التزامهم بالمرجعية المبدئية للإسلام ومن هذا المنطلق فيفترض أن يكونوا أجدر التيارات باتخاذ مواقف محددة من حزب العدالة والتنمية وما يماثل أفكاره من أحزاب أو أشخاص وعلي ذلك فإن د.ياسر برهامي يذهب إلى أنه "لا شك أن سن قوانين الكفر هي أعظم مفسدة من كل ما يمكن أن يترتب عليها من مصالح كدخول الاتحاد الأوروبي أو سكوت العلمانيين في الجيش عنهم، أو غير ذلك، فهذا ليس بإكراه شرعاً بأي اعتبار، وهو استحلال صريح لما حرم الله، ولولا التأويل لكان لمن فعله وصوت عليه حكم آخر"[11].

أما عبد المنعم الشحات (المتحدث الرسمي للدعوة السلفية) فقد عبر عن رؤيته بوضوح وعمق فلخص واقع الحال التركي بقوله : "إن حول نفسه عمل علي المحافظة على علمانية البلاد، ودافع عن حجاب زوجته بأنه حريتها الشخصية، ولم يشأ أن يتطرق مطلقاً إلى كونه فريضة ربانية".

ومعلوم أن الحكومات "الإسلامية" المختلفة التي حكمت تركيا بداية من حكومة "أربكان" ومن جاء بعده التزمت باستخراج تصاريح البغاء للبغايا، بل إن إلغاء تحريم الزنا قد سنه البرلمان الذي يسيطر عليه حزب العدالة [12]، ومن الطرائف أن "أردوغان" قد صدق بصفته رئيساً للوزراء على قرار الجيش بإحالة عدد من الضباط إلى التقاعد لميولهم الإسلامية تجنباً للصدام مع الجيش، وقائمة الأعمال العلمانية لحزب العدالة طويلة جداً لا تخفي على أحد، ولكن المدافعين عن حزب العدالة وغيره ممن يتبنون هذا الاتجاه يرون أن هذه المرحلة لابد فيها من التعامل مع العلمانية، حيث أن العلمانيين والغرب من ورائهم لن يسمحوا مطلقاً للإسلاميين بالتواجد إلا تحت مظلتهم.

ثم يحدد الشحات موقفه بعد ذلك فيقول:

---

(11) عبد المنعم الشحات السلفيون ودخول الحجاب إلى القصر التركي، نقلا عن دكتور ياسر برهامي. ١١-سبتمبر-٢٠٠٧
http://www.salafvoice.com/article.php?a=1835&malaf_id=21&m_c_id=127

(12) المرجع السابق.

"وموقفنا من هذا الاتجاه واضح، في أنه لا يسمح بالمداهنة في مجال الدعوة، لاسيما وأن الداخلين في هذه اللعبة يزعمون أن ما يقولونه ويفعلونه هو من الدين، مما يجعل الدين ألعوبة في يد كل متلاعب، ومما يفقد الناس الثقة فيما ينسب إلى الدين، هل هو فيه بالفعل، أم أنها المساومات السياسية؟ وهل يمكن أن يفتي في بلد شديد التطرف في العلمانية بجواز استخراج الموظف المسلم لتصريح البغاء للبغايا مثلاً، ويعلل هذا بأنه ليس للحكومة الإسلامية شرعاً أن تمنع من أرادت أن تمارس الفاحشة بالقوة، وإنما غاية ما تملك هو نصحها، بينما يفتي في بلد آخر أقل تطرفاً في تطبيق العلمانية – كالكويت مثلاً – بوجوب سعي النواب الإسلاميين إلى منع الحفلات الماجنة، لأن من واجبات ولي الأمر الأخذ على أيدي الفاسقين، وينسب هذا وذاك إلى الشرع" [13].

ويفطن الشحات إلى هذه النتيجة الخطيرة "وما سيجني الإسلام إذا ما وجه أبناؤه المخلصون كل جهودهم ليصلوا إلى سدة الحكم، ويطبقوا هم العلمانية بأيديهم حتى وإن عملوا على كبح جماح غلوها شيئاً فشيئاً؟" [14]. ولكن أخطر ما يفطن إليه الشحات هو ما جاء في تساؤله: "ومن الذي يضمن لنا عدم تشبع الأجيال الشابة من هذه الأحزاب الإسلامية بهذه الأفكار العلمانية التي يرون قادتهم يطبقونها، بل وينسبون الكثير منها إلي الإسلام" [15].

وحيث يقول : " وعلى الرغم من الموقف المحدد السابق فلا يلبث الشحات أن يتابعه بعبارات يشوبها بعض اللبس والغموض ولذلك فلا تخفي أخي السلفي فرحتك بوصول رئيس إسلامي إلى القصر الرئاسي التركي، وإن كان إسلامياً علمانياً، ولا تخفي فرحتك بدخول الحجاب إلى القصر الذي سن سنة خلع الحجاب في قصور حكام المسلمين، وإن كان حجاباً تركياً . [16]

---

(13) المرجع السابق.
(14) المرجع السابق.
(15) المرجع السابق.
(16) المرجع السابق.

فإذا قرأت الكلام السابق الدقيق لكل من ياسر برهامي وعبد المنعم الشحات حول أردوغان والعدالة والتنمية لأصابك الذهول لموقفهم المؤيد للمرشح الرئاسي المصري الذي يمضي لنفس الاتجاه ولن أقوم بسرد الشواهد الدالة علي ذلك فهي أكثر وأشهر من أن أسردها ولا ينكرها أحد ولا أريد أن أشخصن المسألة ولكن يكفيني ذهابه إلي جواز أن يحكم المسلمين رئيس نصراني والمساواة التامة علي أساس المواطنة والحقوق والحريات العامة وقمة كل هذا الدفاع عن (أولاد حارتنا) العمل الأدبي الأكثر إلحاداً في تاريخ البشرية ويلخص الأمر أن هذا المرشح هو المرشح الذي اختاره أردوغان نفسه لحكم مصر والذي كان أول من رشحه من الأحزاب حزب الوسط المناظر لحزب العدالة والتنمية عندنا . فأين حديث ياسر برهامي بأن الذهاب إلي ذلك لا يأخذ حكم الإكراه شرعاً بأي اعتبار وهل الدفاع عن أولاد حارتنا التي كفرها الشحات نفسه أو القول بجواز ولاية المسيحي لإقامة المسلمين بأقل لديه من التصريح للبغايا بممارسة عملهم وكيف تنتقل هذه الأمور مرة واحدة من أمور عقائدية إلي مصالح ومفاسد إلا لو كان في النفس شيء وشيء عميق ومتضخم جداً تعمل علي إرضائه بأي شكل حتى ولو كان ذلك بالقفز علي عقائدها والعمل علي انقسامها وتشتيتها في لحظة فاصلة يتحدد علي أساسها تاريخ الإسلام كله في العالم المعاصر ويأتي ذلك من قوم ما كان لهم اعتبار بين الناس إلا بحديثهم عن العقائد والمبدئية وفي الوقت الذي أطالوا – ورددوا ما أطالوا حتى أملوا – الحديث عن كونهم مهتمون للغاية بقياس مدي الاعتدال النفسي للمرشحين للرئاسة في غمز ولمز وتجريح للشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل الذي أشاروا إليه علي الدوام بالتهور بافتراض استعلائي كهنوتي أنهم الأسوياء دائماً علي الطريق المستقيم وبجهل تام بنظريات علم النفس التي تكشف ذلك الخلط بين دينامية النفس وتهورها وبين هدوء النفس وبلادتها ، وكانت النتيجة من كل ما سبق أن أنفض الناس من حولهم في معقلهم الإسكندرية وأعطوا من الأصوات لمرشح غير الإسلامي أضعاف ما أعطوه هم لمرشحهم الغير إسلامي أيضا وإن وصفوه هم بغير ذلك حتى عرضوا حزبهم الوليد (النور) بما فعلوه في مواقفهم تلك للانقسام والانهيار علي الرغم من النضج السريع

الذي أبداه مجموعة الشباب التي تولت قيادته وفقدوا تماماً قيادة الحركة السلفية في مصر بعد أن كانت قوة جاءت إليهم هبة من الله .

موقف إسلاميي تونس

موقف النهضة التونسية

منحت الحركات الإسلامية طوال عهدي ابورقيبة وزين العابدين من تأسيس أحزاب تعبر عن مرجعيتها وعلي امتداد ثلاثين عاماً من الوجود السياسي ظل حزب العدالة والتنمية ممنوعاً من النشاط العلني والقانوني ولم تحصل حركة النهضة على الترخيص القانوني للمرة الأولي في تاريخها إلا في الشهر التالي من الثورة.

ويبدو أن أمام النهضة وقتاً طويلاً حتي يتخلص من العديد من الإشكاليات السياسية والفكرية التي خلفتها المرحلة السابقة فمازالت تهم الإرهاب والتطرف توجه للنهضة من قبل العديد من فئات المجتمع التونسي "نظراً إلى ما خلفته أحداث باب سويقة وغيرها في أوائل التسعينات في النفوس – "يوم أن تسبب مناضلو حركة النهضة في وفاة مواطن إثر إحراقهم مقراً للحزب الحاكم آنذاك كما تعمد أعضاء في الحركة رمي مادة محرقة في وجوه أشخاص وقد اعترفت قيادة الحركة في ٧ فبراير الفائت أن بعض أعضاء الحركة أخطئوا في الماضي لكنهم أصروا على أن القيادات لم يكن لها علم بالموضوع وأن تلك كانت أعمال فردية.

ومن ثم كان الوقت مبكراً جداً بالنسبة لحزب النهضة الذي لم يكن قد استرد عافيته وعالج لآثار ما مورس عليه من قهر طوال هذه السنوات عندما أعاد فوز حزب العدالة والتنمية التركي في الانتخابات التشريعية للمرة الثالثة الجدل في تونس حول الإسلام السياسي ومدي قدرته على ممارسة السلطة والوصول بها إلى بر الأمان فبينما ذهب راشد الغنوشي زعيم النهضة بأن النموذج التركي "أعاد النظافة والانضباط والقانون والعمل للسياسة" [17] اعتبر علي العريض القيادي في حركة النهضة "أن الجدل

---

[17] المنجي السعيداني : جدل حول الإسلام السياسي بعد فوز العدالة والتنمية

=http://aawsat.com/details.asp?section=4&issueno=11887&article=626643&feature

حول الإسلام السياسي يكاد يكون محسوماً فكل المؤشرات تدل علي أن التيارات الإسلامية بإمكانها بناء ديمقراطية وتنمية تستجيب لطموحات الناس وتحقيق التعايش السلمي بين مختلف التيارات السياسية [18]. وبرغم ما سبق فقد أكد العريض "أن حركة النهضة تنظر بإعجاب كبير لتجربة حزب العدالة والتنمية إلا أنها لن تسعى لاستنساخ نفس النموذج اعتباراً للفوارق الهامة بين النموذجين هذا علي الرغم من اعتماد التجربة الإسلامية في تركيا في جزء كبير منها علي كتب ومؤلفات الشيخ راشد الغنوشي" [19]

وقد دخلت حركة النهضة المرحلة الجديدة بخطاب سياسي مرن يريد طي صفحة الماضي ويعطي تطمينات حول التزامها بقيم الديمقراطية وحقوق الإنسان ونبذ العنف خصوصاً قبولها مجلة الأحوال الشخصية التي تجيز تعدد الزوجات وتقر بالمساواة بين الرجل والمرأة "فقد ورد في صحيفة لوتون (٦ فبراير ٢٠١١) على لسان راشد الغنوشي "أن مجلة الأحوال الشخصية مستمدة من الشريعة وأن تعدد الزوجات هو أمر ممنوع ومحسوم قانونياً "وأن الحجاب هو خيار شخصي كما أقر بعدم إمكان ممارسة عقوبة الرجم وقطع اليد" [20].

ومع ذلك تأتي التصريحات المعبرة عن المواقف المترددة من المبدئية الإسلامية على لسان القادة التاليين للغنوشي في النهضة مثال ذلك "التصريحات المزدوجة لحمادي الجبالي أمين عام الحركة بنفيه لمشروع تطبيق الشريعة حوار نشر في مجلة (ريالتي) بتاريخ (١٧ فبراير) من جهة وتصريحه بالالتزام بما ورد بها بالحوار ذاته من جهة أخري" [21].

وما نذهب إليه هو أن المناخ الذي مرت به الحركة الإسلامية في تونس يكاد يتطابق تماماً مع المناخ الذي مرت به الحركة الإسلامية في تركيا فقد حارب بورقيبة

---

(18) المرجع السابق

(19) المرجع السابق

(20) المرجع السابق.

(21) المرجع السابق.

ومن بعده زين العابدين التوجه الإسلامي بل الإسلام نفسه في تونس ووضـع الأخيـر منهما أبناء الحركة - رغم ما قدمه الكثيرون منهم من تنازلات للعلمانية التونسية - بين خيارين لا ثالث لهما إما الاعتقال أو هجران البلاد، ولندع راشد الغنوشي يـصف هـذا التطابق فهو يصف البلاد التي تعرضت لهجوم علماني شرس بقوله : "تلك التي طبقـت فيها بشراسة ووحشية وتواطؤ دولي ومحلي خطط الاستئصال وتجفيف الينـابيع مثـل تونس بسبب ما تعرض له التدين والمتدينون من قهر علي يد حكومات قمعية فاسدة، من مثل تسلط الدولة في تونس وتركيا على المؤسسات الدينية، وعلـى ضـمير المؤمنـات بتجريم حقهن في التعبير عن تدينهن بحمل رداء التقي، ما تسببت فـي طـرد الآلاف، وكبت الملايين وقهرهن وذويهن وكذا حرمان أصحاب المشروع الإسلامي مـن حقهـم الطبيعي والشرعي في المشاركة في الشؤون العامة ومنها العمل السياسي وكبـت كـل تعبير ديني" [22].

وفي قراءته للتجربة التركية، يشرح الشيخ راشد الغنوشـي - زعـيم حركـة (النهضة) التونسية - ما حدث بأنه "ثورة بيضاء ضد منتظم سياسي ميت أصلاً، فجاءت صناديق الاقتراع لتعلن عن دفنه ، إنه من الناحية الرمزية إعلان كـذلك عـن إفـلاس مشروع تركيا وتغريبها، وبداية النهاية لذلك المشروع".

وفي إطار الجدل حول إسلامية وعلمانية التجربة، يتابع الغنوشي في قراءته التي جاءت بعنوان: "العدالة التركي .. تجاوز أم تطور؟" مؤكداً أنها "قاعدة إسلامية" وعـت بيقين أن التمادي بنفس السياسات والوجوه "ليس من شأنه غير استمرار اشتباك غير قابل للتسوية، قد غدا معوقاً لتحقيق المشروع الإسلامي" ،فلا مناص من التغيير في الخطـاب والوجوه والتكتيكات "فكان العدالة والتنمية" ، "ولو أننا تأملنا في جملة ما أعلنه حتى الآن حزب العدالة والتنمية من سياسات "يتابع الغنوشي- لوجدناه امتـداداً متطـوراً لتـراث الحركة الإسلامية التركية، مع مرونة أكبر في التنزيل، وحرص أكبـر علـى ترتيـب

---

[22] راشد الغنوشي، قراءة في تجربة حزب العدالة والتنمية التركي، مجلة الشهاب الإلكترونية.
http://www.chihab.net/modules.php?name=News&file=print&sid=282

الأولويات بطريقة عقلانية ذكية" ، خاصة أنه لم يصدر عن جماعة العدالة والتنمية تصريحات مما يحمل على الظن أن الأمر يتعلق بتحولات فكرية. " [23].

ومن حيث النقد الذي يوجه للعدالة والتنمية باعتبار ما قدم من تنازلات، يرد الغنوشي أن الإسلاميين الأتراك ليسوا هم وحدهم "من فرض عليهم صياغة أيديولوجيتهم بما يتواءم مع السياج المفروض عليهم، بل إن جملة التيار الإسلامي في العالم ولاسيما في البلاد التي منيت بتحديث فوقي صارم، مثل تونس والجزائر ومصر، قد اضطرت للإقدام على نوع من تلك المواءمة" فقد تخلي الكثير منهم عن مسمي الإسلام في الراية التي يرفعونها للانسجام مع قانون الأحزاب، مع أنه لا أحد قد صرح بأنه قد تنازل عن شئ من إسلامه". " [24].

ومع غرابة هذا الذي يقوله الغنوشي فإنه أيضاً لا يري في سعي القادة الأتراك للالتحاق بالاتحاد الأوروبي قدحاً، بل يعتبر هذا الحرص "نوعاً من تجريد الخصم من سلاحه، وتجريد ظهيره الخارجي من أوهامه، وعرض صداقة بديله عنه" ، مشيراً إلى أن عرض الإسلاميين بالذات لهذه الصداقة أو الشراكة ترفع الغطاء عن المتطرفين العلمانيين والاستئصاليين، لا في تركيا فحسب، بل في عدد كبير من بلاد العالم الإسلامي، معتقداً أنه لا يعيب الشعب التركي أن يدخل أوروبا مسلماً، بقيادة إسلامية شابة، مدعومة بقوة من شعبها، متصالحة مع تاريخها ومع محيطها العربي والإسلامي.

موقف سلافيي تونس :

أما موقف سلافيي تونس فيتحدد في جملة واحدة هي رفضه للعبة كاملة وقد عبر ذلك في عدة مظاهرات .

---

[23] التجربة التركية في وعي الإسلاميين، مرجع سابق

[24] المرجع السابق

الرؤى المختلفة لمشروع العدالة والتنمية؟

حاول الغنوشي أن يجيب عن هذا السؤال الذي يحاول الجميع الإجابة عنه: ما هي حقيقة مشروع العدالة والتنمية وحدد إمكانات الإجابة عن هذا السؤال كالتالي:

- هل هو تواصل مع نفس المشروع الذي بدأه مندريس واستأنفه ديميريل ثم تورغت أوزال ووصل أوجه مع أربكان؟ ... مشروع مصالحة تركيا الحديثة مع تاريخها وهويتها من خلال الحد من التطرف العلماني للدولة في عدائها للدين في مسعى لاستبدال علمانية متطرفة بأخرى معتدلة هي أقرب إلى النوع الأوروبي الذي يغلب عليه الحياد إزاء المسألة الدينية وذلك بالإفادة من التجارب السابقة باعتماد مرونة أكبر في خدمة نفس المشروع بما يحفظ جوهره ويتخلي ولو ظرفياً عن بعض مظاهرة من أجل فتح أبواب التطور في وجهه بعيداً عن أسباب التصادم مع الباب العالي؟

- أم أن مشروع العدالة والتنمية هو تنازل عن مشروع الحركة الإسلامية بل خيانة له وفي أفضل الأحوال الرهان على ما سماه البعض بالعلمانية الإسلامية.

- أو هو ما اعتبره أنصار مؤسس المشروع البروفيسور نجم الدين أربكان إيثاراً لملاذ السلطة والعيش تحت الأضواء، وإرضاء العسكر ومؤسسة المال والإعلام والأمريكان؟

- أم هو تنازل عن جوهر المشروع الإسلامي، واستسلام للعلمانية وانتصار نهائي لها كما روج لذلك بعض عتاة العلمانية في بلادنا مبدين فرحة صفراء بانتصار العدالة والتنمية؟

وقبل أن أقدم صيغة مختصرة لما قدمه الغنوشي من إمكانات أو احتمالات وتعديلها بطريقة أوفق وأكثر تحديداً من وجهة نظر كاتب هذه السطور يستوقفني ما جاء في الإمكان الأول من مطابقة الغنوشي لمشروع أربكان مع مشروع مندريس وسليمان

ديميرل والذي حدده في السعي إلي استبدال العلمانية المتطرفة لتركيا بعلمانية معتدلة أقرب إلى النوع الأوربي وهذا في الحقيقة خلط كبير وواضح إلى الدرجة التي قد تنطوي على سوء النية لأن المرجعية الأربكانية والمواقف والإشارات بل والتورطات الدالة على توجه أربكان لإقامة مشروع إسلامي كامل وليس مجرد بلوغ علمانية معتدلة أكثر من أن تذكر.

أما إمكانات الإجابة عن سؤال ما هي حقيقة مشروع العدالة والتنمية؟ فأري أنه يمكن تحديدها في الإمكانات التالية:

- مشروع يلتزم بالقواعد العلمانية شكلاً ويضمر السعي نحو المشروع الإسلامي الشامل.
- مشروع يسعى إلى استبدال العلمانية التركية المتوحشة بعلمانية معتدلة تحافظ على ما يسمي بالهوية الحضارية الإسلامية.
- مشروع يتنازل عن المشروع الإسلامي وينطوي على رؤية استسلامية تعني أن الاكتفاء بالجانب الروحي والتوافق مع العلمانية هو غاية ما يمكن تحقيقه من جانب الإسلاميين.
- مشروع براجماتي (إسلام ليبرالي) يقدم حلاً توافقياً (يعمل على تأويل الإسلام للتوافق مع العلمانية القائمة) في سبيل النجاح الواقعي للتقدم التركي أو لقادة الحزب أو لكليهما على السواء.

أما **الاحتمال الأول** فيذهب إليه عتاة العلمانية التركية كما يقول الغنوشي.

أو يتظاهرون بالذهاب إليه بغرض الإجهاز على ما تبقي من روحانية إسلامية لا يطيقها ما يضمرونه من غل وتعصب ضد الإسلام كما جاء في دعوى المدعي العام التركي في ١٤ مارس ٢٠٠٨م ضد حزب العدالة والتنمية الحاكم مطالباً فيها بحظره ومنع ٧١ من قياداته – وفي مقدمتهم أردوغان وعبد الله جول – من ممارسة النشاط

السياسي لمدة خمس سنوات بدعوى " تحول الحزب إلى بؤرة لمعاداة النظام العلمـــاني، وتبنيه أجندة إسلامية خفية لإسقاط النظام الأتاتوركي العلماني" [25].

ولكن الأهم من ذلك أن هذه هي رؤية الكثيرين من الإسلاميين إلى حزب العدالة والتنمية يأتي على رأس هؤلاء الدكتور صدر الدين البيانوني (المراقب العـــام لإخـــوان سوريا) حيث أبدي البيانوني "تفهمه لحاجة اللاعبين الأتراك لـــ (المـــصانعة) نظـــراً لخصوصية وظروف الدولة التركية والمجتمع التركي فحين تفهم الإســـلاميون الأتـــراك شروط الحركة في بلادهم تكيفوا معها ونشطوا من خلالها ومن ثم حققوا تجربة ناجحـــة لا يجد المراقب العام لإخوان سوريا سبباً يدعوه لتجريدها من "الوصف الإســـلامي" [26] وقد يكون الدكتور راغب السرجاني من أكثر المتحمسين لهذا الاتجاه وقد كتب كتاباً في ذلك يبلغ أربعمائة صفحة (قصة أردوغان) ليس فيه أي شيء سوى أنه يكيـــل المـــديح لأردوغان والعدالة والتنمية ويؤكد فيه هذه الرؤية فيذكر تصريح أردوغـــان الأول بعـــد فوزه بالانتخابات بأن حزبه سيلتزم بالمبادئ العلمانية التي ينص عليها الدستور التركـــي ثم يعلق علي ذلك فيقول "والذي لا يفقه الواقع التركي قد يأخذ على أردوغان مثل هـــذا التصريح ولكن أردوغان كان يعلم أنه يعيش في دولة تملؤها التناقضات، فتركيا خلـــيط من إسلام وعلمانية، عثمانية وأوروبية، ديكتاتورية وديمقراطية، حكم الـــشعب وحكـــم العسكر، فالشارع يملؤه الإسلام ودستوره يحاربه ! . هذا هو الواقع الذي يجب التعامـــل معه بالحكمة والرهان على النفس الطويل في التطوير وتأجيل طرح المحـــاور المثيـــرة وإعادة ترتيب الأولويات، والبدء بقضايا المعاش وحقوق الإنـــسان واحتـــرام القـــانون ومقاومة الفساد في نخبة الحكم وتهيئة البلد للانضمام إلى أوروبا حيث وجد أردوغان في

---

[25]- قصة أردوجان : ص ١١٩ مرجع سابق

[26]- التجربة التركية في وعي الإسلاميين. مرجع سابق

المعايير الأوروبية سبيلاً أخر للتقوى على العلمانيين والحد من سيطرة العسكر المطلقة" [27].

وطبعاً الذي يفتقد المبدئية العقائدية تماماً بمثل هذه الأقوال سيكون من السهل عليه بعد ذلك أن يعتبر أردوغان "إمام من أئمة المسلمين" [28] ليس هذا فقط بل "زعيم ينتظر منه أن يغير حركة التاريخ، وأن يضع الأمة الإسلامية في مكانتها اللائقة" [29]. ومن ثم فهو يطمح أن يكون له مكاناً معه ولذلك فهو ينصحه أن يصحب العلماء الصالحين ويقول له : "لا تكتف بعلماء تركيا ولكن أنظر إلى علماء المسلمين جميعاً فتواصل معهم وأطلب نصحهم واسمح لهم وتقبل منهم واحرص على دعائهم" [30].

أما الاحتمال الثاني وهو النظر إلى حقيقة مشروع العدالة والتنمية على أنه مشروع يسعي إلى استبدال العلمانية التركية المتوحشة بعلمانية معتدلة تحافظ على ما يسمي بالهوية الحضارية الإسلامية فهو وجهة النظر العلمانيين التقليديين بل والإسلاميين التقليديين أيضاً إلي حزب العدالة والتنمية فيقول الدكتور فؤاد السعيد عن النموذج التركي في دراسته المنشورة بمجلة شرق نامة : "إنه يتضمن حقيقة التطورات في الفكر السياسي التركي التي تمكنت أخيراً مع حزب العدالة والتنمية من التوفيق بين الالتزام بتقاليد الدستور العلماني التي تعني الوعي بخطورة إقحام الدين في السياسة بشكل مباشر واحتكار الحق في استخدامه بالدعاية السياسية وبين التمسك بالتراث الإسلامي باعتباره جوهر الهوية الثقافية للمجتمع التركي" [31].

27– قصة أردوغان – مرجع سابق : ص ٩٥.

28–المرجع السابع : ص ٢١٢.

29–المرجع السابق : ص ٢١١.

30–المرجع السابق : ص ٢٢٤.

31– فاتن نصار – بعد الثورات العربية .. النموذج التركي هو الحل، موقع علامات أون لاين الإلكتروني http://www.alamatonline.net/l3.php?id=362

أو كما يقول الدكتور طارق عبد الجليل عن الاتجاه المعتدل للعدالة والتنمية : "لقد اهتدي بعد مراجعة ذاتية جدية إلى ضرورة انتهاج مقاربة جديدة حيال متطلبات الديمقراطية الليبرالية وعضوية تركيا للاتحاد الأوربي وتبلورت هذه الرؤيا في تشكيل حزب سياسي جديد هو حزب العدالة والتنمية في ٢٠٠١/٨/١ لا ينتمي إلى رؤية الحركة الأربكانية وإنما يمثل رؤية عرفت بـ "العثمانية الجديدة" وتعد امتداداً لرؤية الرئيس التركي الراحل تورجوت أوزال، وتقوم على الانفتاح تجاه مختلف التيارات والقوى الوطنية مع التمسك بالقيم والتقاليد الوطنية من أجل تحقيق نهضة الدولة داخلياً وتعزيز مكانة تركيا الدولة" [32].

وكما يقول ياسر الزعاترة في مقال له بعنوان (حول انتصار النموذج الإسلامي العلماني التركي) : "كان قادة العدالة والتنمية منسجمين مع أنفسهم حيث أعلنوا أنهم حزب علماني، ورفضوا ومازالوا يرفضون بعنف مقولات البعض أنهم حزب إسلامي حتى لو أضيفت له عبارات مثل معتدل أو متنور أو ما شابه ، كما ذهب أردوغان في أحد تصريحاته" [33].

أما الاحتمال الثالث وهو أن العدالة والتنمية مشروع يتنازل عن الأسس الإسلامية وينطوي على رؤية استسلامية للواقع التركي فهي رؤية يذهب إليها كثير من الباحثين منهم أنيب عساف بكر أوغلو الذي يقول: "صحيح أن حزب العدالة والتنمية نجا من الملاحقات القضائية التي رفعها ضده العلمانيون لكن يبدو أنه قد فقد شيئاً من طاقته الإصلاحية وقد ظهر ذلك جلياً في الانتخابات البلدية الأخيرة في ٢٩ مارس ٢٠٠٩

---

[32]–تركيا بين تحديات الداخل ورهانات الخارج – مقال الجيش والحياة السياسية تركيا بين تحديات الداخل ورهانات الخارج، مجموعة من الباحثين، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة: الأولى/ ٢٠٠٩: ص٦٥.

[33]– ياسر زعاترة، حول انتصار النموذج الإسلامي العلماني التركي ، موقع الجزيرة نت، الخميس ٢٠٠٨/٨/٧ http://www.aljazeera.net/NR/exeres/63AC271E-0EF7-4DC6-99A4-3C8BF802A179.htm

فأردوغان الذي سبق أن وعد بتحقيق مستقبل ديمقراطي مزدهر اقتصر على تحذير الناخبين من كون "البدائل الأخرى ستجلب مستقبلاً سيئاً" إذ لم يتم التصويت لصالح حزبه.

هذا الأسلوب – على ما يبدو – يؤشر على نهاية نمط من الخطاب السياسي ساد في فترة معينة وهو لا يعد فشلاً لحزب العدالة والتنمية، وإنما يمكن اعتباره نجاحاً للمؤسسة العلمانية التي استطاعت التقليل من طموحات برنامج معتنقي الإسلام السياسي في تركيا ومن سقف خطابهم السياسي، فعلي سبيل المثال وعلى ذكر الخطاب فقد أوضح حزب العدالة والتنمية، إن الحجاب – الذي هو أهم عنصر من عناصر الإسلام السياسي في تركيا – لم يكن يدخل ضمن أولوية أجندة الحزب، وفيما يتعلق بالخيارات الإيديولوجية فإن حزب العدالة والتنمية يعرف نفسه باعتباره حزباً "ديمقراطياً محافظاً".[34]

أما الاحتمال الرابع فلا يمكن الذهاب إليه قبل التساؤل عن أي معايير نحتكم إليها في النظر إلي حقيقة العدالة والتنمية وهو ما سنتناوله في الفصل التالي للدراسة.

---

[34]–تركيا بين تحديات الداخل ورهانات الخارج – مقال المؤسسة العلمانية والإسلام في تركيا، مرجع سابق: ص ١٣٠.

من أي منظور نحكم على النموذج التركي؟

أرى أنه لكي نستطيع أن نحكم على النموذج التركي بالفشل أو النجاح أو ندعو التيارات والأحزاب الإسلامية في الربيع العربي إلى التمثل به أو عدم ذلك فإنه لابد أن نحدد من أي منظور نتحدث أولاً.

وأقدم هنا منظورين للتعامل مع الموضوع:

- المنظور العقائدي.
- المنظور البراجماتي (المصلحي).

والمنظور الأخير ينقسم بدوره إلي:

- المنظور البراجماتي تصالح للدعوة الإسلامية في تركيا.
- المنظور البراجمالي لصالح الدعوة الإسلامية في الربيع العربي.

* المنظور العقائدي:

لكي نحكم على إسلامية أو عدم إسلامية حزب العدالة والتنمية فإننا لكي نستطيع أن نقدم الإجابة الأكثر اختصاراً لذلك لابد أن نتساءل هل حزب العدالة والتنمية يطبق الشريعة الإسلامية أو يدعو إلى هذا؟

الإجابة على ذلك هي لا بالطبع .

ولكن تلك الإجابة قد لا تعني شيئاً في ظل الضغوط القاهرة التي يواجهها الحزب في الداخل والتي يقر الجميع بكونها قاهرة هذا غير الضغوط التي يواجهها من الخارج الأمر الذي يعني أنه يمكن تبرير موقف الحزب استناداً إلي حكم الإكراه في الإسلام حيث لا يستطيع الحزب مجرد الإشارة إلي موضوع الشريعة فما بالك بالمطالبة بتطبيقها كما أن توجهات السياسية الخارجية التي تستهدف العمل علي تحقيق مصالح الأمة

الإسلامية تدعو إلى الاعتقاد بأن الحزب يُضمر السعي نحو التطبيق التدريجي للإسلام الشمولي.

لكن القواعد الإسلامية تقرر حدوداً معينة للإكراه تدور حول دفع الخطر الشديد كالتهديد بالموت وليس جلب المصالح علي شروح لا يتسع لها المجال هنا.

فالآية تقول : " من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مُطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم " . ١٠٦ النحل

فهذا في الحفاظ علي النفس وليس في جلب المصالح ودفع الأضرار فأن كان الشرع يسمح بإعلان كلمة الكفر للحفاظ علي النفس فإنه لا يدخل العقائد علي الإطلاق في مجال جلب المصالح ودفع الأضرار فلهذا أحكام ولهذا أحكام وإقرار علمانية الدولة وإعلان علمانية الحزب وتمجيد صنم العلمانية أتاتورك وادعاء أن العلمانية تتوافق مع الإسلام بل والدعوة إلى تأسيس شعوب الربيع العربي دولتها على الأسس العلمانية (أو أن ذلك لا يتعارض مع الإسلام في أفضل الظن عند من يذهبون إلي أن أقوال الرجل أردوغان تعرضت للتجني عند الترجمة) هي أمور تتدخل في مجال العقيدة وتتناقض تماما مع العقائد التي جاء بها الإسلام.

من ناحية أخري فإن الشيء الواضح وضوح اليقين الذي لا تشوبه ذرة لبس أنه إذا كان هناك من يبرر للنموذج التركي عدم تطبيق الشريعة نظراً للظروف القاهرة التي يتعرض لها في الداخل فإن هذه اللادينية لا يحوز للتيارات والأحزاب الإسلامية في الربيع العربي تمثلها بأية حال نظراً لعدم تعرضها لمثل هذه الظروف القاهرة وإلا فلماذا قامت بالربيع العربي أصلاً حتى وإن كانت مازالت تتعرض للكثير من الظروف الضاغطة.

* من المنظور البراجماتي:

قد يكون من غير المفيد الجدل حول إيجابية ما أحرزه حزب العدالة والتنمية من إنجازات على عدة أصعدة خصوصاً على الصعيد الاقتصادي وذلك من المنظور البراجماتي المادي البحت وإن كانت حكومة إربكان قد حققت نفس النجاح في المدة المناظرة للمدة القصيرة التي تولتها هذه الحكومة .

لكن الأمر يتعرض للكثير من الجدل إذا تحدثنا عن مدي ما أحرزه الحزب من تقدم للدعوة الإسلامية في تركيا من المنظور البراجماتي المصلحي لهذه الدعوة فما نذهب إليه أن مواقف الحزب في هذا الاتجاه تعني تقديم رؤية استسلامية لواقع طغيان السيطرة العلمانية على الدولة وكأن ذلك قدراً قاهراً لا يمكن تغييره ومن ثم يكون العمل على التوافق مع العلمانية والاكتفاء بالإسلام الحضاري هو بديل للدعوة لتطبيق الإسلام الشمولي وإجهاض لها.

أما الظن من جانب بعض الإسلاميين بإضمار الحزب التخطيط لتطبيق الإسلام الشمولي وهو الظن الذي يدعي موافقتهم فيه بعض عتاة العلمانية بهدف الضغط على العدالة لتقديم تنازلات أكبر من جانبه، هذا الظن يدفعه الفكر التنظيري لقيادات الحزب وعلى رأسهم أحمد داود أوغلو (وزير الخارجية) والذي يعد بمثابة الأستاذ لأردوغان نفسه من الناحية الفكرية (وهي الصفة التي يحدثه بها) حيث يري أوغلو أن الهدف من العمل الإسلامي "هو تحقيق المقاصد بصرف النظر عن الآليات التي يمكنها تحقيق ذلك وهذه المقاصد هي الضروريات الخمس التي عبر عنها بحماية الحياة وحماية الفكر والدين والممتلكات وتحقيق العدل ويمكن لأية آلية أن تكون شرعية طالما حققت تلك المقاصد والقيم، وانطلاقا من هذا يري أن مسئولية المفكرين الإسلاميين هي تفسير

وترجمة النظم السياسية وآليات وقتنا الحاضر ومحاولة تحقيق انسجام وتجانس جديد بين قيم المجتمع والآليات التي يمكن العثور عليها في الهياكل القائمة".[35].

وهذا الكلام الذي يذهب إليه هو تحديداً جوهر ما يسمي الإسلام الليبرالي كما أنه يتطابق تماماً مع أفكار مفكرين من أمثال جمال البنا حيث تغدو مقاصد الدين هي الغاية والآليات العلمانية هي الوسيلة ومن ثم يتم التنازل عن الشريعة كاملة ويفرغ الدين من محتواه في الوقت الذي لا تصلح فيه الغايات إلا إذا كانت الوسائل المؤدية إليها من نفس نوعها.

أما من المنظور الراجماتي المصلحي للأمة فإنه حتى على فرض صحة ظن إضمار العدالة للعمل على تطبيق الإسلام الشامل فإن نجاحهم في ذلك يظل مغامرة ضئيلة الاحتمال تتم في مقابلها خسائر جسيمة على مستوي الأمة نتيجة توجه العدالة والتنمية لهذا الاتجاه ودعوة باقي الأمم الإسلامية إلى تمثله منها:

- زرع البلبلة والخلط في عقول الناس في المجتمعات الإسلامية بادعاء توافق الاتجاه العلماني مع الإسلام.
- إسباغ الشرعية على الأحزاب العلمانية القائمة ومنحها التبرير لممارساتها الاستبدادية ضد الإسلاميين المنادين بدعوى الشريعة.
- الترويج للأحزاب التي تدعي الإسلامية وتعلن أن هويتها الإسلام الليبرالي المعتدل.
- تعرض العقيدة الإسلامية ذاتها للتفكك والانهيار نتيجة الترويج بإمكانية التوافق بين العلمانية والإسلام أي أمكانية الفصل بين الإيمان بالله في الإسلام وعدم مرجعية الشريعة وهو الأمر الذي يتناقض تناقضاً صريحاً مع عشرات الآيات

---

[35]– د. عبد الوهاب المسيري، انسجام القيم الثابتة والآليات المتغيرة على الدوام، موقع الجزيرة نت-http://www.aljazeera.net/NR/exeres/3C32E94A-4D1A-4C0A-9581-132D54DE8624.htm

ومع الأساس العام الذي يقوم عليه الإسلام نفسه ومن ناحية أخـــري إصـــباغ الشرعية للدراسات والكليات الإلهية في تركيا وأمثالها في الدول الإسلامية التي تعمل على تأويل العقائد الإسلامية إلي تأويلات علمانية ملحدة مثـــل تـــأويلات حسن حنفي التي تدرس في الكليات الإلهية التركية.

* نشر روح الهزيمة والتبعية للغرب وهو الأمر الذي يتجاوز الأتمثـــال للتـــصالح المفاهيمى بين الإسلام والمفاهيم والقيم الغربية الذي ينتهجه حزب العدالة والتنمية إلـــي تمثل الممارسات السياسية الفعلية لحزب العدالة الحليف الاستراتيجي لأمريكا التي تسعي إلى تسيُد نمونجه في العالم الإسلامي أجمع.

النمـــوذج التــونسي

النموذج التونسي

الأصول التاريخية للحركة الإسلامية في تونس

الحكم العثماني في تونس

بدأ الحكم العثماني في تونس في ١٥١٦ وأستتبّ في ١٥٧٤ أقام فيها العثمانيون إدارة إقليمية دامت ١٧ سنة ، إلى أن قامت ثورة عسكرية في عام ١٥٩١ حدّت من سلطة الباشا العثماني ونقلت السلطة الفعلية إلى الداي وهو لقب كان يحمله حوالي أربعين ضابطا كبيرا في الجيش العثماني ، وفي سنة ١٦٠٠ أصبحت السلطة في تونس حكرا على الدايات الذين أقاموا علاقات ديبلوماسية مع فرنسا دون علم السلطة العثمانية .

كان وضع تونس في النصف الأول من القرن ١٧ مزدهرا حيث انتعشت التجارة والمبادلات الاقتصادية مع مارسيليا وليفورنو وأقيمت علاقات تجارية مع أنجلترا وهولندا، وبعد عام ١٦٥٠ انحسرت بسلطة الدايات وحلّ محلهم البايات الذين كانوا أدنى منهم رتبة في الأصل ، وقد أسسّ الباي حمودة في عام ١٦٥٩ سلطة المراديين واستمرت هذه السلطة تحكم تونس كلها إلى عام ١٧٠٢ وبعد عام ١٧٠٥ حكمت تونس سلالة جديدة من البايات عرفت البلاد عندها استقرارا نسبيّا رغم توتر العلاقات مع الجزائر وبداية ظهور الأساطيل الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط .

وبعد الحروب النابوليونية أحسّت تونس بوطأة أوروبا الاستعمارية عليها بشكل حاسم ، ففي مؤتمري فيينا وأيكن ١٨١٥ – ١٨١٧ فرضت الدول الأوروبية على الباي محمود وضع حدّ لنشاطات القراصنة الذين كانوا يؤمّنون لتونس قسطا من مداخيل الدولة، وفي عام ١٨٣٠ احتلّ الفرنسيون الجزائر ، وقد شهدت الخمسون سنة التالية بعد هذا التاريخ محاولات تونسية لتجنّب نفسها المصير نفسه . وفي سنة ١٨٨١ حسمت فرنسا موضوع احتلالها لتونس بحجة وقوع حوادث على الحدود مع الجزائر وفرضت معاهدة قصر سعيد والتي صار الباي التونسي بموجبها حاكما اسميا لتونس .

وفي عام ١٨٨٣ أجبر الباي علي الرابع على التوقيع على اتفاقية مرسى التي كرستّ الحماية الفرنسية لتونس ، ونقلت السلطة إلى المقيم العام الفرنسي ، وقد شجعّ الفرنسيون مجيء مستوطنين أوروبيين إلى تونس حيث منحتهم السلطات الاستعمارية في تونس الأراضي الخصبة بعد أن سرقتها واغتصبتها من الفلاحين التونسيين الذين لم يكونوا يملكون غيرها لإعالة أنفسهم ووسط هذا المناخ الاستعماري الغاشم بدأت الحركة الوطنية التونسية تتشكّل وتتأسس مستلهمة الموروث الحضاري لتونس ، وسوف تلعب بعد حين أكبر الأدوار في تاريخ تونس المعاصرة .

في شهر أيّار – مايو ١٨٨١ احتلّت الجيوش الفرنسية تونس ودخلتها عن طريق البر والبحر وقد أحتلّ الفرنسيون مدينة بنزرت وتوجهوا إلى تونس العاصمة لمقابلة الباي وقدموا له نسختين من معاهدة فرنسية معدّة سلفا ، وقد أرغم الباي على التوقيع على المعاهدة الفرنسية التي عرفت باسم معاهدة باردو والتي أخضعت تونس رسميا للسيطرة الفرنسية .

وفي فترة احتلالها لتونس سيطرت فرنسا على التعليم فأخضعته لنظم فرنسيّة حتى أصبح الطالب التونسي يتقن اللغة الفرنسية ويفقه أسرارها ويتذوق أدبها ، ونفس المشروع التغريبي الذي نفذته فرنسا في الجزائر قامت باستنساخه في تونس ، حيث قضت على المعاهد الأصلية التي كانت تخرّج علماء اللغة والشريعة وأبقت على الجزء اليسير منها ، وفي محاولة لإخضاع تونس للثقافة الفرانكفونية الاستعمارية قامت فرنسا بمحاربة كل مظاهر التديّن لدى الشعب التونسي وعملت على القضاء على اللغة العربيّة وشيدّت مدارس ومعاهد فرنسية . وباعتبار أنّ مساحة تونس صغيرة جدا إذا ما قورنت بمساحة الجزائر أو المغرب فقد تمكنّت السلطات الفرنسية من بسط نفوذها بسرعة على كل الأراضي التونسية وهو ما شكلّ خرقا صريحا للمعاهدة الفرنسية التي أجبر الباي على توقيعها .

وتجدر الإشارة إلى أن يهود تونس لعبوا دورا كبيـــرا فـــي التمكـــين للغـــازي الفرنسي، حيث كان اليهود التونسيون والذين يكثر وجودهم في معظم المناطق التونسية وتحديدا في منطقة جزيرة جربة حيث مقام الغريبة اليهودية التي يحج إليها اليهود سنويا وبعشرات الآلاف ، وقد كافأتهم السلطات التونسية بمنحهم الجنسيّة الفرنسية .

وقد نجحت السلطة الاستعمارية الفرنسية في تكريس مــشروعها الثقـــافي كمـــا السياسي في تونس ، ومازالت الآثار الثقافية الفرنسية قائمة إلى يومنا هذا ، وبالإضـــافة إلى هذا فقد نجحت السلطات الفرنسيةً في شقّ الحركة الوطنية التونسية التي كان فيهـــا جناحان ، جناح يؤمن بالثورة على الطريقة الجزائرية لدحر المستعمر الفرنسي ، وجناح لا يعترض على الوجود الاستعماري الفرنسي لكن يطالب بإصلاحات سياسية وتكـــريس حقوق ألإنسان التونسي .

وأول من بادر إلى مقاومة السلطات الفرنسية في تـــونس هـــو الـــشيخ محمـــد السنوسي الذي قاد الحركة الوطنية وشكلّ وفودا شعبية ذهبـــت تطالـــب البـــاي بوقـــف الفرنسيين عند حدهّم، فما كان من السلطات الفرنسية إلاّ أن نفت الشيخ محمد الـــسنوسي خارج تونس ، وتولىّ قيادة الحركة الوطنية بعده الشيخ المكي بن عزوز أحـــد شـــيوخ جامع الزيتونة الثوريين ، وكونّ مجموعة من الشباب التونسيين الثوريين وعبأهم ضـــدّ القوات الاستعمارية الفرنسية ، وتمّ نفي الشيخ مكي بن عزوز خارج تونس حيث أدركته المنيّة في المشرق العربي .

وقد حمل أفكاره الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي كان الى جانبه الـــشيخ علـــي كاهية والشيخ زروق والهادي السبعي .

والى جانب مشاركة القبائل التونسيّة في الجهاد وحمل السلاح ضدّ الفرنـــسيين ، فقد اندلعت معارك طاحنة بين التونسيين والإيطاليين ، وكانت أخر معركة بين الطرفين عرفت باسم معركة الجلاّز ، وتحركت السلطات الفرنسية عندما رأت أن زمام الأمـــور ستفلت من يدها بعد المعارك التي نشبت عقب معركة الجلاّز ، فـــصبّت فرنـــسا جـــام

غضبها على الحركة الوطنية التي حملتها فرنسا مسؤولية الانتفاضات وتمّ اعتقال الشيخ علي باش حانبه و عبد العزيز الثعالبي والشاذلي درغوث ومحمد العروي ومحمد نعمان والمختار كاهية وقد هاجر علي باش حانبه إلى تركيا فيما هاجر عبد العزيز الثعالبي إلى الجزائر ومنها إلى مصر .

وكانت السلطات الفرنسية تتوقع أن تنتهي المقاومة الشعبية بعد نفي زعماء الحركة الوطنية إلى الخارج ، الاّ أنّ ثورة مسلحة اندلعت سنة ١٩١٥ واستمرت إلى سنة ١٩١٨ بقيادة الحاج سعيد بن عبد اللطيف ، وفي عام ١٩١٩ وأثناء انعقاد مؤتمر الصلح بباريس اتصلّ الشيخ عبد العزيز الثعالبي بالمؤتمر وقدمّ إليه مذكرة تتعلق باستقلال تونس وطالب بتطبيق مبادئ ويلسون الأربعة عشر ونشر في باريس كتابا بعنوان : تونس الشهيدة ، فضح فيه دسائس الاستعمار الفرنسي وجرائمه في حق شعب تونس ، وقد تلقفّ المثقفون في المغرب العربي هذا الكتاب ، وبسبب هذا الكتاب ألقت فرنسا القبض على عبد العزيز الثعالبي وأرجعته إلى تونس وألقته في أحد سجونها ، والثعالبي الذي ساهم إلى أبعد الحدود في النهوض بالوعي السياسي للتونسيين لم يذهب جهده سدى ، إذ أنّ الشعب التونسي لجأ إلى التظاهرات والإضرابات وطالب بضرورة إخلاء سبيل الشيخ عبد العزيز الثعالبي وأجبر فرنسا على ضرورة إطلاق سراحه ، وبعد خروجه من السجن تمّ تعيينه رئيسا للحزب الحر الدستوري التونسي ، كما جرى تعيين المحامي أحمد الصافي أمينا عاما للحزب . وشرع هذا الحزب في فتح الفروع والمكاتب في مختلف البلاد التونسية ووضع برنامجا ثقافيا وفكريا يقضي بغرس الوطنية في نفوس التونسيين تمهيدا لإشراكهم في الكفاح المسلح ضدّ الاستعمار الفرنسي .

وقد قام الحزب الدستوري التونسي سنة ١٩٢٠ على مبادئ تطالب بنظام دستوري لتونس وتأليف حكومة وطنية مسئولة أمام الشعب باعتبار أنّ تونس أول بلد عربي أعلن دستورا في سنة ١٨٦٥ يمنح نواب الشعب حق المشاركة في الحكم وحتى حق خلع الباي.

من هو عبد العزيز الثعالبي :

يعتبر عبد العزيز الثعالبي أحد روّاد الإصلاح في تونس ويشبه إلى حدّ كبير في تفكيره رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ عبد الحميد بن باديس ، فالثعالبي كان يرى أنّ مصدر التشريع في البلاد العربية والإسلامية يجب أن يكون الثقافة الإسلامية ، ورغم كونه أحد أعلام جامع الزيتونة إلاّ أنّه كان ضالعا في القضايا السياسيّة ولم يكن يرى فرقا بين الدين والسياسة ، وكان يرى أنّ الدين جاء لإصلاح شؤون الناس وإدارة حياتهم ، ولم يكن الثعالبي مجرد زعيم سياسي بل كان مصلحا اجتماعيّا ودينيّا ، وكان متأثرا بفكر محمد عبده و رشيد رضا وقد تسنىّ له الإطلاع على فكرهما عندما أقام في مصر غداة نفيه من قبل السلطات الفرنسية من تونس . وتمكن من ملامسة الهمّ العربي والإسلامي من خلال تنقله بين مصر وبغداد وفلسطين ، وقد أكسبه هذا التجوال المزيد من التجارب خصوصا فيما يتعلق بزعماء الإصلاح وروّاد التنوير في المشرق العربي .

وقد أثار الجمود الذي أصاب الحزب الدستوري التونسي بعد نفي زعيمه الثعالبي نفرا من الشبّان التونسيين المنضوين تحت لواء الحزب الدستوري فقاموا بتأسيس جريدة صوت التونسي في سنة ١٩٢٨ وتولى إدارتها الشاذلي خير الله ، وفي سنة ١٩٢٩ أصبحت هذه الجريدة تحمل اسم العمل التونسي وكلتاهما كانتا تصدران باللغة الفرنسية ، لأنّ الصحف العربية كانت ممنوعة[١] .

وفي سنة ١٩٣٢ عقد الحزب الحر الدستوري التونسي مؤتمرا استثنائيّا وأنتخب أسرة تحرير العمل التونسي في اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري وهم الدكتور محمود الماطري ، والمحامي الطاهر صفر والمحامي البحري قيقة والمحامي محمد بورقيبة و شقيقه الأصغر الحبيب بورقيبة .

---

(١) راجع فيما سبق يحيي أبو زكريا (تاريخ الحركة الإسلامية بتونس) أون نت

ويتجلى من خلال التطورات التي حصلت داخل الحزب الدستوري التونسي أنّ قيادته الأولى كانت من علماء الدين وخريجي جامع الزيتونة العريق في تونس ، وكان الرعيل الأول مشبعا بالثقافة الإسلامية والعربية ، وبعد نفي الشيخ الثعالبي تولى قيادة هذا الحزب مجموعة من الشباب التونسي المتأثر بالثقافة الفرانكفونية وكثير من شخصيات الرعيل الثاني أتمّت تعليمها في الجامعات والمعاهد الفرنسية .

ويمكن القول أنّ النضال التونسي الذي بدأه علماء جامع الزيتونة قد صودر بوصول نخبة مثقفة بالثقافة الفرنسية وعلمانية إلى مواقع التأثير في أهم حزب في تونس.

وإذا كان عبد العزيز الثعالبي.قد بنى الحزب الدستوري التونسي على أسس فكرية تمتد جذورها الى الفكر السلفي الإصلاحي الذي بلوره جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وربط الحركة النضالية التونسية بحركات التحرر في المغرب والمشرق العربيين.

فان الذين جاؤوا بعده لم يكونوا على منواله . وفي الضفة الأخرى يقف الشباب الذين انشقوا في وقت لاحق عن الحزب الدستوري الأم وأسسوا الحزب الدستوري الجديد وكانوا قد درسوا في أوروبا وتربّوا على الفكر التنظيمي الغربي ، والخلاف بين الثقافتين أدّى إلى اختلاف في منهج العمل وأسلوب التحرك السياسي .وقد تمكنّ التيار السياسي الجديد وهو الحزب الدستوري الجديد من فرض نفسه في الساحة السياسية التونسية ، ودعا هذا الحزب إلى سلسلة من الإضرابات والتظاهرات ثمّ دعا إلى العصيان المدني وبسبب هذا العصيان وقعت صدامات دموية بين المواطنين التونسيين والجيش الفرنسي .

وفي عام ١٩٥٤ عرضت حكومة منديس فرانس الفرنسية على التونسيين مشروع منح تونس الحكم الذاتي مع احتفاظ فرنسا بمسؤوليّة الدفاع والشؤون الخارجية ، ولقيت هذه المقترحات القبول من جانب الحبيب بورقيبة ، وبموجبه تشكلّت حكومة فرنسية برئاسة طاهر بن عمّار وضمّت هذه الحكومة عناصر معتدلة و ثلاثة أعضاء من الحزب الدستوري الجديد ، وبدأت المفاوضات مع الفرنسيين لتسفر عن اتفاق نهائي في ٠٢ حزيران – جوان سنة ١٩٥٥ .

وكانت بعض الشخصيات الوطنية تعتبر هذا الحكم الذاتي استمرارا للاستعمار وتنازلا صريحا عن تونس ومنحها على طبق من ذهب للفرنسيين . وقد تزعمّ معارضة ها الاتفاق صالح بن يوسف الذي تمكنّ من تحريك مئات التونسيين الذين دخلوا في مواجهات مع الجيش الفرنسي والقوات الحكومية التونسية والتي ألقت القبض على كل مؤيدي صالح بن يوسف الذي تمكنّ من الفرار إلى طرابلس .

وفي تلك الظروف التي كانت تشبه ظروف الحرب الأهلية توجة وفد تونسي برئاسة الحبيب بورقيبة إلى باريس لإجراء مفاوضات جديدة مع الفرنسيين ، وفي ٢٠ آذار – مارس ١٩٥٦ وقعّ الطرفان بروتوكولا أقرّت فيه فرنسا رسميا باستقلال تونس وحقها في تولّي الشؤون الخارجية والدفاع والأمن الداخلي وتشكيل جيش وطني وتضمنّ الاتفاق أن القوات الفرنسية تبقى في فرنسا في فترة انتقالية تنسحب بعدها من تونس . وقد أدّت الانتخابات العامة التي وقعت في تونس بعد الاتفاق مع فرنسا إلى فوز الحزب الدستوري الحاكم ، وأصبح الحبيب بورقيبة رئيسا للدولة التونسية ، وأصبح الحزب الدستوري بقيادة بورقيبة حزبا حاكما ، وتمّ إبعاد كل أنصار صالح بن يوسف أو اليوسفيين من الحكم وخصوصا بعد نْ قاطعوا الانتخابات العامة .

وقد لعب الحبيب بورقيبة دورا كبيرا في تاريخ تونس المعاصرة لجهة اضطلاعه بصناعة القرار التونسي ولأزيد من ثلاثة عقود من الزمن ، وقد أكمل بورقيبة تعليمه في جامعة السوربون في فرنسا والتي تخرجّ منها بشهادة البكالوريوس في الحقوق . وتجدر الإشارة إلى أنّ تونس لم تحصل على استقلالها عبر ثورة شعبية كما هو شأن الجزائر ، بل إنّ فرنسا وافقت على منح الاستقلال الذاتي لتونس ، وهذا لا يعني أنّ الحركة الوطنية التونسية لم يكن لها دور في محاربة الاستعمار الفرنسي ، بل الأمر يعود إلى رغبة فرنسا في تخفيف العبء الاستعماري عنها والتفرغ لمجابهة الثورة الجزائرية التي أقضّت مضاجعها .

وبعد استقلال تونس وجد الحبيب بورقيبة نفسه على رأس الدولة التونسية الفتية والتي راح يصيغ ثوبها الفكري والسياسي والإيديولوجي صياغة لا تمت بصلة إلى الموروث العربي والإسلامي لتونس ولذلك كان الحبيب بورقيبة عرضة لكثير من الاتهامات من معارضيه من قبيل أنّه صنيعة فرنسية ، وأنّ باريس لعبت دورا كبيرا في تعيينه على رأس الدولة التونسية ، وكان لجوءه إلى سنّ مجموعة كبيرة من القوانين العلمانية يزيد في اتساع حجم هذه الاتهامات .

وإذا كان خصوم الحبيب بورقيبة من الوطنيين و الإسلاميين يتهمونه بجرّ تونس إلى حظيرة العلمانية المتوحشة فانّ بعض الثوّار الجزائريين كانوا يتهمون بورقيبة بأنّه كان يعمل على تطويق الثورة الجزائرية ويسرد عمار قليل وهو من المشاركين في الثورة الجزائرية في كتابه ملحمة الثورة الجزائرية هذه القصة التي مفادها أنّ البيت الأبيض في واشنطن استدعى في أواخر تشرين الثاني – نوفمبر – ١٩٥٦ رئيس الحكومة التونسية الحبيب بورقيبة لزيارة واشنطن والذي لبىّ الدعوة حيث قابل في واشنطن الرئيس الأمريكي ايزنهاور ، وحول مائدة ايزنهاور دارت مفاوضات ومساومات حول القضيّة الجزائرية ، وتمّ الاتفاق في نهايتها على أن تدفع حكومة واشنطن مساعدة اقتصادية لتونس مقابل أن يقوم الحبيب بورقيبة بدور فعّال لإقناع قادة الثورة الجزائرية بالكفّ عن القتال وإعادة الهدوء والحياة الطبيعية إلى الجزائر في ظلّ فرنسا ، و قد تعهدّ الحبيب بورقيبة بأن يقوم بوساطته لدى قادة الثورة الجزائرية في محاولة لإقناعهم بوقف القتال ، كما فعل في تونس عندما قبل الاستقلال الذاتي ، وكان أول تصريح له وهو على أدراج سلّم البيت الأبيض : نحن مع الغرب وسنظلّ معه لا بحكم موقعنا الجغرافي فقط بل بحكم ثقافتنا وتقاليدنا ، وحين عاد إلى تونس صرحّ قائلا: لقد اتفقت مع الرئيس الأمريكي ايزنهاور على أن نتوسطّ لحلّ القضية الجزائرية ، وكان الرئيس التونسي على الدوام إلى جانب المشاريع السياسية المتعلقة بكيفية حلّ الأزمة الجزائرية التي كان يطرحها الجنرال شارل ديغول رئيس فرنسا في ذلك الوقت .

ورد في كتاب الملحمة الجزائرية للأستاذ عمار قليل أنّ بورقيبة عندما عاد من واشنطن إلى تونس بدأ يجري اتصالات مع السياسيين في كل من مراكش والجزائر وليبيا وتونس ، وأوضح لهم بورقيبة أنّ هناك مشروعا لإقامة حلف جديد يجمع أقاليم الشمال الإفريقي بالإضافة إلى فرنسا و إسبانيا وايطاليا ، وترعاه أمريكا وبريطانيا ويكون مكملاً للحلف الأطلسي .وقد حاول بورقيبة إقناع المسئولين في شمال إفريقيا بقبول المساهمة في الحلف الجديد الذي كان يحمل اسم حلف غربي البحر الأبيض المتوسط ، وكاد هذا الحلف الجديد أن يتحولّ إلى واقع سياسي لكنّ الثورة الجزائرية نسفت فكرة هذا الحلف من أساسه . لقد أقترح الحبيب بورقيبة على قادة الثورة الجزائرية أن يوقفوا إطلاق النار ،ويقبلوا بتشكيل حكومة في نطاق الاتحاد الفرنسي ، ومن بعد ذلك تدخل الجزائر في حلف مع فرنسا بالاشتراك مع دول الشمال الإفريقي .

وكان بورقيبة يؤكّد لقادة جبهة التحرير الوطني على ضرورة القبول بهذه الفكرة كما كان ينوّه بمزايا الحلف . و ظلّ بورقيبة على امتداد ثلاثة أسابيع يحاول إقناع قادة الثورة الجزائرية بالفكرة ، ولم تجد محاولاته على الإطلاق فتلاشى المشروع الأمريكي كما تلاشت محاولات بورقيبة .

في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات بدأت تتأسّس في تونس النواة الأولى للحركة الإسلامية التونسية ، وقد تأثرّ مجموعة من المثقفين في ذلك الوقت بفكر المفكر الجزائري مالك بن نبي صاحب التصنيفات الكثيرة من قبيل الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، وشروط النهضة ، وغيرها من التصنيفات .

كما تأثرت هذه النخبة التونسية بفكر سيد قطب أحد أبرز منظرّي تنظيم الإخوان المسلمين في مصر ، والمفكر الباكستاني أبو الأعلى المودودي ، وأبرز قطب في هذه النخبة راشد الغنوشي وصالح كركر وعبد الفتّاح مورو وغيرهم .

وشكلّ هؤلاء جمعية إسلامية هي أقرب إلى خلية منظمة ومهيكلة والتي أصبحت فيما بعد تعرف باسم حركة الاتجاه الإسلامي ، وقد ركزّ الاتجاه الإسلامي عمله في

الجامعات والثانويات والمعاهد التربوية والمساجد ، وتمكنّ من استقطاب العديد من الأنصار ، وكان أهداف هذه الجماعة :

١- إعادة إحياء القيّم والمبادئ ومفردات الثقافة الإسلامية .

٢- مقاومة الغزو الفكري وإفرازات التأثر بالعلمانية الغربية ، وذلك من خلال وسائل دعوية لا علاقة لها بالعنف إطلاقا .

وكان الاتجاه الإسلامي بزعامة راشد الغنوشي يتحاشى الدخول في صراع مع السلطة القائمة والتي كان يريدها الحبيب بورقيبة علمانية على الطراز الغربي الخالص ، إلى درجة أنّ بورقيبة كان يقول : يا ليت تونس تقع جغرافيّا قرب السويد أو الدانمارك لتخرج نهائيا من هذا المحيط العربي والإسلامي .

ويعتبر زعيم حركة الاتجاه الإسلامي راشد الغنوشي من الإنتليجانسيا الإسلامية في تونس ، درس الفلسفة في جامعة دمشق في سوريا وكان في بداياته الفكرية متأثرا بالفكر القومي العربي وبالخط الناصري ثمّ عدل عن هذا الفكر عندما توالت الانتكاسات على العالم العربي بعد النكسات المتتالية مع الكيان الصهيوني .وعندما شرع في قراءة الكتب الإسلامية أخذ يتأثر بالأدبيات الإسلامية إلى أن تحولّ كلية إلى تبني الفكر الإسلامي و أعتبر أنّ البديل الإسلامي هو الأصلح للعالم العربي والإسلامي .

ولأنّه تحاشى الاصطدام بالسلطة الإسلامية فقد أستطاع أن يبنيّ لتنظيمه الذي كان يعرف بالاتجاه الإسلامي ، والذي تحولّ مع مرور الأيام إلى ظاهرة أثارت مخاوف المشرفين على الوضع العام في تونس ، كما أثارت مخاوف الحبيب بورقيبة الذي لاحق الأعضاء البارزين في جماعة الاتجاه الإسلامي . وقد تعرضّ راشد الغنوشي للاعتقال وربما هذا الذي أدىّ إلى تكريسه كزعيم إسلامي تونسي ، وبدأ رصيده يرتفع كأهمّ خصم لنظام الحبيب بورقيبة العلماني .

ويحظر الدستور التونسي تأسيس أحزاب على أساس ديني إسلامي ، و كانـت الساحة السياسية في تونس حكرا على حزب السلطة والأحـزاب القريبـة مـن دوائـر السلطة.

وعندما بدأت الحركة الإسلامية الجزائرية تبرز بقوة في بداية الثمانينيات بـدأت حركة الاتجاه الإسلامي تعرض قوتها ، فراحت تدعو إلى تظاهرات طلابيّة في الثانويات والجامعات ، ودخلت في جدال واسع مع السلطة التونـسية خـصوصا عنـدما أقـرّت الحكومة التونسية ميثاق الأسرة والذي رأت فيه حركة الاتجاه الإسلامي خروجا صريحا عن الإسلام وتقليدا أعمى للمواثيق والدساتير الغربيّة .

في الثمانينات شهدت تونس مجموعة من التطورات الاجتماعية أفرزت ما يعرف بثورة الخبز في تونس ، وكان الشارع التونسي عندها يغلي ، وكانت الدوائر التونـسية تخشى أن تستغل حركة الاتجاه الإسلامي هذا الوضع المزري وتخلط الأوراق خصوصا في ظلّ تتابع هواجس الثورة الإسلامية الإيرانية .

وكانت حركة الاتجاه الإسلامي تؤكد على حقها في الوجود ضـمن الخارطـة السياسية التونسية ، وكانت تطالب فقط بتقويم الاعوجاج والتخلي عن سياسة التغريـب والعلمنة .

ولم يكن لحركة الاتجاه الإسلامي مشروع سياسي متكامل بل كانت تحرص على تفعيل المشروع الثقافي والاجتماعي بالدرجة الأولى ، فبورقيبة كان حريصا على جعـل تونس قطعة من الغرب ، وكان يرفض حتى الانتماء العربي والإسلامي لتونس ، وحتى جامع الزيتونة الذي لعب أكبر الأدوار في تاريخ تونس حولّه الحبيب بورقيبة إلى مجرّد متحف وأفرغه من دوره الحضاري . ولو أنّ بورقيبة انفتح إلى حدّ مـا علـى القـيم الإسلامية لما تمكنّت حركة الاتجاه الإسلامي من تهديد الوضع العام في يوم من الأيّام[1].

---

(١) يحيي أبو زكريا ، مرجع سابق .

والانفتاح على الأخر كان من سمة حركة الاتجاه الإسلامي إلى درجة أنّ أدبيّات الحركة كانت غنيّة بموضوعات الديمقراطية والمرأة والعلاقة مع الغرب؛ والتركيز على هذه المضامين كان الأبرز بالمقارنة مع مضامين من قبيل تطبيق الشريعة الإسلامية، والقوانين الإسلامية وإسلامية المجتمع أو جاهليته.

وفي هذا السياق قال راشد الغنوشي : "لقد كانت قضية الحريات العامة في الدولة الإسلامية الهمّ الأعظم الذي استبدّ بي منذ بدايات الحركة الإسلامية في تونس من مرحلة الدعوة لمبادئ الإسلام في مواجهة الثقافة الوافدة المهيمنة إلى مرحلة التفاعل الواسع مع هموم المجتمع التونسي والعربي عامة، أي: منذ أكثر من عشر سنوات ، وكان أهمها قضية الحرية ولا تزال!!! ، فقد كان تقديم إجابات واضحة عن التحديّات المطروحة على الفكر الإسلامي في بلد مثل تونس قد ضرب بسهم وافر في التغريب؛ والثقافة ضرورة معرفية لا بديل عنها للحركة الإسلاميّة فيها.

وعندما تأسست حركة الاتّجاه الإسلامي أعلن راشد الغنوشي أنّه يقبل بقواعد اللعبة الديمقراطية، وهو يعتبر سلطة الشيوعيين شرعية إذا وصلوا إلى الحكم بالوسائل الديمقراطية و الشرعية ، وحتى الكتّاب الغربيين ومنهم صاحب كتاب الإسلام السياسي الباحث الفرنسي بورجا اعترف أنّ راشد الغنوشي هو أوّل "مناضل أصولي" يعترف بقبول اللعبة الديمقراطية حتى لو أدّت إلى فوز أشرس خصوم الغنوشي أي الشيوعيين ويعتبر الغنوشي أنّ الديمقراطية لها سند في النصوص الشرعية وهي الشورى بآليّة أخرى إلاّ أنّ الغنوشي لا يعطي مفهومًا واضحًا عن الشورى، وهل هي عينها الديمقراطية الغربية [1]؟

---

(١) التاريخ السري للحركة الإسلامية في تونس : إسلام نيوز أونت

وما كان الحبيب بورقيبة الذي مارس سياسة الاستئصال مع حركة الاتجاه الإسلامي ليستمرّ في الحكم إذ أطاح به أقرب الناس إليه الجنرال زين العابدين بن علي أحد الضبّاط التونسيين الذين أنهوا تكوينهم العسكري في الولايات المتحدة الأمريكية .

ولم يستوعب بعض المراقبين ما جرى في تونس ، إذ أنّ الانقلاب الأبيض الذي أطاح بالحبيب بورقيبة تمّ بشكل سريع وكأنّه كان محضرًا له و قد فهم من هذا الانقلاب بأنّه انقلاب أمريكي على فرنسا في تونس ، ولطالما كان الحبيب بورقيبة خريج جامعة السوربون صديقا حميما لفرنسا .

وقد اتسمّت بداية عهد زين العابدين بن علي في عام ١٩٨٧ بالانفتاح على القوى السياسية والتأكيد على مبدأ الديمقراطية والتعددية السياسية ، وبدورها حركة الاتجاه الإسلامي وتماشيًا مع المعطيات السياسية الجديدة غيرّت عنوانها لتحمل عنوانا جديدا هو حركة النهضة ، لتؤكدّ أنّها لا تقوم على أساس ديني بل هي حزب كبقية الأحزاب التونسيّة . وفي المرحلة الأولى من حكم الرئيس زين العابدين بن علي شاركت حركة النهضة في الانتخابات البلديّة حيث فازت في بعض المناطق التونسيّة .

ويعتبر الرئيس زين العابدين بن علي من أكثر التونسيين معرفة بملّف التيارات الإسلامية في تونس حيث شغل منصب وزير الداخلية ، وتولى العديد من المناصب الأمنيّة قبل إطاحته بالرئيس الحبيب بورقيبة .

وغداة استيلائه على السلطة أختار أن يكون خطابه السياسي منفتحا على الجميع، الأمر الذي دعا زعيم حركة النهضة إلى الترحيب بالعهد الجديد في تونس بزعامة زين العابدين بن علي [١].

وعلى الرغم من أنّ راشد الغنوشي بارك حكم الرئيس زين العابدين بن علي واعتبر نظامه تجديديّا وضروريا لنهضة تونس وبناء الديمقراطية إلاّ أنّه جرى اعتقاله مجددا في عهد زين العابدين بن علي ، ورغم أنّ الغنوشي ولدى حلّه لحركة الاتّجاه

---

(١) يحيي أبو زكريا ، مرجع سابق .

الإسلامي وتأسيسه لحركة النهضة فضّل ألا يكون الإسلام عنوانا لاسم حركته الجديدة إلاّ أنّ الدوائر التونسية استمرّت تعتبره ذلك الرجعي الظلامي التوليتـاري الخطـر علـى الحداثة والتنوير والتغريب.

ورغم أن حركة النهضة التي تأسّست سنة ١٩٨٨ قامت بتكييف نفسها مع الواقع السياسي الجديد إلاّ أنّها لم تحصل على الترخيص أبدا ، وأستمرّ الـصدام بينهـا وبـين السلطة. وقد أصدرت حركة النهضة في هذه المرحلة جريدة الفجر وحاولت أن تدحض عن نفسها كل الشبهات والاتهامات إلاّ أنّ السلطة التونسية كانت تصرّ على أن حـزب النهضة غير شرعي ويعمل على قلب نظام الحكم.

ولم يتحمّل قياديون في حركة النهضة هذه المحنة فغادر حركة النهـضة عبـد الفتّاح مورو عقب خلاف كبير مع راشد الغنوشي، كما استقال مـن الحركـة كـوادر قياديون منهم الهاشمي الحامدي و استطاعت السلطة بوسائلها وإغراءاتهـا أن تـستميل عناصر قيادية من حركة النهضة إليها ، وفي أواخر الثمانينيات بدأت حركـة النهـضة تتعرض لهزات تنظيمية وسياسية وكان للسلطة يد طولي في ذلك ، وبدأت هذه الحركـة مـن جهتهـا تـستعدّ للاسـتقرار فـي المنفـي و تحـاول إعـادة بنـاء نفـسها.. عندما غادر راشد الغنوشي السجن بعفو من الرئيس التونسي زين العابدين بـن علـي، أشرف على إحداث تغيير جذري على حركة الاتّجاه الإسلامي وتمثّل هذا التغييـر فـي تحويل هذه الحركة إلى حزب النهضة ، وصدرت التعليمات إلـى مختلـف الولايـات والمحافظات بأنّ حزب النهضة الجديد هو حزب سياسي يملك إستراتيجية جديدة وتكتيكاً مختلفًا عما كانت عليه حركة الاتجاه الإسلامي ، وأصدرت حركة النهضة جريدة الفجر لتكون الناطق الإعلامي والسياسي باسم حركة النهضة.

وفي سنة ١٩٨٩م بعد سنة واحدة من إطلاق سراح راشد الغنوشـي عـصفت الخلافات الداخليّة بحركة النهضة و اضطرّ العديد من قيادييها إلى تقديم استقالتهم ، وقد نجحت السلطة التونسية في استقطاب العديد من القياديين في حركة النهضة تمامًا، كمـا

نجحت السلطة الجزائرية في استقطاب عناصر قيادية في الجبهة الإسلامية للإنقاذ والذين أصبح بعضهم وزراء مثل سعيد قشي و أحمد مراني حيث أصبح سعيد قشي وزيرًا للتشغيل وأحمد مراني وزيرًا للشؤون الدينية في وقت كان فيه عباس مدني وعلي بلحاج في سجن البليدة العسكري.

وبين ١٩٨٩ - ١٩٩٢م اندلعت في تونس أعمال عنف جرى إثرها اعتقال العديد من القياديين في حركة النهضة ومنهم حمّادي الجبالي رئيس تحرير جريدة الفجر الإسلامية وحكمت عليه المحكمة بالسجن لمدّة ١٥ سنة، وكان الجبالي - بالإضافة إلى تولّيه رئاسة تحرير جريدة الفجر - عضوًا في المكتب السياسي لحركة النهضة . أمّا راشد الغنوشي فقد حكمت عليه محكمة أمن الدولة بالسجن المؤبّد في ٢٨ -٠٨-١٩٩٢.

وبعد إطلاق سراحه بعفو رئاسي خاص غادر تونس وتوجّه إلى الجزائر حيث واكب تطورات الساحة السياسية في الجزائر منذ تأسيس الجبهة الإسلامية للإنقاذ في أيلول - سبتمبر ١٩٨٩م ، وكانت الحكومة التونسية تطالب برأسه وأوفدت لهذا الغرض مسئولين تونسيين رفيعي المستوى لاسترداده من الجزائر؛ بحجّة أنّ هناك حكما قضائيًا صدر بحقّه في تونس، ولم ينجح هؤلاء المسئولون في إقناع نظرائهم الجزائريين بضرورة استرداده.

وعندما تمّ اعتقال قادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ في ٣٠ حزيران - يونيو ١٩٩١ طلبت السلطات الجزائرية من راشد الغنوشي أن يغادر الجزائر فتوجّه إلى السودان ومنه إلى بريطانيا، حيث حصل على اللجوء السياسي وبات يقيم في العاصمة البريطانية لندن.

وفي منفاه الجديد حاول أن يعيد ترتيب البيت النهضوي فنجح إلى حدّ ما في الحفاظ على الإطار السياسي للحركة الإسلامية التونسية - النهضة - وأخذ يصدر البيانات تباعًا تعليقًا على مستجدات الأحداث والتطورات السياسية في تونس. واستمرّت جريدة الفجر التابعة لحركة النهضة في الصدور من العاصمة القبرصيّة نيقوسيا ثمّ توقفت لأسباب مادية فيما يبدو.

وفي بريطانيا عكف الغنوشي على إيصال صدى الحركة الإسلامية التونسية إلى مختلف المعنيين بهذا الشأن الإسلامي وشارك في العديد من المؤتمرات والندوات التي تعقد في بعض المناطق العربية والإسلامية . وبسبب انتقال حركة النهضة إلى المنفي فقد فقدت الكثير من فعّاليتها السياسية وبات عملها يقتصر على إصدار البيانات ، وحتى هذه البيانات الورقية راحت تقلق السلطات التونسية التي طالبت مرارًا و بشكل رسمي من السلطات البريطانية وضع حدّ لنشاطات الغنوشي ، وكان ردّ الحكومة البريطانيّة أنّ الغنوشي لم يخرق القوانين المعمول بها في بريطانيا[1] .

وبعد نقاشات عميقة ومطولة خلال اجتماع الهيئة التأسيسية لحركة النهضة الذي تواصل يومي السبت والأحد ٢٤ و ٢٥ آذار (مارس) ٢٠١٢ ، برئاسة زعيم الحركة الشيخ راشد الغنوشي ، ورئيس الهيئة التأسيسية فتحي العيادي ، أعلن الناطق الرسمي باسم الحركة نجيب الغربي ، أن هذه الأخيرة قررت " الاحتفاظ بالفصل الأول من دستور ١٩٥٩، باعتباره محل إجماع جميع فئات المجتمع التونسي " . وتنص المادة الأولي من الدستور التونسي ، أن " تونس دولة حرة مستقلة ، ذات سيادة ، والإسلام دينها ، والعربية لغتها ، والجمهورية نظامها " من دون أي إشارة إلي أن الإسلام هو مصدر أساسي للتشريع . وتحظي هذه المادة الأولي التي يعتبرها التونسيون ثمرة (الخيمياء البورقيبية) علي إجماع سياسي بين القوي العلمانية اليسارية والقوي الإسلامية طيلة الحقبة التاريخية لماضية ولا تزال موضوع إجماع ، كما دل علي ذلك الموقف التاريخي الذي اتخذته حركة النهضة الإسلامية بعدم ذكر الشريعة الإسلامية في الدستور الجديد الذي يصوغه المجلس التأسيسي . وأثار تراجع حركة النهضة الإسلامية عن التنصيص علي الشريعة الإسلامية كمصدر أساسي ووحيد للتشريع في الدستور الجديد ، الذي يعكف علي إعداده المجلس التأسيسي ردود أفعال متباينة لدي الفاعلين السياسيين والخبراء بين مرحب ومتوجس من مدي التزام الحركة بقرارها وبتعهداتها بصفة عامة .

---

(١) راجع التاريخ السري للحركة الإسلامية في تونس ، مرجع سابق .

فقد رحبت هيئات سياسية ذات اتجاهات مختلفة ، منها أحزاب المعارضة ، بموقف حركة النهضة ، باعتباره (سيحافظ علي الوفاق السياسي ويجنب التطرف الديني في البلاد). وفي هذا السياق ، قال رئيس كتلة حزب التكتل الديمقراطي من أجل العمل والحريات المولدي الرياحي ، إن هذا القرار (مهم ومفيد بالنسبة لتونس وللحياة السياسية في البلاد) . وأضاف المسئول السياسي التونسي الذي يشارك حزبه في الائتلاف الحاكم، إن الأحزاب السياسية (يجب ألا تكون تحت تأثير تيارات متشددة (...) بل أن تحصن المجتمع وتبحث عما يقيه ويعد للمرحلة المقبلة ... واعتبرت الأمينة العامة للحزب الديمقراطي التقدمي المعارض ، والعضو في المجلس التأسيسي مية الجريبي ، أن موقف حزب النهضة (يعبر عن الإرادة في التوافق ، الذي تسعي إليه كل الأحزاب السياسية التونسية حول الدستور) .

وفي السياق عينه ، اعتبر المحلل السياسي صلاح الدين الجورشي الذي ينتمي إلي تيار (الإسلاميين التقدميين) المنشق عن حركة النهضة في أوائل الثمانينات من القرن الماضي ، تراجع حركة النهضة الإسلامية بأنه (يكتسي أهمية قصوى في هذه المرحلة ويمكن وصفه بالمنعرج في المسار السياسي العام بالبلاد لأنه جنب التونسيين تعميق حالة انقسام حاد) ويري الجورشي أن الكفة مالت في النهاية لمصلحة الوعي بطبيعة المرحلة وترجيح منطق المصالح علي خطاب الآيديولوجيا .

وفي المقابل وصف الدكتور محمد الهاشمي الحامدي رئيس تيار (العريضة الشعبية للعدالة والحرية والتنمية) وهو ذو اتجاه إسلامي معارض داخل المجلس التأسيسي ، موقف حركة النهضة من موقع الإسلام والشريعة في الدستور الجديد بأنه خيانة للتونسيين الذين صوتوا لها ولمبادئ الحركة الإسلامية المعاصرة في تونس [١].

---

(١) توفيق المديني ، الحياة أونت .

ما نذهب إليه في الغنوشي

لن أطيل الحديث هنا كثيراً في الغنوشي لأنني سأقدم لاحقاً مناقشة مطولة لأفكاره من خلال مناقشة أرائه في حزب العدالة والتنمية التركي ولكن خلاصة رأيي في الرجل أنه يمثل حالة الاستضعاف والاستعطاف الدائم من أجل الوصول إلي السلطة (ليس بالمعني الشخصي ولكن بالمعني العام أي وصول الحركة – وصول الجماعة – وصول الحزب – وصول التيار – وصول ما لا أعرف لأنه مع تفريغ الإسلام من محتواه وبلوغ هذا المعني السريالزمي الذي يصنعه الغنوشي لا تدري ما هو ذلك الذي يصل) وهو في هذا السبيل يفرغ الإسلام من محتواه التشريعي باستثناء القليل من الأحكام التي يحيلها إلي كم مادي يأخذ منه بقدر المستطاع .

فهو قد تنازل منذ اللحظة الأولي وقبل أي حديث عن أحكام الأحوال الشخصية في الإسلام بعد الثورة وكان قد صرح في الثمانينات أن أحكام الأسرة العلمانية في تونس التي تمنع الطلاق والتعدد تتفق مع الإسلام . فإذا كان الرجل يتنازل بكل هذه البساطة عن الحد الأدنى من الإسلام الذي تحتفظ الكثير من الدول العلمانية الغربية به فأي شريعة تلك التي سيحافظ عليها ؟ من الطبيعي طبعاً أن يفرط فيها في سبيل الإسلامية السريالية للدولة .

يقول محمد جمال باروت عن الغنوشي : " هذا الرائد الإسلامي في الرؤية ما بعد الإخوانية خلال تلك الفترة . صاغ الخطاب الإسلامي معلناً دخوله في مرحلة ما بعد الإخوانية المشرقية عموماً والمصرية خصوصاً. وفي المغرب الأقصى كان قسم قد بلور المقاصدية وأخذ منهم حزب العدالة والتنمية في تركيا في مرحلة ما بعد أربكان . الاسم والرمز . لقد تم تجاوز المفهوم الإخواني التقليد لنظرية " تطبيق الشريعة " وكان هذا الاتجاه تبرعم لدى إخوان الهضيبي في مصر فقطعته سجون عبد الناصر "(١) .

---

(١) في درس النهضة الكثير مما نتعلم منه ، الحياة أون نت .

إن كاتب مثل محمد جمال باروت هذا وأمثاله كخالد حروب وصلاح جورشـــي يمثلون المرآة الحقيقية للمضمون العملي لما يصنعه أمثال الغنوشي وأردوغان حيث يتم تجفيف المقدس من ثوابته وقواعده وأحكامه وإحالته إلي قواعد مأنسنة سواء في صورة أهداف أو مقاصد مصلحية أو مبادئ فلسفية عامة .

(هذا ما يتم التفاوض عليه الآن في مصر ودول الربيع العربي والخلاف بين الطرفين العلماني والإخواني هو أن الأولين يقولون أنه دائم والأخيرين يقولون أنه مرحلي) .

فهكذا كما يري باروت فإن الغنوشي رائد مرحلة ما بعد الإخوانية التـــي كانــت تطالب بتطبيق الشريعة ، ويغدو بذلك تطبيق الشريعة ذاته ليس إلزاماً دينياً مقدساً وإنما مرحلة في تطور موضوعي تاريخي.

إن الدور الذي يقوم به هؤلاء هو بمثابة صمام الأمان لمنع التصادم بين الشعوب التي تمثل الإسلام والقوى الغربية أو عملائها في الداخل التي تمثل العلمانيــة بادعــاء تطبيق هذا النموذج من الإسلام الليبرالي كحل وسط بين هذا الزعم زعمــاً مــستحيلاً للتناقض التام بينهما وعدم قابلية الإسلام للتجزئة فإن الذي يطبق في الواقع هو العلمانية الكاملة ولا يطبق من الإسلام شيئاً سوي بعض الرتوش المدعاة حتى لو مــضت هــذه النماذج تقود البلاد علي هذه الوتيرة لعشرات السنين .

وكذلك إفقاد مشروعية التيارات الإسلامية الحقيقية أو التشكيك فيها علي أســاس أن ها هو النموذج الإسلامي قائم بالفعل فمن ثم الإيقاع بهذه التيارات في فــخ الاتهــام بالتطرف .

وإذا كنا ندين مثل هذه النماذج في بلادها علي أنها نماذج زائفة للإسلام تعطــل مسيرة العمل الإسلامي الحقيقي علي الرغم من الظروف القاسية التي تتعرض لها فــإن رفضها في بلادنا وبلاد الربيع العربي الأخرى يكون أكبر من ذلك كثيراً لعدم تعــرض هذه البلاد لمثل هذه الظروف .

والآن يمكن أن نناقش طريقة تفكير الغنوشي في الصفحات التالية التي تتحـدث عن رؤيته للنموذج التركي والذي تبناه بعد ذلك في نموذجه التونسي .

الدكتور راشد الغنوشي يقرأ في تجربة

حزب "العدالة والتنمية" التركي

الدكتور راشد الغنوشي هو المرشد العام للإخوان المسلمين بتونس وما نذكره هو تقييمه لتجربة حزب العدالة والتنمية التركي.

تركيا بلد القطائع والمتناقضات الشديدة فقد حولها انقلاب النخبة المتغربة (نخبة جماعة الدونمة أي اليهود المتأسلمون بعد طردهم من الأندلس، والتجائهم إلى حاضرة الخلافة) بقيادة مصطفي كمال أتاتورك، من عاصمة الأمة الإسلامية المترامية الأطراف، عبر القارات الثلاث، إلى دولة قومية شوفينية، في تعصبها للعنصر التركي، وعلمانية متطرفة حاربت الإسلام بكل ما ملكت من وسائل، وراهنت على استبدال الهوية الإسلامية العثمانية بهوية قومية علمانية أوروبية، عبر حملة شاملة على كل مؤسسات الإسلام التعليمية والوقفية والشعائرية بل التشريعية والدولية.

لقد غيّرت الدولة قبلتها بالكامل، ولم تدخر جهداً في حمل الشعب على ذلك، رغم أن تجربة ثلاثة أرباع قرن أثبتت أن تغيير هويّات الشعوب أمر بالغ العسر وبسبب ما أبداه الشعب من مقاومة متعددة الأشكال، كان من بينها صعود حزب من داخل النخبة العلمانية العسكرية في الخمسينات، بقيادة عدنان مندريس، فتح ثغرة محدودة في جدار العلمانية المتطرفة في عدائها للإسلام، التي أرساها مؤسس الجمهورية.

وتتمثل هذه الثغرة البسيطة في الاتجاه إلى الاعتراف بالهوية الإسلامية لتركيا، عبر السماح بأداء الأذان بالعربية، ما جعل الناس يخرون سجداً ويبكون فرحاً، وكذا الإذن بفتح معاهد لتخريج الأئمة والخطباء.

ورغم أن هذه السياسة لم تستمر أطول من الفترة بين ١٩٥٠ و١٩٦٠، إذ تم التصدي لها بكل عنف، من قبل حراس المعبد العلماني، الذين انقلبوا على الديمقراطية،

بعد أن كانوا قد بدأوا بالانقلاب على الإسلام، فعلّقوا رئيس الوزراء المنتخب عدنان مندريس، ورئيس الجمهورية جلال بايار على المشنقة...

وبعد أن أعادوا ترتيب الأوضاع، وبضغط من الشركاء الأوروبيين، من أجل التحقق بقدر من الانسجام مع الوجه الأوروبي، الذي تحرص عليه النخبة، أو المفروض عليها، تمت العودة إلى الديمقراطية، غير أنها أفرزت مرة أخرى حزباً علمانياً معتدلاً بزعامة شخصية معتدلة قريبة من الجماعات الصوفية هو سليمان ديميريل، الذي استأنف على نحو ما سياسة مندريس من جهة السماح بالممارسة الدينية، وهو نفسه كان معروفاً بأداء الصلاة.

وفي عهده استأنفت الحركة الإسلامية بزعامة البروفسور نجم الدين أربكان عملها، ضمن حزب جديد هو حزب السلامة الوطني، بعد أن حل سابقه، بل إنه ضمن صراعات اليمين واليسار وتشتت الأحزاب، أمكن لأربكان أن يتحالف مع مختلف الأحزاب العلمانية لتشكيل الحكومة مرة مع اليسار بزعامة أجاويد، رئيساً للوزراء، ومرتين مع حزب العدالة بزعامة ديميريل.

وتعاظم وضع حزب «الرفاه» على رأس الأحزاب التركية بنسبة فاقت ٢٢% من أصوات الناخبين، فأمكن لما يسمى الإسلام السياسي أو الحركة الإسلامية تشكيل الحكومة لأول مرة في تاريخ الدولة التركية الحديثة، متحالفاً مرة أخرى مع حزب علماني محافظ، تتزعمه سيدة هي تانسو تشيلر، وذلك سنة ١٩٩٦.

غير أن حراس المعبد العلماني قد استنفروا مصممين على الإطاحة بأربكان وحزبه، رغم كل التنازلات، التي قدمها للتواؤم مع شعائر المعبد، من مثل الوقوف على قبر أتاتورك، وأداء التحية له، واستقبال مسؤولين إسرائيليين، والمحافظة على الارتباطات الأطلسية والأوروبية. ولكنهم نقموا عليه جسوراً قوية مدها مع الجوار العربي والعالم الإسلامي عامة، بمبادرته بزيارة عدد من الأقطار العربية والإسلامية (ليبيا ومصر وإيران)، وعمل على تأسيس نادي الثمانية للدول الإسلامية الكبرى، مقابل

نادي السبعة للدول الرأسمالية الكبرى G7. واستضاف في رمضان رموز الصوفية والأئمة الكبار.

ورغم أن أداءه الاقتصادي كان عظيماً في النزول بالتضخم والبطالة والتداين الخارجي إلى أدنى نسبة، بالقياس إلى الحكومات السابقة. ورغم الأداء المتميز غير المسبوق للبلديات، التي تديرها جماعة الرفاه، إلا أن ذلك وبقدر ما رفع مكانة الإسلاميين لدى الشعب، بقدر ما رفع مستوى نقمة الباب العالي (الهيأة العليا لرجال الأعمال والصحافة وقادة العسكر)، فصعّدوا الضغط عليه حتى حملوه على الاستقالة، وحركوا أداة أخرى من أدوات سيطرتهم (المحكمة العليا) فحلت حزباً في أوج عطائه، بنفس الاتهام الثقافي المعتاد: النيل من هوية الدولة العلمانية. وشنت على التيار الإسلامي ما يشبه حرب إبادة.

واستمرت هذه المرحلة العصيبة، التي عرفت بمرحلة ١٨ فبراير، ولم تنته إلا بانهيار طبقة سياسية يمينها ويسارها، وجملة أحزابها تقريباً، ليعود التيار الإسلامي بعد خمس سنوات في ثوب جديد بزعامة شابة، تربت في أحضان المعاهد الدينية، ثم في الحركة الإسلامية خلال عقدين، وشملتها موجة الاضطهاد... إنه الطيب رجب أردوغان، الذي أطيح به من رئاسة بلدية من أكبر البلديات في العالم، تجلت فيها عبقريته، إذ توفق إلى حل مشكلات حياتية فشل فيها كل من سبقه، فأحاطه الناس بحب عظيم. ولم يشفع له ذلك من العزل والزج به في السجن.

لقد أفضى حكم العسكر إلى إقصاء زعيم الحزب أربكان من السياسة، ما اضطره أن يمارسها من وراء ستار، من خلال حزب جديد هو حزب الفضيلة، دفع إلى قيادته أحد رفاقه هو المحامي رجائي قوطان، وحافظ الحزب على مكانه على رأس الأحزاب، لكن في المعارضة. ولم يرض ذلك الباب العالي، فصدر قرار بحله، فتشكل حزب السعادة بديلاً له. وفي مؤتمره تحدى تيار الشباب بزعامة عبد اللّه غول وأردوجان قيادة الحزب المتمتعة بثقة أربكان. وكاد غول أن يفوز بالقيادة، ليضع موضع

التنفيذ البرنامج الإصلاحي الذي يطالب به هو وأردوغان، فلما لم يحصل ذلك انطلق هذا التيار إلى تشكيل حزب جديد انحاز إليه ٥١% من نواب الحزب في البرلمان.

وكانت الفكرة الأساسية ل«العدالة والتنمية»، الحزب الجديد من أحزاب الحركة الإسلامية، تحمل جملة من التعديلات على السياسات المعهودة في هذا التيار، اعتباراً بما حدث في السنوات الست العصيبة الماضية، حيث تعرضت الحركة الإسلامية لمخطط إقصاء واستئصال وكسر عظم، على يد صاحب السلطة العليا الجيش.

والدرس: تجنب كل ما يفضي إلى تجدد الصدام مع صاحب السلطة، بل العمل على كسب ثقته، وكذا تجنب الصدام مع العسكر ومعبدهم العلماني، وهو ما لا يمكن تحقيقه مع استمرار زعامة أربكان، الطرف المباشر في ذلك الصدام. وكذا إعطاء الأولوية للعلاقة مع أوروبا وللاقتصاد، والابتعاد عن إثارة المعارك حول بعض القضايا الحساسة، مثل الحجاب، باعتباره من أسخن ساحات الصراع بين التيار الإسلامي والتيار العلماني، الذي لم يتردد في طرد نائبة من البرلمان، وشطبها، رغم أنها منتخبة... فقط بسبب إصرارها على غطاء الرأس، وهو ممنوع بنص دستوري، مع أن الزائر لتركيا يفاجأ بالحجم الواسع لانتشار الحجاب، بما يتراوح في مدينة مثل إسطنبول بين ٧٠ إلى ٨٠%.

ما حقيقة مشروع العدالة والتنمية؟

هل هو استمرار وتواصل مع نفس المشروع الذي بدأه مندريس واستأنفه ديميريل ثم تورغت أزال، ووصل إلى أوجه مع أربكان؟... مشروع مصالحة تركيا الحديثة مع تاريخها وهويتها، من خلال الحد من التطرف العلماني للدولة في عدائها للدين، في مسعى لاستبدال علمانية متطرفة بأخرى معتدلة، هي أقرب إلى النوع الأوروبي، الذي يغلب عليه الحياد، إزاء المسألة الدينية، وذلك بالإفادة من التجارب السابقة، باعتماد مرونة أكبر في خدمة نفس المشروع، بما يحفظ جوهره، ويتخلى ولو

ظرفياً عن بعض مظاهره، من أجل فتح أبواب التطور في وجهه بعيداً عن أسباب التصادم مع «الباب العالي»؟

أم أن مشروع «العدالة والتنمية» هو تنازل عن مشروع الحركة الإسلامية بل خيانة له. وفي أفضل الأحوال الرهان على ما سماه البعض بالعلمانية الإسلامية، أو هو ما اعتبره أنصار مؤسس المشروع البروفسور نجم الدين أربكان إيثاراً لملاذ السلطة، والعيش تحت الأضواء، وإرضاء العسكر ومؤسسة المال والإعلام والأمريكان؟ أم هو تنازل عن جوهر المشروع الإسلامي، واستسلام للعلمانية، وانتصار ساحق لها، كما روج لذلك بعض عتاة العلمانية في بلادنا، مبدين فرحة صفراء بانتصار العدالة والتنمية؟

الثابت أن حزب «العدالة والتنمية» بزعامة النجم الصاعد الشاب رجب أردوغان، رئيس بلدية إسطنبول، وهو إلى جانب غول أبرز الشباب، الذين أعدهم أربكان لخلافته، قد نجح إلى جانب احتفاظه بشعبية واسعة داخل التيار الإسلامي في استقطاب قطاع واسع من اليمين العلماني المحافظ، الذي تخلى عن أحزابه التقليدية، وتركها تنهار بسبب فسادها وعجزها عن تقديم حلول لمشاكل البلاد الكبرى، كما استقطب فئات أقل من ذلك من اليسار، الذي تراجع بنسبة الثلث لنفس الأسباب. واستقطب كذلك حوالى ثلث الناخبين الأكراد، فضلاً عن استقطابه للقاعدة الإسلامية (حوالى ٢٣%)، عدا نسبة ضئيلة (٢%) ذهبت إلى السعادة. وكل هذه الفئات الواسعة رأت في العدالة والتنمية وزعامته الشابة منقذاً للبلاد من كارثة الفساد الاقتصادي، أو من الحرب الأهلية في كردستان، أو من التصادم مع العسكر. وكلها رأى فيه، رغم التباين الثقافي، الأمل في إنقاذ تركيا من الفساد الاقتصادي، بما عرف عن زعمائه من فعالية ونظافة خلال ممارستهم لإدارة البلديات.

ولكن رغم تعدد واختلاف الأوعية التي غرف منها العدالة والتنمية، تبقى الرافعة الكبرى التي رفعته إلى السلطة، في انتصار ساحق، على أحزاب وزعامات عريقة، (أحالها دفعة واحدة على المعاش، كما تفعل رياح الخريف مع الأوراق اليابسة، إيذاناً

بتجدد شباب السياسة)، هي قاعدة إسلامية، قد وعت بيقين أن التمادي بنفس السياسات والوجوه بزعامة مباشرة أو غير مباشرة لمؤسس الحركة الإسلامية، ليس من شأنه غير استمرار اشتباك غير قابل للتسوية، قد غدا معوقاً لتحقيق المشروع الإسلامي حتى في مطالبه الأولوية من شعائر وحجاب ومدارس دينية، فلا مناص من تغيير في الخطاب والوجوه والتكتيكات... فكان العدالة والتنمية، وذلك أن:

أ- القاعدة الإسلامية التي رفعت أربكان إلى سدة الوزارة الأولى، تجاوزت نسبتها ٢٢% من أصوات الناخبين، ولم يذهب منها إلى حزب السعادة غير ٢%، فأين ذهب البقية إذا لم يكونوا هم غالبية من صوت للعدالة؟

ب- إن أداء الإسلاميين في الحكم لم يكن سلبياً، وكانت في إدارة المدن التركية الكبرى مثل إسطنبول وأنقرة وأرض روم ممتازة، وهو الأداء الذي جعل من أردوغان نجماً ساطعاً في سماء إسطنبول، لا بشعارات إسلامية هي أصلاً محظورة الاستعمال في تركيا بل ببرامجه وإنجازاته، التي جعلت الماء والكهرباء ووسائل النقل والخبز تصل إلى كل بيت، والطرقات معبدة ونظيفة، وعشرات الآلاف من الطلبة يتمتعون بالمنح، وخزائن البلدية بها فائض.

جـ- إن كل المؤشرات في العالم الإسلامي، وحيثما وجد مسلمون، تشهد على ارتفاع مذهل لنسب التدين، حتى تلك التي طبقت فيها بشراسة ووحشية وتواطؤ دولي ومحلي خطط الاستئصال وتجفيف الينابيع مثل تونس، بسبب ما تعرض له التدين والمتدينون من قهر على يد حكومات قمعية فاسدة، من مثل تسلط الدولة في تونس وتركيا، على المؤسسات الدينية، وغلى ضمير المؤمنات بتجريم حقهن في التعبير عن تدينهن، بحمل رداء التقى، ما تسبب في طرد الآلاف، وكبت الملايين وقهرهن وذويهن، وكذا حرمان أصحاب المشروع الإسلامي من حقهم الطبيعي والشرعي في المشاركة في الشؤون العامة، ومنها العمل السياسي، وكبت كل تعبير ديني. وباعتبار أن الدين هو أعمق ما في الضمير الفردي والجمعي لأمتنا، فإن كل مدافع عنه محبوب، وكل عدو له

مبغوض، لا سيما والكبت والقمع لكل حر هو شريعة الأنظمة القائمة، مما جعل الهوة تتسع بينها وبين الشعوب.

د- إن حملة رسالة الإسلام اليوم هم في الصف الأول من جبهة الذود عن الأمة وعن دينها في مواجهة الحملات المتصاعدة عليها، والتي لم يتردد الأمريكان في تعليق لافتة الصليب عليها، هذه الهجمة الدولية على الإسلام وأمته من جهة، ولا سيما في فلسطين، والعراق، وما ينهض به الإسلام من أدوار تعبئة وتجنيد للرأي العام، وما قدمته وتقدمه الحركة الإسلامية من نماذج رائعة في الفداء، ونقل الرعب إلى صفوف الأعداء، وتعديل موازين القوى... كل ذلك أسهم في تأجيج المشاعر الدينية في الأمة، بما ضاعف من شعبية الإسلاميين، على حساب الجماعات العلمانية.

فليس إذن في ما حققه هؤلاء من فوز ساحق أي أمر مستغرب، باعتبار ما غدوا رمزاً له من تديّن، ونظافة يد، وقرب من الناس، وتفان في خدمتهم، ودفاع عن الهوية الإسلامية للبلد... إنهم التواصل لمشروع التصالح بين تركيا وهويتها الإسلامية... بين حاضرها وماضيها... بين إسلامها وحركتها الإسلامية من جهة، وبين عصرها وقوميتها وعلمانيتها من جهة أخرى. إنّهم طموح لمواجهة التحديات الكبرى، التي تواجهها تركيا والعالم الإسلامي، واستجابة تتشكل من مزيج مركب بين الإسلام والحداثة... بين الإسلام والديمقراطية.

ما هو الإستراتيجي وما هو الظرفي في هذه الاستجابة؟

إن الحركة الإسلامية التركية التي أسسها البروفسور نجم الدين أربكان، في صيغها المختلفة، التي برزت بها إلى الساحة، وآخرها حزبا «السعادة» بقيادة طوقان، و«العدالة والتنمية» بزعامة رجب الطيب أردوغان، قد غلبت عليها الروح العملية، فلم يعرف لها جهد في مجال الإنتاج الفكري: مؤسس الحركة مهندس يحسن لغة الأرقام والتخطيط، فطبع التيار بطابعه، وللمهندسين دور قيادي بارز في الحركة الإسلامية المعاصرة بديلاً عن المشايخ. أما غذاؤهم الفكري فمستمد في أصله من فكر الإخوان

المسلمين والجماعة الإسلامية في الباكستان وحركة النهضة التونسية، عبر الترجمات السريعة، التي برعوا فيها لكل ما يصدر في ساحة الفكر الإسلامي، مضافاً إليه ثلث قرن من العمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي في مناخ علني مفتوح، وهو ما يميز الإسلاميين الأتراك والماليزيين عن أمثالهم من العرب.

إن غلبة الروح العملية على المجادلات النظرية الأيديولوجية جعل حركة التطور لديهم يسيرة، مكتفين في المجال الأيديولوجي بالمتابعة الدقيقة لكلّ ما يصدر في العالم الإسلامي، عبر الترجمة السريعة، عن مفكري الحركة الإسلامية، ولا سيما الجيل الجديد، مما دفع إلى تركيز جهدهم على تأصيل فكر الحداثة في الساحة الإسلامية من قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان والمجتمع المدني، مع صبغة صوفية هي من تراث البلد. وهذه حقيقة يعرفها كل من له صلة بحثية جادة، أو معاشرة مباشرة للحركة الإسلامية في تركيا، الأمر الذي يفرض تنزيل ما رفعه زعماء حزب العدالة والتنمية من شعارات في حملاتهم الانتخابية، التي قادتهم إلى فوز ساحق من مثل التصريح بأن «العدالة والتنمية» ليس حزباً دينياً، أو أنه ليس حركة إسلامية، أو محاولته التأكيد على التوافق بين الإسلام والعلمانية، ينبغي الاقتصاد في إلباسها كساء أيديولوجياً فضفاضاً يتجاوز مسلمات الفكر الإسلامي المعروفة في الساحة الإسلامية، والتي نشأ عليها مؤسسو حزب العدالة.

إن استصحاب تلك المسلمات هو الموقف العملي الرصين، بعيداً عن الجري وراء الأماني، من مثل التصفيق المشبوه من طرف بعض غلاة العلمانية المتذاكين لفوز التنمية والعدالة، باعتباره بحسبانهم نصراً للعلمانية، وهزيمة للإسلام السياسي!! أو تجاوز الرصانة العملية من طرف بعض الأقلام، التي عرفت عادة بالرصانة في التحليل والاستنتاج، إذ ذهبت إلى وصف أيديولوجية العدالة والتنمية بالعلمانية المؤمنة، وذلك دون استناد إلى أي نص قد صدر قديماً أو حديثاً عن خريج معاهد الأئمة والخطباء حامل كتاب اللّه رجب الطيب أردوغان، زعيم الحزب، الذي كان لتوه قد خرج من السجن بتهمة النيل من العلمانية، لمّا أورد في خطبة له أبياتاً لجلال الدين الرومي، يؤكد فيها أن المصاحف أسلحتنا، والمساجد ثكناتنا، والمآذن مدافعنا.

وللتنبيه فإن تأكيد مرجعية الوحي العليا ضمن آليات الاجتهاد المعروفة لم يمنع المسلمين من الاختلاف والتنوع وحتى التناقض والتصادم، وذلك في غياب مؤسسة تحتكر التفسير والنطق باسم السماء، والتفتيش في ضمائر الناس، بما يعيد الأمر نهاية إلى الناس، حكماً في ترجيح «اجتهاد» على آخر، دليلاً للعمل، ويستمر باب الاختلاف والحوار مفتوحاً يجد التشجيع على ولوجه، أصاب المجتهد أم أخطأ فهو مأجور.

علمانية جزئية وأخرى شاملة

إن العلمانية كما ذكر أحد أبرز المتخصصين فيها، المتتبعين لمسار تطورها، الدكتور عبد الوهاب المسيري في آخر دراسة مستفيضة له (العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة) (جزان ط١ دار الشروق ٢٠٠٢) «مصطلح خلافي جداً شأنه شأن مصطلحات أخرى، مثل التحديث والتنوير والعولمة، شاع استخدامها، وانقسام الناس بشأنها بين مؤيد ومعارض، بل لعل العلمانية أكثر المصطلحات إثارة للفرقة، إذ يتم الشجار حوله بحدة تعطي انطباعاً بأنه مصطلح محدد المعاني والأبعاد.

ولأن العلمانية معنى ملتبس فإنه لم يثبت صدور نصوص تثبت تراجع جماعة العدالة والتنمية عن الخط الفكري العام للحركة الإسلامية في اعتقادها في شمول الإسلام لكل ما هو تصور وقيمة وسلوك فردي أو جماعي مما هو متناقض حتى مع أكثر معاني العلمانية شيوعاً الذي هو تحرير السياسة أي المجال العام لنفوذ الدين.

مختصر كلام الغنوشى

والآن سأحاول أن ألخص ما ذكره الرجل من تقييمه لحزب العدالة و التنمية التركي في التالي :

- أن تجربة القائمين عليه هي مواصلة لتجربة نجم الدين أربكان
- أن أربكان برغم تنازلاته لحراس المعبد العلماني فقد أطاحوا به.
- أن الدرس الذي أخذه هؤلاء في اعتبارهم هو تجنب كل ما يفضى إلى تجدد الصدام مع المعسكر الحاكم ومعبده العلماني.
- ألا غرابة في وصول هؤلاء إلى السلطة فقد استندوا إلى القاعدة الإسلامية الجماهيرية .
- أنهم نجحوا في الوصول إلي السلطة بسبب غلبة الروح العملية وليس جريا وراء الأماني الأيديولوجية .
- أن ما فعلوه اجتهاد مأجور .
- أن هناك علمانية شاملة و علمانية جزئية يمكن التوائم معها و أن ما حدث في تركيا هو مصالحة بين المعتدلين من التيارين الإسلامي و العلماني.

نقد الغنوشي

- وبالنسبة للنقطة الأولى فإن الذي يرد عليها هو أربكان نفسه فقد ظهر في برنامج " بلا حدود " بقناة الجزيرة واتهم قادة العدالة والتنمية بعد فوزهم بالانتخابات بأنهم حلفاء للغرب وأن عملاءه في الداخل هم الذين ساعدوهم في الحصول على السلطة في مقابل التنازل عن الإسلام .

- ولا أدري " بل أدري " هل المقولة الثانية هي لصالح الغنوشي أم ضده ؟ فهل كون أربكان قدم تنازلاته لحراس المعبد العلماني يعني أن علينا أن نقدم تنازلات أكثر أم أن نوقف هذه التنازلات.

- وأغرب ما في الأمر أن الغنوشي نفسه يستخدم هذا التعبير " قدم تنازلاته لحراس المعبد العلماني " وهو تعبير صحيح مائة في المائة ليس على مستوى المجاز كما يوحي كلامه وإنما على مستوى الحقيقة والواقع، ولنذكر ما جاء على لسانه : " إن حراس المعبد العلماني قد استنفروا مصممين على الإطاحة بأربكان وحزبه رغم كل التنازلات التي قدمها للتواؤم مع شعائر المعبد من مثل الوقوف على قبر أتاتورك وأداء التحية له واستقبال مسئولين إسرائيليين " .

ترى ألم يقرأ الدكتور الغنوشي المفكر الإسلامي ومرشد الإخوان في تونس .
الحديث النبوي الشهير عن الذباب الذي يدخل الجنة أو النار وذلك في حديث طارق ابن شهاب:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب، قالوا: وكيف يا رسول الله؟ قال: مر رجلان على قوم لهم صنم. لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئًا، فقالوا لأحدهما، قرب. قال، ليس عندي شيء أقرب. قالوا: قرب ولو ذبابًا، فقرب ذبابا، فخلوا سبيله، فدخل النار وقالوا للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة " رواه أحمد.

فإذا كان الأمر هكذا في ذباب فما بالكم في الذي يقدم التنازل عن المرجعية الإسلامية كلها!!!

وهل المسألة إذن هي في بلوغ السلطة أياً كان موضوع التنازلات وما قيمة بلوغ السلطة إذا كان المقابل لذلك هو التنازل عن المرجعية الإسلامية وما الفرق عندئذ بين الإسلاميين وغيرهم ولماذا يحتفظون عند ذلك بصفة الإسلامية ويحظرونها على غيرهم.

فهل المسألة هي بلوغ أشخاص الإسلام إلى السلطة أم بلوغ القواعد الإسلامية ذاتها إلى السلطة ؟.

وأي نجاح هذا للحركة الإسلامية إذا وصل أشخاصها إلى الحكم في مقابل تنازلهم عن الإسلام ذاته ؟!.

وتحديداً من يكونون هؤلاء الأشخاص إذن وما هو الفرق بينهم وبين غيرهم هل يظلون مع ذلك إسلاميين لمجرد أنهم ينتمون تاريخياً للحركة الإسلامية ؟!

إن الفارق الوحيد بين كون الشخص إسلاميا أو غير إسلامي يتمثل في اعتقاده في المرجعية الإسلامية . . أي اعتقاده في أن حكم الله ورسوله هو المرجع له في كل أمر من الأمور . أما إذا تنازل هو عن ذلك لأي سبب من الأسباب فهو لا يحق له أن يحتفظ بصفة الإسلامية على الإطلاق وكونه يظل محتفظاً بهذه الصفة برغم تنازله عن هذه المرجعية لمجرد انتمائه التاريخيّ للحركة الإسلامية فإن ذلك يمثل صناعة جديدة لصهيونية مستحدثة على الإسلام ما أنزل الله بها سلطان .

فلينجح هؤلاء في بلوغ السلطة كيفما يشاءون غاية ما في الأمر أنه لا ينبغي عند ذلك وصفهم بالإسلامية .

هل هؤلاء نجحوا في بلوغ السلطة استناداً على القاعدة الإسلامية كما يقول الغنوشي ؟ .

إن هذا القول إما قول كاذب كما يقول أربكان وكان يتهمهم بأنهم نجحوا بمساعدة عملاء أمريكا في الداخل وإما قول صادق وهنا تكون المصيبة الكبرى لأن ذلك يكذب الدعوى الشائعة التي يرددها دعاة الليبرالية الإسلامية والتي تقول أنه ينبغي قبول التعددية مع الأحزاب العلمانية فإذا نجحت عن طريق خداع الجماهير فإن ذلك يعود إلى قصور في عمل الإسلاميين.

فعن أي جمهور يتحدثون ؟!

جمهور تم تغييبه وإقصائه عن الإسلام لعقود طويلة حتى لم يعد يعلم شيئاً عنه سوى شعارات ؟! .

إن الناس في الواقع تمضي وراء كل من يرفع شعار الإسلام ولا تفهم دون ذلك شيئاً ومن ثم يمكن خداعها بمن يملك قدرات أكبر من المكر والخداع والتضليل وإمكانات أكبر في إشاعة ذلك متمثلة في السلطة والمال والإعلام وهي أمور كلها متوفرة لدى الأمريكان وبكثرة ومن ثم فإننا لو سلمنا بهذه الدعوى التي يستند إليها دعاة الليبرالية الإسلامية فإننا نكون بذلك قد ضمنا أن نكون ألعوبة بيد الأمريكان يحركوننا كما يشاءون (وعن طريق الانتخابات لا أكثر) فيكفي أن يرفعوا شعار الإسلام سواء أوقفوا خلفه علمانيين أقحاح أو إسلاميين ليبراليين لم يتبق لهم من صفة الإسلام إلا النسب التاريخي. أما المضمون الإسلامي الذي تم التخلي عنه تماماً فهذا غير مهم للبلهاء أمثالنا بل الأخطر من ذلك هو أن الإعلام العلماني البشع في قذراته وأصف ليله استطاع أن يخسر من يرفعون الشعار الإسلامي من أهل المنهج ذاته ما لا يتصوره عقل حتى صار شكي لي بعض الملتحين شعورهم بالغربة والاضطهاد بين الناس وذ في مصر بعد الثورة.

يقول الغنوشي إنهم نجحوا بسبب غلبة الروح العملية وليس جرياً وراء الأماني الأيديولوجية . يا سلام .

وهل مشكلة الحركة الإسلامية هي تقديم كفاءات أكثر في تحقيق المصالح الدنيوية ؟!.

طبعاً هذا أمر إيجابي ولكنه يظل مجرد تفصيل عملي داخل المنظور الشامل وهو تحقيق المرجعية الإسلامية ومن دون هذا المنظور يغدو هؤلاء مجرد إداريين أكفاء يتنافسون مع الإداريين القائمين في الحكم. وإذا كان الأمر هكذا فليطرحوا أنفسهم كما هم. غاية ما في الأمر ألا يحتفظوا بصفة الإسلامية عند ذلك ويحظرونها على غيرهم .

أما مسألة كون تطبيق مقتضيات المرجعية الإسلامية من نظام سياسي إسلامي وقواعد تشريعية وأحكام قطعية قد غدا مجرد أماني أيديولوجيا.

فإن كل ما سبق هو ناتج عن الفكرة الأصلية التي ترسخت في ذهن أمثال الغنوشي وهي أن نجاح الإسلام لا يتمثل إلا في أمر واحد وهو بلوغ سلطة الحكم وهذا أمر يحدو بنا إلى التطرق إلى موضوع أرى تأخير شرحه إلى موضع آخر من الكتاب ولكني ألخصه هنا فأقول : إن السؤال الأساسي فيما يتعلق بالدعوة الإسلامية كلها هو : لماذا جاء محمد صلى الله عليه وسلم وما هو الهدف من الدعوة التي قام بها ؟.

لقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم لنشر دعوة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) والذي يعنيه القسم الثاني من هذه الدعوة هو أن دعوة التوحيد لا يمكن قبولها إلا من خلال التسليم بما جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . وقد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم ليذكر الناس بأنهم لم يخلقوا إلا لأمر واحد هو العبادة كما جاء في قوله تعالى : { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } حقاً أن هناك إجماعاً من الأمة على أن امتلاك السلطة هو خير وسيلة لتحقيق هذه العبادة بين الناس " وأن الله ليذع بالسلطان ما لا يذع بالقرآن " فإنه مع ذلك تظل السلطة وسيلة لتحقيق هذه العبودية. صحيح هي الوسيلة الأكبر التي ينبغي على كل مسلم السعي إليها في سبيل تحقيق العبودية لله وحده ولكنها تظل مع ذلك وسيلة . فكيف يمكن التضحية بهذه الغاية العظيمة من أجل بلوغ هذه الوسيلة ؟ !!!!!!!!! . . . .

حقاً إن الضغوط المتلاحقة وحصار القوى العالمية وعلى رأسها أمريكا لهذه الحركة قد جعل بلوغ هذه الوسيلة أمر دونه القتال فما الذي نفعل عند ذلك . هل نتنازل

عن الإسلام نفسه عند ذلك لإرضاء هذه القوى ونقول أننا قد نجحنا في بلوغ هذه الوسيلة؟ !.

أم يكون الأفضل أن نصبر على بلوغها ليقضي الله أمراً كان مفعولا ونظل محتفظين بإسلامنا متمثلا ذلك في تمسكنا بالمرجعية الإسلامية على قدر المستطاع منها؟!.

خلاصة ما أقول هو ما هو الأفضل لنا ؟ هل الإسلام بلا سلطة أم السلطة بلا الإسلام ؟!.

لقد علمنا الإخوان في زمن سابق أننا دعاه لا قضاة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نتعلم أيضاً أننا دعاة لا طلاب سلطة .

- هل ما فعله هؤلاء اجتهاد مأجور ؟!

فهل مسألة قبول أو عدم قبول المبادئ الديمقراطية الليبرالية هو من باب الاجتهاد في الفقه ؟

يا لا الغرابة والجرأة على الإسلام إن مسألة حل أو حرمة إظهار وجه المرأة يظل الجدل عليها قروناً ويكتب فيها مجلدات أما التنازل عن الإسلام كله فلا يتطلب لدي هؤلاء سوى كتابة عبارة واحدة هي الادعاء بأن ذلك يدخل في باب الاجتهاد !!! . . . .

يا سادة إن الاجتهاد لا يكون إلا فيما يدخل في نطاق المرجعية الإسلامية بعد التسليم بها أي بعد التسليم بأن كل شيء يجب أن نحتكم فيه إلى الله ورسوله . والتسليم بالقطعيات التي جاءت في هذه الأحكام، ويمكن القول عند ذلك أن الخلاف حول الظنيات – مع الالتزام بقواعد الأصول – يكون من باب الاجتهاد . أما التنازل عن المرجعية الإسلامية كلها فلا علاقة له بالاجتهاد .

أم أنه بقدرة قادر قد غدا تطبيق الشريعة ليس من القطعيات ؟!!!

أم أن كون الإسلام دين ودولة ليس من القطعيات ؟!!!

أم أن الاستجابة لشعائر المعبد العلماني لا يعني التنازل عن المرجعية الإسلامية؟!!!!

يذهب الغنوشي وآخرون أن هؤلاء القائمين على العدالة والتنمية قد حققوا بعض المكاسب للدين بوجه عام مثل زيادة التدين في أوساط الشعب التركي والانتشار الأكثر للحجاب ومنع مشاركة الجيش التركي الأمريكيين في غزو العراق ؟

أقول أن هؤلاء لم يصنعوا شيئاً واحدا له علاقة بتطبيق قواعد الدين هذا فضلاً عن كون الإسلام لا يقبل التجزؤ ثم إن أخذ عناصره بعد التنازل عن مرجعيته الشاملة وزرعها في نظام ينتمي إلى مرجعية أخرى قد يكون من باب الظلم لا العدل.

فما كان لهؤلاء الذي بلغوا السلطة بالتحالف مع القائمين على صناعة الدعارة في تركيا أن يتمسكوا كثيراً بتطبيق قانون تحريم الزنا على سبيل المثال فقد تم العصف به فوراً بعد تلميح الاتحاد الأوروبي بغضبه من ذلك . أما حكاية انتشار التدين والحجاب فهذا اطراد طبيعي لتنامي المد الإسلامي في تركيا وغيرها وليس لهؤلاء فضل فيه . والأكذوبة الكبرى هي ما يحكي عن منع هؤلاء لاشتراك الجيش التركي في الحرب على العراق لأن الذي فعل ذلك هو ضغط الشعب التركي على البرلمان بينما الذي كان يفعله قادة العدالة والتنمية هو الضغط في الاتجاه المقابل أي في اتجاه قبول البرلمان لمشاركة الجيش التركي في الحرب .

والخلاصة في تقييم كل ما يفعله قادة العدالة والتنمية يعبر عنه دعوة أغلب القادة الأمريكيين إلى جعل نموذج حكم هذا الحزب هو النموذج الأمثل الذي ينبغي تسيده في المنطقة . فهل هؤلاء القادة الأمريكيون قوم من البلهاء ؟ أم نحن ؟

- هل العلمانية حقاً مصطلح ملتبس للغاية ؟

أقول قد يكون الأمر كذلك في المقتضيات التطبيقية التفصيلية للمفهوم ولكن ليس في المعنى العام له والذي يقصد به الاقتصار على مرجعية العقل فقط في إدراك الحقائق

وتحديد قواعد السلوك . ومن ثم إقصاء الدين أو الوحي تحديداً عن أن يكون مرجعية لذلك . وأتحدى أن يوجد مرجع واحد عن العلمانية يخرجها عن هذا المعنى.

وهذا ما يهمنا أصلاً من الموضوع مهما اختلفت التعريفات فمادام سيتم إقصاء الوحي كمرجعية فما الذي يتبقى لدينا بعد ذلك وما الذي يهمنا بعد هذا – من حيث التناقض مع الإسلام – أن هؤلاء الذين يقومون بإقصاء الوحي كمرجعية سيتركوننا نعبد الله فقط في المساجد أم سيدمرونها فوق رؤوسنا (كما فعل الماركسيون سابقاً وكما يفعل الأمريكيون الآن) أم أن الذي سيتركونه لنا من الإسلام ليس سوى الحديث عن مجموعة القيم المجردة مثل العدالة والحرية والمساواة والتي يتحدث عنها مثلنا كل مذاهب وشعوب الدنيا ويتم تفسيرها كل على وبحسب ما تقتضيه مصالحه.

المسألة تتحدد أساساً في قبول المرجعية أو رفضها وبعد ذلك ليس هناك سوى الاغتيالات الفكرية للبس والتضليل والتي تفرد العلمانيون بإبداعها زمناً طويل وينافسهم الآن فيها الإسلاميون الليبراليون.

يقول الغنوشي أن هناك علمانية شاملة وعلمانية جزئية يمكن التوائم معها وأن الذي يقول بذلك الدكتور عبد الوهاب المسيري العلامة الحجة في مثل هذه الدراسات .

أقول لا تحملوا الرجل أكثر مما يطيق فالدكتور المسيري الذي كانت تربطني به علاقة حميمة للغاية رجل فذ فريد في نقد الحضارة الغربية والأسس الفلسفية القائمة عليها فهذا هو الأمر الذي فرغ له حياته فإذا أردنا أن نستفيد من دراساته عن العلمانية فلنستفيد في هذا الاتجاه أي فيما يتعلق بنقد هذه العلمانية وأثرها على المجتمعات الإنسانية . أما الجانب الشرعي من المسألة فالرجل ليس له باع في ذلك فالتراكم المعرفي للدكتور المسيري هو تراكم معرفي لعلوم إنسانية في الأساس ولم تسعف الرجل ظروفه الصحية لصنع تراكم معرفي إسلامي مقابل . وعلى القارئ أن يعود لنقدنا لفكر المسيري في هذا الاتجاه في كتابنا (العلمانية العدو الأكبر للإسلام) هذا في الفصل المتعلق بتمييع الفوارق بين الإسلام والعلمانية.

البحث عن الخيار الأصلح للثورات العربية (٢)

البحث عن الخيار الأصلح للثورات العربية (٢)

"إن وضع الأسس النظرية للمشروع الحضاري الإسلامي يعوق تحـول الحكـم الإسلامي إلي شعار بلا مضمون مما يتيح لبعض التيارات السياسية الساعية إليـه إلـي المساومة علي أسسه بلا ضابط يردعها ، لأن فقدان هذه الأسـس والمـضامين يجعـل السعي إلي إقامة الحكم الإسلامي يؤول عند الضغط والمساومة إلي السعي إلي إقامة حكم المنتمين للتيار الإسلامي الساعين إلـي ذلـك دون إقامـة الحكـم الإسـلامي نفـسه [النموذج الإربكاني الذي انمحت فيه الكثير من معالم الحكم الإسلامي علي سبيل المثال].

حيث يمكن الادعاء حينذاك بأن ما يقومون به من ممارسات هو الحكم الإسلامي المعار مادامت صورة هذا الحكم مفقودة لدي الجماهير ، مدعومين في هذا بقوة الحكـم نفسه ، ومدعومين أكثر بقوة ادعاء إسناده إلي الشرعية الإسلامية الأمر الذي لا يعنـي خروج المخالف لهم علي حكمهم فقط وإنما علي الشرعية الإسلامية ذاتها مما يمكنهم من البطش به ، خصوصاً أن بعض الحركات الإسلامية المساومة تكون عادة علي درجة من القسوة في تعاملها مع الإسلاميين تناظر الدرجة التي تكون عليها من التساهل مع القوي الكبرى المعادية للإسلام إن لم تكن تفوقها.

ليس هذا فقط ... بل إن هذا المشروع الحضاري الإسلامي يمنح الفرصة للقفـز الأمريكي إلي سدة الحكم باسم الإسلام نفسه ، وذلك من خلال نموذج الإسلام الأمريكي والتغطية علي كل ذلك بإطلاق ضوء الإعلام الزائف الذي يخفي الحقائق فما دام للنموذج الحقيقي مفقوداً فإن كل بدائل الزائف قابلة للوجود .

وهكذا فإن كل ما سبق يحتم علي الحركة الإسلامية بكل تياراتهـا إذا أخلـصت العمل لله حقاً أن تقدم المشروع الحضاري أولا قبل أية خطوة في سـبيل قيـام الدولـة الإسلامية . ليس هذا فقط ، بل والعمل بأقصى طاقة لإعلام الجماهير بهذا المـشروع ، بهدف تكوين قاعدة عريضة منها تدعو إلي المشروع وتـدافع عنـه وتكـون حارسـه

الحصين بعد ذلك عند التطبيق ، حتى لا يكون الأمر مجرد تجمعات غوغائيــة يمكــن سوقها كالشياة إلي الذبح من قبل طلاب السلطة أو من قبل القوى المعادية للإسلام تحت شعار الحكم الإسلامي نفسه " .

هذا ما كتبته في خاتمة كتابي (الإسلام والغرب الأمريكي : نظرية في تفـسير الصراع) وأعادتُ كتابته في خاتمة كتابي (الإسلام الليبرالي) ثم أتبعته في هذا الكتاب الأخير بالتالي ..

" أما منهجنا إلي ذلك فهو امتلاك العقلية الاجتهادية أولاً ، ولا أعتقد أني منفــرد في ذلك ، ولكني أحد المعبرين عن تيار عريض ينتشر في العالم أجمع ، وإن كان لم يقم أحد ببلورة أفكاره في صياغة منهجية متكاملة حتى الآن [وأرجو مــن الله أن أســتطيع القيام بذلك في مشروع كتابي القادم] .

هذا التيار القديم الجديد هو تيار السلفية التجديدية أو الأصولية التجديدية .

ولكي تتضح معالم هذا التيار ويبرز تميزه عن تيار السلفية التقليدية فإنني أضع ركائزه في المعادلة التالية :

الأصولية التجديدية = الأصول + العقل + الواقع .

وركيزة الأصول تعني التمسك بفهم قواعد وأصول الدين كما فهمها سلفنا الصالح في القرون الثلاثة الأولي تطبيقاً لقوله صلي الله عليه وسلم : " خير القرون قرني ، ثــم الذي يليه ثم الذي يليه "

وركيزة الواقع تعني استيعاب متغيرات هذا الواقع الذي نعيشه وأبعاده المختلفة ، ويأتي علي رأس ذلك التيارات الفكرية الغربية ، ليس فقط للقدرة علي نقدها – كما يظن البعض – ولكن لأنها هي التيارات التي تشكل تكوين هذا الواقع مادام العالم الغربي الذي يحملها هو العالم السيد علي هذا الواقع .

ثم تأتي ركيزة العقل ليكون التفكير الحكيم الذي أمرنا الله به مراراً في القرآن الكريم [ولا أدري كيف – مع كثرة هذه الآيات – مازال ينفر البعض من مجرد صفة المفكر الإسلامي !] هو أداتنا في تفعيل العلاقة بين هذه الأصول التي نتمسك بها والواقع المعاش المحيط بنا فنحتفظ بالثوابت كما هي وفي إطارها نستخلص الأحكام المتجددة للمتغيرات المرتبطة بهذا الواقع .

هل أوضحت بذلك معالم هذا المنهج ؟ أرجو أن أكون قد فعلت .

ولكن ... هل يعني ذلك أنني أهدر كل الجهود الأخرى للحركة الإسلامية ؟

لا ... ولكنني أكرر مراراً ومراراً أن هذا الذي أقوله لا بد أن يكون المحور الرئيس ، ولنفعل بعد ذلك كل ما نريد ، وإلا سنظل ندور في حلقة مفرغة كما هو واقع الحال منذ عشرات السنين .

أما إذا لم يكن أمامنا سوي الاختيار بين أثنين : إسلام بلا سلطة أو سلطة بلا إسلام ... فالحقيقة أن هذا لا يمثل لنا خياراً ، لأن عقيدتنا توجب علينا أن نتمسك بقواعدنا الإسلامية حتى إذا لم يتأت مع هذا التمسك الوصول إلي السلطة .

بل ما يجب أن تكون عليه أهدافنا هو تطبيق الإسلام في الحكم لا امتلاك الحكم نفسه ، حتى تتجرد المسألة عن أشخاص دعاتها ، فلا يتم الخلط بينها وبينهم . وإذا كان البعض قد رفع شعار (دعاة لا قضاة) في زمن مضي ، فعلينا أن نرفع الآن شعار (دعاة لا طلاب سلطة)" .

أما ما أضيفه هنا فالتالي : ..

بعد أن سقطت الخلافة الإسلامية نهائياً عام ١٩٢٤م وإن كانت قد سقطت فعلياً قبل ذلك بكثير، أثار ذلك الفزع في كل الأوساط الإسلامية فنهض الكثيرون من المسلمين عازمين علي استرجاعها بكل الوسائل الممكنة كان من بين هؤلاء شاب صغير شديد العزم وافر الجهد وقّاد الذكاء قرر سريعاً تكوين جماعة صغيرة تكون بمثابة نواة ناشطة

تبث في جسد الأمة روح العمل علي استرجاع الخلافة وإنهاض الإسلام من جديد وبارك الله في هذه النواة وصارت جماعة كبيرة وغدا الفتي علي صغر سنة الرجل الثاني في قيادة الحركة الإسلامية في مصر بعد رشيد رضا وبعد وفاته غدا هذا الشاب هو الرجل الأول في قيادة الحركة هذه الحركة.

هذا الشاب هو حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين الذي تناقلت أخباره في ذلك الوقت كل الدنيا وعملت كل قيادات الحركة في الدول الإسلامية علي التعاون معه وقام هو نفسه بفتح أبواب الجماعة لكل القيادات الإسلامية هنا جاء المودودي والندوي ومحمد علي جناح وكل القيادات الإسلامية الأخرى .

وعلي الرغم من عمقه الفكري والأصولي وهو ما تشهد له أصوله العشرين لم يتردد في استعانة الجماعة بالجهود الفكرية للآخرين ككتب المودودي لأن جهوده الأساسية كانت تنشط في العمل الحركي أكثر من أي شأن آخر حتى غدت كبرى الحركات الإسلامية في العالم وأثبتت مصداقيتها بمشاركتها الجهادية في حرب تحرير فلسطين عام ٤٨ وأبلت فيها بلاءً حسناً حتى أن أبرز رجالها القائد أحمد عبد العزيز الذي صار فخار الأمة المصرية كان أحد رجال الإخوان المسلمين . لذلك لم تعد القوى المعادية للإسلام في الداخل والخارج بقادرة علي تحمل الرجل وجماعته فتم التخلص من الرجل وهو في قمة شبابه وتم العمل علي تصفيه الجماعة التي دخلت في محن متوالية في عهد الملك ثم في عهد عبد الناصر قدمت فيها عشرات الشهداء إن لم يكن مئات الشهداء وعشرات الآلاف من المعتقلين لتبدأ عهداً جديداً بعد خروج أبنائها من المعتقلات في عصر السادات يتقدم فيه رويداً رويداً السياسي عن الفكري الأصولي مع زعامة المرشد عمر التلمساني حتى بلغت طوراً يكاد يكون غريباً عن أسسها النظرية منذ أوائل التسعينات وبدا أن السياسي هو المسيطر علي المشهد بالكامل وعلي الرغم من ذلك تعرضت الجماعة لبعض الضربات المحددة والمتعاقبة وحققت الكثير من المكاسب السياسية وغير السياسية أيضا في عصر مبارك حتى قامت الثورة وكانت مشاركتها فيها.

ما المقصود من ذكر ما سبق ؟

المقصود أننا لا نكره جماعة الإخوان ونقدر جهودها وجهادها وأهدافها وتضحياتها التي استمرت لعشرات السنين لبلوغ هذه الأهداف حتى غدت الجماعة الأجدر لاستلام زمــام الأمور وقيادة الدولة المصرية الآن . وها هم الناس في سدة الحكم ويقــودون مجلــس الشعب علي اقل تقدير فأي مصلحة في معاداتهم ؟ !

أما مناصرتهم ضد خصومهم من غير الإسلاميين فجانب منه مــصور صــوت وصورة علي الشاشات الفضائية والجانب الآخر الله أعلم به ولكن في ظل دفع البلاد من القوى المعادية في الداخل والخارج إلى الخيار بين درجــات متفاوتــة مــن النمــوذج الاردوغاني فإننا نشعر بالرعب ونضع أيدينا علي قلوبنا إن يكون مصير كل تلك الجهود للجماعة وللحركات الإسلامية الأخرى هو ذلك الحلم الزائف الذي لا ينتهي .

لقد وضع في أيدينا حق اختيار الدستور الذي يحدد مصير البلاد فترى ماذا نفعل في تلك اللحظة التاريخية الحاسمة ؟ خصوصاً لو تأكد حصولنا علي الرئاسة أيضا فهل نقابل الأمور بروح الاستضعاف والترضية والمراوغة والاستئناف ؟

أم نعمل جادين علي وضع الأمور في نصابها ونصبغ البلاد بالصبغة الإسلامية الراشدة " صبغة الله وما أحسن من الله صبغة " ؟

وكان يجب أن نناقش هنا أشياءً كثيرة عن رؤية الجماعــة للمرحلــة القادمــة ومواقفها المحتملة فيها ولكن نظراً للظروف التي تمر بها الحركة الإسلامية بوجه عــام وجماعة الإخوان بوجه خاص فأننا سنؤجل مناقشة ذلك للحظة قادمة .

وفق الله جميع المسلمين إلي ما فيه خير الإسلام وخيرهم ونجاهم مما يحاكُ لهم من مؤامرات وفتن .

الفقير إلي الله

محمد إبراهيم مبروك

الجيزة – الأحد ٢٠١٢/٥/٢٧

ت : ٠١٠٠١٤٩٠٤٩٩

الفهرس

تحت الإعداد للطبـع

- نقد الليبرالية واستبعادها للشعوب .
- نقد المذاهب الغربية (المجلد الأول) .

كُتب المؤلف

- أمريكا والإسلام النفعي (البرجماتي) . طبعة ثانية
- علمانيون أم ملحدون .
- تزييف الإسلام وأكذوبة المفكر الإسلامي المستنير .
- كن قوياً بالإيمان . طبعة ثانية
- الصراع حول المادة ومنهج الحياة .
- مواجهة المواجهة .
- نظرية الفن الإسلامي .
- موقف الإسلام من الحب بين الرجل والمرأة .
- أنت أعطيت البرأة لقاتلينا . (ديون شعر)
- الإسلام والعولمة . طبعة ثانية
- أبن رشد وقيام المصير .
- حقيقة العلمانية (جزء أول) .
- حقيقة العلمانية (جزء ثان) .
- الإسلام والغرب الأمريكي بين حتمية الصدام وإمكانية الحوار
- الإسلام الليبرالي .
- الرد علي بابا الفاتيكان وهجوم الغرب علي الرسول ﷺ .
- العلمانية العدو الأكبر للإسلام .
- جمال البنا والإسلام علي الطريقة الأمريكية .
- أيتها الملكة : دمي علي يديك (ديون شعر)
- لماذا نقول لا للنموذج التركي .